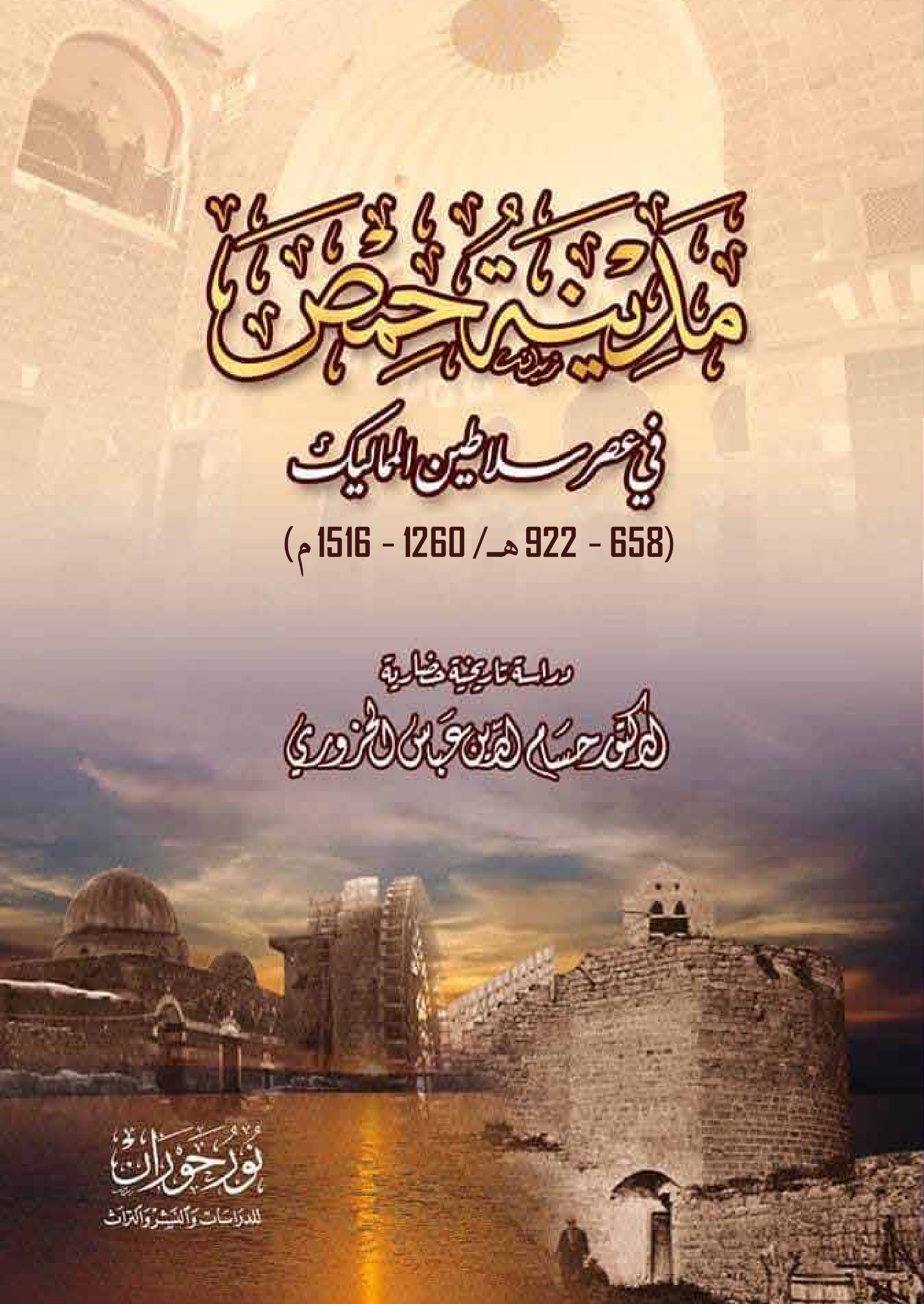
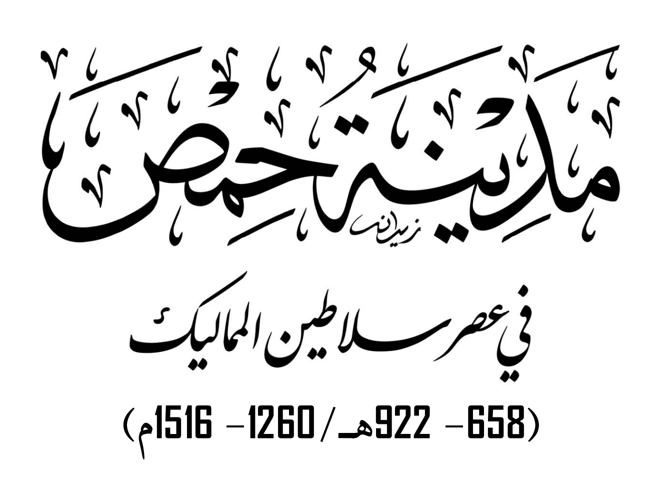

مدينة حمص
في عصر سلاطين المماليك
(658 - 922 هـ/ 1260 - 1516 م)
دراسة تاريخية حضارية
الدكتور حسام الدين عباس الحزوري
نور حوران
للدراسات والنشر والتراث

مدينة حمص

في عصر سلاطين المماليك

(658- 922هـ/1260- 1516م)



دراسة تاريخية حضارية

الدكتور حسام الدين عباس الحزوري



العنـوان: **مدينة حمص في عصر سلاطين المماليك (658- 922هـ/1260- 1516م)**

المؤلف: **الدكتور حسام الدين الحزوري**

حجـم الكتـاب: **17 × 24**

عدد الصفحات: **288**

طبعة جديدة منقحة

سنة النشر: **2021**

الناشر: **نور حوران للدراسات والنشر والتراث دمشق**

ISBN: **978-9933-600-56-3**



© نور حوران

للدراسات والنشر والتراث

دمشـــق ـ سورية ـ ص. ب **5658**

00963 933 329 555

00963 941 329 555

e.mail: nourpublishing@gmail.com



© مرايا

للطباعة والنشر والتوزيع

الحي الإنكليزي - السوق الصيني، المدينة العالمية دبي

الإمارات العربية المتحدة

00971 55 624 1269

00971 50 709 9425

e.mail: marayabooks@hotmail.com

الإهداء

إلى مدينة خالد بن الوليد

حمص العدية

مدينتي التي ولدت وترعرعت فيها

مدينة الذكريات وملاعب الصبا

أقدم عملي هذا

أ. د حسام الدين عباس الحزوري

مكة المكرمة 1441/11/19

2020/7/10

المقدمة

مما لاشك فيه أن تاريخ دولة سلاطين المماليك في مصر والشام والحجاز هو من الأحداث السياسية الهامة في تاريخ الإسلام، وذلك بسبب قدرتهم على تحقيق كثير من الانتصارات ضد هجمات المغول والحملات الصليبية، وقدرتهم على بسط سيطرتهم السياسية والعسكرية على مصر والشام والحجاز، حيث خضعت نيابة حمص في عهد ملكها الأشرف موسى للتبعية المملوكية في أعقاب معركة عين جالوت سنة (658هـ/1260م) حينما أقرّ السلطان قطز في العام نفسه الملك الأشرف موسى حاكماً على حمص وتوابعها باستثناء تل باشر، وبعد مقتل قطز في 5 ذي القعدة 658هـ/ 26 تشرين أول 1260م.

أعلن الأشرف موسى ولاءه للظاهر بيبرس بمحاربة المغول في المعركة التي دارت شمالي مدينة حمص قرب قبر خالد بن الوليد، وبإعلانه أن جميع ما يملكه قد انتقل إلى الملك الظاهر بيبرس، وليؤكد تبعيته هذه ذهب ليقدم الخدمة (الولاء والطاعة) للملك الظاهر بيبرس سنة (661هـ/1262م) أثناء إقامته في دمشق حيث خلع الملك الظاهر بيبرس على الأشرف، وأقره على حمص ومضافاتها، وأرجع إليه تل باشر التي اقتطعها منه المظفر قطز.

وبقي الأشرف موسى يحكم حمص وأعمالها حتى توفي سنة (662هـ/1264م)، وبعد وفاته أرسل الظاهر بيبرس نوابه لاستلام حمص وهو آخر من ملك حمص من أسرة شيركوه، وبعد ذلك أصبحت حمص نيابة مستقلة تتبع مباشرة للسلطان المملوكي في مصر.

وقد خضعت بلاد الشام للسلطة المملوكية بعد هزيمة المغول في معركة عين جالوت سنة (658هـ/1259م) فقاموا بتقسيم هذه البلاد إلى كيانات عدّة

تخضع للسلطة المركزية في القاهرة، وهي ما عُرف بالنيابات؛ وهي نيابة دمشق ونيابة حلب ونيابة طرابلس ونيابة حماه ونيابة صفد ونيابة الكرك، ويعتبر هذا التقسيم استمراراً للتقسيم الذي كان سائداً خلال العهد الأيوبي.

وقد اعتلى عرش حكم هذه النيابات عدد من الأمراء الكبار الذين صار بعضهم فيما بعد سلاطين بالقاهرة، فقد كانوا يختارون في الغالب من أرباب السيوف، وكان كل نائب من نواب هذه النيابات مستقلّ عن غيره، وتعد نيابة دمشق أكبر نيابات الشام عموماً، مما دفع المؤرخ القلقشندي إطلاقه على نيابة دمشق عبارة "نيابة الشام" و"مملكة الشام".

وشعرت بضرورة نشر بحث علمي عن مدينتي حمص والعمل على بعث عمل للنور في عصر لم ينل الاهتمام من الباحثين به، كون الدراسات تركزت على النيابات الكبرى ومقر السلطنة في مصر أو الحجاز" مكة المكرمة والمدينة المنورة".

وتعد نيابة حمص من النيابات الصغرى التي كانت تشكل في بداية العصر المملوكي جزء من نيابة دمشق لكنها ابتدأت تأخذ شكل نيابة مستقلة مع مرور الزمن الأمر الذي أدى إلى استبعادها عن دراسة نيابة دمشق فاتجهت إلى الانفراد بدور إداري مستقل عن دمشق.

حيث شغلت حمص دوراً مهماً في الدفاع عن الدولة المملوكية ضد الخطر الصليبي والهجمات المتكررة لغزو المغولي، حيث دارت على أراضيها عدداً من المعارك، كما شارك جنودها في العديد من المعارك ضد الصليبيين في ساحل بلاد الشام وضد المغول أيضاً.

ولا يفوتني الإشارة إلى أن البحث استفاد عظيم الفائدة من دراسة سابقة وهامة جداً وهي الأولى من نوعها عن حمص بعنوان "حمص في العهد المملوكي" لمحمد مبارك الطراونة الجامعة الأردنية عام 1996، فقمنا بالاعتماد عليها وقمنا بتصحيح ما كان فيها وأفدنا البحث الحالي بمعلومات جديدة ومضافة لتغني البحث وأعطت شيء جديد عن نيابة حمص.

حاولت من خلال هذا الكتاب أن أضيف جهوداً جديدة لتلك القديمة للخروج بدراسة شبه متكاملة عن نيابة حمص خلال عصر سلاطين المماليك، ذلك العصر المليء بالانجازات الحضارية والعلمية، والتشييد المعماري (مدارس، بيمارستانات، ربط، زوايا، خوانق، جوامع، مساجد......) والمضطرب سياسياً سواء من الداخل (الصراع على الحكم والثورات والانتفاضات) أو الخارج (الصليبيين والمغول ومن بعدهم الهجوم العثماني) وإسقاط الدولة المملوكية، مع العلم أن هذه هي الطبعة الثانية للكتاب حيث أن الطبع الأولى كان فيها خلل كبير وكانت لدراسة عن رسالة الطراونة ولكن حدث نقص في المعلومات والمواد العلمية التي أضفتها على الدراسة وكذلك المادة العلمية التي تم نقدها، وخرج الكتاب بشكل فيه نقص في معلومات الكتاب نتيجة خلل في المراسلات الالكترونية والإخراج الفني التي تم تداركها في هذه الطبعة.

أ.د. حسام الدين عباس الحزوري

مكة المكرمة 19/11/1441هـ

2020/7/10

نظام الرق عبر التاريخ

يعد نظام الرق قديماً جداً، وجذوره ضاربة في القدم، ومن الصعب تحديد بدايته، فنظام الرق كان موجوداً منذ ظهور المجتمع الإنساني، فقد كان الإنسان ينظر إلى العمل على أنه من أصعب الضرورات وأشقها على الإطلاق، فبدأ يبحث عن المخلص من العناء والتعب، وكان المنقذ الوحيد هو أخوه الإنسان، فكان القوي يلزم الضعيف بالاشتغال، ومن هنا نشأ الرق، وكانت الحروب من أهم مصادر الحصول على الرق[1].

والأمم التي عرفت الرق منذ القديم كانت قد سنت قوانين وشرائع هذا النظام، فقد شاع استخدام هذا النظام عند اليونانيين القدماء وأقره واعترف به الفلاسفة اليونان كأرسطو وأفلاطون، وكذلك الرومان عدوه نظاماً ضرورياً[2].

أما الفرس فقد كانوا مسرفين في مسألة الرق وذلك بسبب حياة الترف التي عاشوها، في حين جعله قدماء المصريين آلة للإنتاج، أو إحدى أدوات الزينة والخدمة، أما الهنود فقد عاملوا الرقيق بقسوة وعنف على عكس ما عاملوا به الحيوان من رحمة[3]. كما عرف اليهود الرق، وكان الاسترقاق لديهم يتم بطريقتين: **الأولى**: استرقاق أفراد لارتكابهم خطيئة من الخطايا المحظورة شرعاً. استرقاق غير اليهود الذين وقعوا في الأسر.

---

(1) (عبد الدايم): عبد العزيز (الرق في مصر في العصور الوسطى) مكتبة نهضة الشرق - القاهرة - الطبعة الأولى - 1983 - ص7.

(2) (فايد): محمود (الرق في الإسلام) دار الاعتصام - القاهرة - الطبعة الأولى - 1989 - ص 7-9.

(3) فايد: المرجع نفسه ص 10-11.

وقد قامت اليهودية على التمييز العنصري، فهي لا تلاحظ الجانب الإنساني في غير اليهود[1].

ويرى الدكتور علي أحمد أنه:" يمكن للمرء أن يعرف معرفة أكيدة، في أن الشعب اليهودي لا يمكن أن يرقى إلى المستوى الإنساني الذي يجعله ينظر إلى الآخرين نظرة عادلة، تعتمد في أصولها على حقوق البشر في التمتع بحياتهم العامة والخاصة، بحيث لا يكون ذلك على حساب الآخرين، كما أنهم يجعلون من أنفسهم سادة غيرهم"[2]، وفي نظرهم أن الله تعالى وحده هو إله اليهود وحدهم، وهم - على حد زعمهم - أبناء الله وشعب الله المختار، وقد اختارهم ليكونوا سادة وليكون الناس عبيداً لهم، في حين عرفت المسيحية الرق أيضاً، غير أنها خففت من ظروف الاسترقاق بما غرسته من مبادئ إنسانية من عدالة ومساواة[3].

وعرف عرب الجاهلية - مثلهم مثل كافة الأمم الأخرى - نظام الرق، وكان حصولهم على الرق يتم عن طريق استرقاق أسرى الحروب، أو بالشراء، وكانت قبيلة قريش تتاجر بالرقيق كما كانت تتاجر بباقي السلع التجارية، وكان العربي إذا اشترى عبداً وضع في عنقه حبلاً وقاده إلى منزله مثل الدواب، وحُرِمَ الأرقاء عند عرب الجاهلية من حقوقهم المدنية كلها، كما حُرِموا أيضاً من التصرف بشؤونهم الخاصة.

وكانت الأمم التي سبقت الإسلام، كالفرس والرومان في العراق والشام ومصر تنظر إلى السكان الأصليين كما تنظر إلى العبيد، فاتخذت الكثير منهم أرقاء[4].

***

(1) عبد الدايم: المرجع السابق - ص 9-10 / فايد: المرجع السابق - ص12-13.

(2) (أحمد): علي (اليهود في الأندلس والمغرب خلال العصور الوسطى) مجلة دراسات تاريخية - العدد 57 أيلول - 1996 - ص 162.

(3) عبد الدايم: المرجع السابق - ص10.

(4) عبد الدايم: المرجع نفسه - ص11. (الحزوري)حسام الدين (نيابة دمشق في العصر المملوكي الأول) الهيئة العامة السورية للكتاب، دمشق، ط1، 2011، ص18-22.

نظام الرق في الدولة الإسلامية

ومع ظهور الإسلام لم يكن هناك من يستغرب أحوال الرق، أو من يشعر بالحاجة إلى تعديلها غير أن الإسلام حين جاء لم يأمر بالاسترقاق مطلقاً، ولم يرد في القرآن الكريم نص يؤكد جواز استرقاق الأسرى، ولكن الإسلام جاء فوجد الرق نظاماً اجتماعياً عالمياً يقوم عليه الاقتصاد العالمي، ووجد أن استرقاق الأسرى عرفاً دولياً تعترف به جميع الأمم. فعمل على معالجة تلك الظاهرة من خلال استئصال مصادر جلب الرقيق، بغية الوصول مع الزمن إلى إلغاء نظام الرق، ولكن من دون حدوث ثورة اجتماعية من الصعب ضبطها والسيطرة عليها أو قيادتها، فبدأ الإسلام تدريجياً بتجفيف ينابيع الرق، ويسر السبل التي ترمي إلى إطلاق سراح الأسرى، دون الوقوع في الاسترقاق، وأخذ يعمل على تحرير الأرقاء بوسائل وأساليب كثيرة[1]، وفي قصة إطلاق سراح أسرى بدر خير شاهد على ذلك[2].

غير أن الرق كَثر في المجتمع الإسلامي في العصور التالية لصدر الإسلام - ولاسيما الدولة العباسية وما تلاها - وسبب ذلك هو الانحراف عن النهج الإسلامي.وفي الوقت الذي استمرت فيه الحروب خلال العصور الوسطى أصبح امتلاك الرقيق في متناول المستطيعين بسبب الغنى والثروة، سواء الحاكمون منهم

---

(1) (النباهين): علي سالم (نظام التربية الإسلامية في عصر دولة المماليك في مصر) دار الفكر العربي - القاهرة - الطبعة الأولى - 1981- ص93-95.

(2) (ابن هشام): أبو محمد بن عبد الملك بن هشام بن أيوب الحميري (السيرة النبوية) تح. د. محمد نبيل طريفي - دار صادر - بيروت - الطبعة الأولى -2003- مج2 - ص197-199.

والمحكومون، فانتشرت تجارة الرقيق في الدولة الإسلامية، كما انتشرت في غيرها من الدول.

وتنوعت أنواع الأرقاء، فمنهم السود، ومنهم البيض (المماليك) ودفعت الأثمان الغالية في شرائهم، ويعد الصقالبة والأتراك أشهر الرقيق البيض في العصور الوسطى، وكان الرقيق الصقالبة موضع تفضيل، ومصدرهم بلغاريا العظمى، التي امتدت أراضيها من بحر قزوين إلى بحر الأدرياتي، في حين تمتع الرقيق الأتراك بمكانة ممتازة في البيوت الإسلامية، وكانت مصادرهم بلاد ما وراء النهر[1].

وأُحدثت للرقيق أسواق وبُنيت لهم خانات في المدن الكبرى، أشهرها دار التوفيق في بغداد وسوق الرقيق في دمشق وسوق سامراء في العراق، وخان مسرور في القاهرة[2].

ويميز أحد الباحثين بين لفظتي (المماليك) و(العبيد) حيث أوضح أن لفظة (المماليك) تعني ما يملك بقصد تربيتهم والاستعانة بهم كجند أو ما شابه ذلك.على عكس لفظة (عبيد) التي تعني العبودية، فالعبد يولد من الرقيق بينما يولد المملوك من أبوين حرين، كما أن العبد يعني الأسود، أما المملوك فيكون أبيض اللون، ولكن وجه الشبه بين الاثنين أنهما جمعتهما وحدة الغربة والمخاطرة[3].

ولقد استطاع هؤلاء المماليك السيطرة على مصر وبلاد الشام (فلسطين وسورية ولبنان والأردن) والحجاز ثم الجزيرة الفراتية وإقليم العواصم والثغور، وهو القسم الجنوبي من آسيا الصغرى. فمن هؤلاء المماليك الذين كانوا يديرون

---

(1) النباهين: المرجع السابق - ص96-97.

(2) النباهين: المرجع نفسه - ص98.

(3) (ماجد): عبد المنعم (نظم دولة سلاطين المماليك) مكتبة الأنجلو مصرية - القاهرة - الطبعة الثانية - 1982 - ج1 - ص11.

ملكاً واسعاً في مصر والأقطار التي تتبعهم؟ ومن أين أتوا؟ وكيف وصلوا إلى المنصب والسلطان؟ وما موقفهم من الشعوب التي حكموها؟ وهذا ما نتناوله في الصفحات التالية. ونبدأ بتعريف مصطلح المماليك إذ إنه في مجال دراسة التاريخ الإسلامي يجب توضيح المصطلحات والتعريفات ذات الصلة الوثيقة والمباشرة بموضوع البحث، لذا سنعرّف معنى(المماليك) لغوياً، ثم نتحدث عنهم من الناحية التاريخية.

قال ابن منظور في لسان العرب: "إن المملوك هو العبد والجمع مماليك، ويقال: هو عبد مملكة ومُملكة إذا مُلِك ولم يُملَك أبواه، ويقال: هم عبيد مملكة، وهو أن يُغلب عليهم ويستعبدوا وهم أحرار، والعبد القن الذي مُلك هو وأبواه.

وفي الحديث «لا يدخل الجنة سيئ المَلَكَة» أي الذي يسيء صحبة المماليك، ويقال: فلان حَسَنُ المَلَكة إذا كان حسن الصنع إلى مماليكه"[1].

والمملوك جمعه مماليك، اسم مفعول مشتق من الفعل العربي مُلك، واتخذ اللفظ معنى اصطلاحاً خاصاً في التاريخ الإسلامي فأصبح يقصد بالمماليك جموع الرقيق البيض الذين كانوا يصبحون رقيقاً إما نتيجة للأسر في الحرب أو الشراء من التجار الذين يجلبونهم إلى البلاد الإسلامية، حيث يطلبون أثماناً مرتفعة لبضائعهم[2]، وذكر المسعودي أن استخدام المماليك في الجيوش العربية الإسلامية قد ظهر منذ أمد بعيد حيث يعود إلى أيام الخليفة العباسي المعتصم (218-227هـ/ 833-842م) الذي بدأ بجلب الأتراك، وشكل منهم فرقاً عسكرية، وكان يرسل من يشتريهم، ليقوى بهم ساعده في الحروب التي واجهته، وليكونوا موضع ثقة، واستكثر منهم حتى اضطربت الروايات في مقدار

(1) (ابن منظور): محمد بن مكرم (لسان العرب) - دار صادر - ط6 - بيروت - مادة مَلَك ج14 - ص218.

(2) (زيتون): عادل (تاريخ المماليك) - جامعة دمشق - 1992- ص1.

عددهم، فقيل إن عددهم بلغ أربعة آلاف[1]. وقـال ابـن تغـري بـردي: (ثمانيـة آلاف)[2]، أما ابن الدقماق فذكـــر: (ثمانية عشر ألفاً)[3].

وقد جلبهم المعتصم ليكونوا موضع ثقته بعد أن ازداد نفوذ الفرس الـذين آزروا العباسيين، وقاموا بدور كبير في قيام الدولة العباسية.

ويبدو أن اعتماد المعتصم على الأتراك واختياره لهم دون غيرهم يرجع إلى أن أمه كانت تركية[4]. وعندما ازدادت أعدادهم في بغداد وصاروا يؤذون الناس بنى لهم المعتصم سامراء وأسكنهم فيها[5].

وهكذا أصبح الأتراك عنصراً مهمـاً في المجتمـع الإسـلامي، ولم يجعـل المعتصم الجيش منهم تخلصاً من العرب والفرس فحـسب، ولكـن لأنـه لمـس فيهم المقدرة على أن يكونوا جيش الخلافـة الإسـلامية العباسـية[6]. وكـان مـن الطبيعي أن يزداد نفوذهم بعد أن صار منهم الجيش، فلما ضعف سلطان الخلافة في الأقاليم، وجنح عمال الولايات إلى الاسـتقلال بولايـاتهم، وبـات الجـيش وقادته من الأتراك هو الوسيلة للقضاء على الحركـات الاسـتقلالية المختلفـة "، ازداد الأتراك أهمية على أهميتهم، وأصبح منهم الوزراء والولاة وأرباب الدولة،

---

(1) (المسعودي): علي بن الحسين (مروج الذهب ومعادن الجوهر) تح: قاسم الرفاعي - دار القلم - بيروت - الطبعة الأولى - 1989 - مج4 - ص 53

(2) (ابن تغري بردي): يوسف (النجوم الزاهـرة في ملـوك مـصر والقـاهرة) قـدم لـه محمـد شمس الدين - دار الكتب العلمية - بيروت - الطبعة الأولى 1992 - ج2 - ص285

(3) (ابن الدقماق): إبراهيم بن محمد (الجوهر الثمين في سير الخلفاء والملـوك والـسلاطين) تح: سعيد عاشور - مركز البحث العلمي - جامعة أم القرى - السعودية - ص113.

(4) (عبد المنعم): صبحي (الـشرق الإسـلامي زمـن المماليـك والعثمـانيين) دار العـربي - القاهرة - د.ر.ت.ط. - 17.

(5) (الطبري): محمد بن جرير (تاريخ الأمم والملوك) مطبعـة الاسـتقامة - القـاهرة - ج7 - ص231-323/ المسعودي: المصدر السابق: مج4- ص 23-54.

(6) النباهين: نظام التربية الإسلامية - ص100.

وبذلك ظلت الدولة قائمة آنذاك تعتمد على هذا العنصر[1]. فالدولة الصفارية (254 - 298هـ/ 868 - 911م) استعانت بهم، واستخدمهم الصفاريون (261-389 هـ/ 874-998م) في جيوشهم منذ عام (300هـ/ 912م)[2].

أما في مصر فقد استخدم الطولونيون المماليك الأتراك بشكل واسع، واعتمدوا عليهم في قيام دولتهم واستمرارها (254 - 292هـ/868- 905م). إذ طمع أحمد بن طولون التركي الأصل بالاستقلال في حكم مصر[3].

كذلك اعتمدت عليهم الدولة الإخشيدية (323 - 358هـ/935-969م)[4]. واتبع الفاطميون السياسة نفسها التي سار عليها كل من الطولونيين والإخشيديين، فاستخدموا الأتراك المماليك في جيشهم منذ عهد الخليفة الفاطمي العزيز بالله (365 - 386هـ/ 976-996م) وازداد عددهم في الدولة وكانوا سبباً في انهيار الدولة[5].

وبعد أن انتقلت السلطة إلى الأيوبيين، وجد صلاح الدين الأيوبي (567-589هـ/1172-1193م) نفسه مضطراً للاعتماد عليهم، وذلك بسبب الظروف السياسية التي شهدت الصراع بين الصليبيين والمسلمين، فلجأ إلى تقوية جيشه بهم عدداً وعدة فقد ذكر المقريزي في الخطط أنه: "أزال جند مصر من العبيد والسود والأمراء المصريين والعربات والأرمن وغيرهم واستجد عسكراً من الأكراد والأتراك خاصة، وبلغت عدة عساكره بمصر اثني عشر ألف فارس"[6]

---

(1) النباهين: المرجع نفسه - ص100.

(2) (طقوش): محمد سهيل (تاريخ المماليك في مصر والشام) دار النفائس - بيروت - الطبعة الأولى - 1997 - ص18.

(3) (المقريزي): أحمد بن علي (الخطط المقريزية) تح: د.محمد زينهم - مديحة الشرقاوي - مكتبة مدبولي - القاهرة - الطبعة الأولى - 1997 - ج1 - ص94.

(4) طقوش: المرجع السابق - ص19-20.

(5) (حتي) فيليب (تاريخ العرب) دار الكشاف - بيروت - الطبعة الرابعة - 1974 - ص707.

(6) المقريزي: المصدر السابق - ج1- ص94/ عبد الدايم: الرق في مصر -25-26.

وقام هو بنفسه بشراء مجموعة وكون منها فرقة يقال لها المماليك الصلاحية نسبة إليه، أو الناصرية نسبة إلى لقبه (الملك الناصر)[1].

ولكن أحد الباحثين يرى:" أنه لم يكن ثمة استمرار تاريخي يربط بين مماليك الأيوبيين، ومماليك كل من الطولونيين والإخشيديين والفاطميين، لأن هؤلاء كانوا أخلاطاً من البيض والسود، في حين كان مماليك الأيوبيين من أتراك القفجاق"[2].

وبعد وفاة صلاح الدين توزعت الدولة إلى إمارات يحكمها أفراد من البيت الأيوبي في مصر والشام، واختلفوا فيما بينهم، وتحاربوا حروباً كثيرة[3]. وكان على الملوك الأيوبيين سواء بمصر أو بالشام الاستعانة بأجناد من المماليك المجلوبين من بلدان مختلفة، وازداد نفوذ هؤلاء المماليك بسبب استمرار الحروب بين أبناء البيت الأيوبي حتى نجحوا في السيطرة على الحكم، وأقاموا دولة أكثروا فيها من شراء المماليك أمثالهم ليكونوا السند والعون لهم[4].

وكان هؤلاء يشترون من أسواق النخاسة في شبه جزيرة القرم، وبلاد القوقاز، وآسيا الصغرى، وفارس، وتركستان، وبلاد ما وراء النهر، ومنغوليا، إضافة إلى المماليك الذين الذين جلبوا من البلاد الأوروبية[5].

وعُرَفَ المكلفون بجلب المماليك الشبان كيف يختارون هؤلاء الأطفال من تجار الرقيق الذين كانوا يجوبون مراكز وأسواق النخاسة العالمية، وكانوا يمضون أياماً وشهوراً في تطبيق قواعد القياس لاختيار المملوك المناسب[6].

---

(1) طقوش المرجع السابق ص19-20.

(2) النباهين: نظام التربية الإسلامية - ص102-103.

(3) عبد المنعم: الشرق الإسلامي - ص18.

(4) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة - ج2 ص 162-163.

(5) ماجد: المرجع السابق - ج1 - ص12/ عبد الدايم: المرجع السابق - ص28.

(6) عبد المنعم: المرجع السابق - ص18.

وأتى التجار الأجانب بالمماليك عن طريق البحر، حيث يدخلون إلى القاهرة عن طريق ثغري دمياط والإسكندرية، بينما كان التجار المسلمون يأتون غالباً عن طريق البر، ثم يؤتى بالمماليك للبيع في أسواق القاهرة والإسكندرية وغيرها من الأماكن[1].

ولا بد من الإشارة إلى أن المماليك ليسوا كلهم من جنس الترك، فكان منهم من هو من أصل تركي كالظاهر بيبرس، أو جركسي كبرقوق أو من أصل تتري كالعادل زين الدين كتبغا[2].وهناك مماليك من أجناس متعددة كالروم والروس والأكراد والأوروبيين[3].

قيام دولة المماليك الأولى (648-784هـ/1250 - 1383م):

يبدو لنا بجلاء أن الفضل الأكبر في تكوين دولة المماليك الأولى "البحرية" يعود إلى السلطان الأيوبي الصالح نجم الدين أيوب (638 - 647هـ/ 1240-1249م) الذي استطاع أن يتولى الحكم في مصر بمؤازرة المماليك[4]، الذين عملوا على خلع العادل الثاني، وأقاموا الصالح نجم الدين في مكانه في السلطنة، وقد بقي الصالح نجم الدين أيوب معترفاً بفضل المماليك عليه وأهميتهم بالنسبة له في توطيد سلطانه والحفاظ على ملكه[5]، فعمل على الإكثار

---

(1) ماجد: نظم دولة سلاطين المماليك - ج1 - ص12-13.

(2) (ابن إياس): محمد بن أحمد (بدائع الزهور في وقائع الدهور) تح: محمد مصطفي - الهيئة المصرية العامة للكتاب - القاهرة - الطبعة الثانية 1982 - ج1 - ق1 - ص308.

(3) (عاشور): سعيد (نظم الحكم والإدارة في عصر الأيوبيين والمماليك) دار المعارف - سوسة - د.ر.ت.ط - ص6 / (العريني): السيد الباز (المماليك) دار النهضة - بيروت - الطبعة الأولى - 1979 - ص 57.

(4) عبد المنعم: الشرق الإسلامي - ص 21.

(5) (عاشور): سعيد عبد الفتاح (العصر المماليكي في مصر والشام) مكتبة الأنجلو مصرية - القاهرة الطبعة الثالثة - 1994 - ص5.

من شرائهم إلى درجة لم يبلغها غيره من البيت الأيوبي،حتى أضحى معظم جيشه من المماليك[1].

وأشار ابن إياس إلى أنه "اعتنى بتربيتهم تربية خاصة، ثم جعلهم بطانته وحرسه الخاص، ومع مرور الوقت أخذ نفوذهم يتضخم بشكل ملفت"[2] وأشار بعضهم إلى أن الصالح نجم الدين أيوب قد اعتمد عليهم مدفوعاً بعدد من العوامل السياسية تمثلت في:

1- إن العنصر الكردي ظل عماد الدولة الأيوبية منذ قيامها.
2- خوفه من أن تنقلب المماليك الكاملية والأشرفية عليه، إذا رجحت كفة أعدائه "الذين انقلبوا على أخيه العادل الثاني من قبل".
3- خوفه من الاتفاق بين البيت الأيوبي، بزعامة عمه إسماعيل، ضده ومهاجمتهم لمصر[3].

لكن بعد أن كثرت مضايقات هؤلاء المماليك للناس وظهرت سطوتهم وتعنتهم، والعبث بممتلكات وأرزاق الناس، وضج الشعب من اعتداءاتهم، وجد الصالح نجم الدين أيوب أن الحل يكمن في إبعادهم عن العاصمة، وهنا نتذكر ما فعله المعتصم مع الأتراك.فوقع اختيار الصالح على جزيرة الروضة في النيل، حيث قام ببناء قصر أحاطه بسور سكن فيه، كما أنه بنى لهم قلعة خاصة وأسكنهم فيها، لذلك عُرف هؤلاء المماليك باسم (البحرية الصالحية) حيث كانوا نواة دولة المماليك الأولى[4].

---

(1) (أبو الفداء) عماد الدين إسماعيل بن علي (المختصر في أخبار البشر) تعليق محمود ديوب - دار الكتب العلمية - بيروت - الطبعة الأولى - 1997 - ج2 ص285.
(2) ابن إياس: بدائع الزهور - ج1 ق1 ص169-270.
(3) طقوش: تاريخ المماليك - ص226.
(4) ابن إياس: المصدر السابق ج1 - ق1 - ص269/ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ج6 ص320.

وهنا نتساءل هل كان هؤلاء المماليك أول من أطلق عليهم عبارة "المماليك البحرية" في التاريخ الإسلامي؟ وهل استخدم هذا المصطلح في التاريخ الإسلامي قبل هذه الحقبة؟ ومن هم الذين استخدموا هذا المصطلح؟

أشار الدكتور سعيد عاشور إلى أن عبارة (المماليك البحرية) لم تذكر للمرة الأولى في التاريخ الإسلامي في عهد الصالح أيوب، فالفاطميون كانوا امتلكوا فرقة من الجند عرفت باسم (الغز البحرية).وكان للسلطان الأيوبي العادل الأيوبي فرقة من المماليك أسماها (البحرية العادلية)، كذلك امتلك السلطان نور الدين عمر - سلطان اليمن - مماليكه البحرية[1]. فيما رأى آخرون أنه من الخطأ القول بأن الصالح نجم الدين أيوب (هو أول من رتب المماليك البحرية)[2] مستندين في رأيهم على الأمور الآتية:

1- أن هذه التسمية أطلقها بعض المؤرخين المتأخرين المعاصرين له كابن واصل وأبي شامة ولم يوضحوا أن بحر النيل هو الأصل لكلمة البحرية.

2- كانت لدى الفاطميين طائفة من الجند تعرف (بالغز البحرية)[3].

3- بالإضافة إلى ذلك كان لدى السلطان العادل الأول - جد الصالح أيوب - فرقة من المماليك أسماها "البحرية العادلية"[4].

4- هناك بعض الفرق العسكرية المسيحية التي جاءت من أوروبا إلى الشام في أثناء الحروب الصليبية، حملت اسم "الفرنج الغرب البحرية" ومن ذلك ما أورده أبو شامة "في حوادث سنة (593هـ/1196م)" فتح

---

(1) عاشور: العصر المماليكي - ص5. طقوش: تاريخ المماليك - ص27.

(2) (زيادة): محمد مصطفي (بعض ملاحظات جديدة في تاريخ دولة المماليك) مجلة كلية الآداب - القاهرة - المجلد الرابع - 1936 ص12-46. العبادي: قيام دولة المماليك الأولى ص12 - 15.

(3) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة - ج4 ص234.

(4) زيادة: المرجع السابق ص 13.

الملك العادل يافا، ... ومن عجيب ما بلغني أنه كان في قلعتها أربعون من "الفرنج الغرب البحرية" وأيضاً - الفرنج العزب البحرية[1] - أي غير متزوجين.

وهناك رأي لمؤرخ أوروبي جاء مع الحملة الصليبية السابعة - حملة القديس لويس - وهذا المؤرخ هو جوانفيل الذي قال أنهم "يسمون بحرية أو رجال ما وراء البحار"[2]. والسبب في إطلاق التسمية حسب تفسير جوانفيل، أنهم جلبوا من أسواق النخاسة بالقوقاز وآسيا الصغرى، وشواطيءالبحر الأسود، والطريق الذي سلكوه من بلادهم إلى مصر هو عبر البحر الأسود ثم بحر القرم إلى خليج القسطنطينية ومنه إلى البحر المتوسط، حيث يسيرون فيه إلى ميناء الإسكندرية أو دمياط[3].

ونستنتج من هذه الآراء والتفسيرات أن نجم الدين أيوب لم يكن السبّاق في إطلاق عبارة "المماليك البحرية"[4] ومن أهم فرق المماليك التي وجدت في العصر المملوكي الأول (البحرية):

1- المماليك الصلاحية.
2- المماليك الأسدية.
3- المماليك الكمالية.
4- المماليك العادلية.
5- المماليك الأشرفية.
6- المماليك العزيزية[5].

---

(1) (أبو شامة): شهاب الدين عبد الرحمن (ذيل الروضتين) تح: إبراهيم شمس الدين - دار الكتب العلمية - ط1 - بيروت - 2002.ص13-14.

(2) P .84 . Joinville: History of sT.Louis.tr.Joan Evance.

(3) P 74 . Joinville: Saint Louis King of France.tr.James Hutton.

(4) عاشور: المرجع السابق ص5.

(5) عاشور: مصر والشام ص5.

وفي الوقت الذي كان فيه الصالح نجم الدين أيوب مريضاً طريح الفراش، وصلت الحملة الصليبية السابعة إلى دمياط[1]، ولكن المنية وافته قبل أن يتمكن من التصدي لها وذلك سنة 674هـ/1249م / تاركاً هذه المهمة إلى أرملته شجر الدر التي علمت خطورة الموقف، فأخفت موت زوجها خشية تضعضع موقف المسلمين، وفي الوقت نفسه أرسلت إلى الابن الوحيد الصالح نجم الدين الباقي في قيد الحياة المعظم توران شاه المقيم في حصن كيفا[2].

ولكن توران شاه الذي استلم الحكم تنكر لصنيع زوجة أبيه شجرة الدر، وأخذ يهددها ويتوعدها وأساء معاملتها. كذلك الأمر فإنه أساء معاملة مماليك أبيه[3] مما يدل على رعونته وعدم تقديره للموقف الذي تعيشه البلاد.

ورداً على تلك المعاملة السيئة التي فجعت بها شجر الدر من قبل توران شاه، طلبت النجدة والغوث من زعماء المماليك البحرية الذين اتفقوا معها على قتله.ولم يلبث أن قُتِل توران شاه في معركة فارسكور على يد مماليك والده.

وأشار ابن تغري بردي إلى مقتل توران شاه فقال: "وأرسلت شجر الدر للأمراء المماليك تقول لهم "اقتلوا توران شاه وعلي رضاكم"[4].

---

(1) دمياط: مدينة قديمة بين تنيس ومصر على زاوية بين بحر الروم وبحر الملح والنيل.مخصوصة بالهواء الطيب، وهي ثغر من ثغور الإسلام.(الحموي) ياقوت بن عبد الله (معجم البلدان) دار صادر - بيروت - الطبعة الثانية - 1995 ج2 ص472-475.

(2) المقريزي: الخطط ج3 ص350 / وحصن كيفا: هي بليدة وقلعة عظيمة مشرفة على دجلة بين آمد وجزيرة ابن عمر من ديار بكر، الحموي: معجم البلدان ج2 ص265.

(3) (المقريزي): أحمد بن علي (السلوك لمعرفة دول الملوك) تح: محمد عبد القادر عطا - دار الكتب العلمية - بيروت - الطبعة الأولى - 1997 - ج3 ص337 / (إبراهيم): علي حسن (تاريخ المماليك البحرية) مكتبة النهضة المصرية - القاهرة - ط2 - 1948 - ص31.

(4) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ج6 ص364.

وبعد مقتل توران شاه بدأ الخلاف بين المماليك على من يبـايعون بعـده، وكل منهم يحاول استبقاء الحكم في يده. لكن شجر الدر أخذت الشؤون الإدارية والشؤون العسكرية في يدها، ونقشت اسمها على النقود: "المعتصمة الـصالحية ملكة المسلمين والدة المنصور خليل خليفة أمير المؤمنين"[1].

كما اختلف المؤرخون في تسمية "المماليك البحرية"، كذلك اختلفوا حول أول من تسلطن من المماليك فتعددت الآراء في ذلك. فابن دقمـاق مـثلاً اعتـبر المعز أيبك أول سلطان مملوكي، وقد أيـده في ذلـك القلقـشندي[2]. في حـين خالفهم غالبية المؤرخين وعلى رأسهم المقريزي الذي عدّ شجر الـدر "أول مـن ملك مصر من المماليك"[3].

ومن الواضح أن قيام شجر الدر في السلطنة كان البداية العملية لدولة المماليـك، لأنها كانت بحكم أصلها الأرميني أقرب إلى المماليك منها إلى الأيوبيين[4].

وهكـذا يمكـن القـول بـأن دولـة المماليـك الأولى قامـت في شـعبان (647هـ/مايو1250م) على يد امرأة ذكية أرمينية أو تركية الأصل.

ما إن فرغ المماليك من حرب الصليبيين وتثبيت حكمهم في مصر، حـتى تعرضوا لامتحان آخر ألا وهو الهجوم المغولي على بلاد الشام، فبعـد اسـتيلاء المغول على بغداد عام (656هـ/1258م)، قصد هولاكو الشام، فوصل حلب، دخلها، ودمرها سنة (658هـ/1260م)، وبعد حلب توجه نحو حماة، ومـن ثم تابع نحو دمشق، واستولى عليها وعلى كافة الشام[5]. وتابع هولاكو مسيره نحـو

---

(1) ابن إياس: بدائع الزهور في وقائع الدهور - ج1 - ق1 - ص91.

(2) (القلقشندي) أحمد بن علي (مآثر الإنافة في عالم الخلافة) تـح: عبـد الـستار فـراج - مطبعـة حكومة الكويت - الطبعة الثانية - 1985 - ج2 ص94/ ابن الدقماق: الجوهر الثمين 244.

(3) المقريزي: السلوك - ج1 ص44.

(4) المقريزي: السلوك - ج1 ص391 / (حتي) فيليب: (تاريخ العرب) ترجمة: جـورج حـداد، دار الثقافة - بيروت - بدون تاريخ - ص266.

(5) القلقشندي: مآثر الإنافة - ج2 ص103-104.

مصر، فقد أرسل إنذاراً سنة (658هـ/1260م) إلى المظفر قطز طالباً منه الاستسلام، فما كان من قطز إلا أن عقد اجتماعاً عاجلاً مع أمراء دولته، انتهى إلى قرار برفض إنذار هولاكو.ولم يكتفِ قطز بذلك، بل أقدم على قتل رُسُل هولاكو، الذين حملوا الإنذار[1].

لكن طرأت بعض التغيرات على الساحة المغولية وذلك بسبب رحيل هولاكو من بلاد الشام، بعد أن سمع خبراً مفاده قيام صراع على السلطة في عاصمته، وخوفاً على أملاكه في إيران، فأوكل قيادة الجيش إلى قائده كتبغا[2].

أما المماليك فقد قرروا بعد المداولة الوقوف ضد المغول، وعلى الفور وضع السلطان قطز خطة عسكرية محكمة وذلك بأن يقوم الظاهر بيبرس على رأس قوة استطلاعية تذهب لدراسة الموقف على أرض الواقع، ثم تبعه قطز نحو فلسطين إلى عين جالوت، وهناك التقى الجيشان المغولي والمملوكي يوم الجمعة /25/ رمضان 658هـ/ 1260م.وأسفر هذا اللقاء عن نصرٍ حاسم للماليك، وغُلِب المغول، وقتل القائد المغولي كتبغا[3].

إن تخاذل ملوك بني أيوب في الدفاع عن ملكهم وبلادهم ضد المغول، واستسلامهم لهم، وفرارهم أمام ذلك الخطر جاء منهم بمثابة تنازل عن الحكم للمماليك[4]. وأضحى المماليك الذين تصدوا للمغول، وانتصروا عليهم، أصحاب المكانة العليا في نفوس الناس فالتفوا حولهم، وتحاموا بهم.

---

(1) (المنصوري) بيبرس (التحفة المملوكية في الدولة التركية) تح: عبد الحميد حمدان - الدار المصرية اللبنانية - الطبعة الأولى - 1987- ص43.

(2) طقوش: تاريخ المماليك - ص74.

(3) لمزيد من المعلومات حول هذه المعركة انظر: المنصوري: التحفة المملوكية ص43 وما بعدها / ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة: ج7 ص67 وما بعدها.

(4) زيتون: تاريخ المماليك ص20.

ومن أهم نتائج معركة عين جالوت :

1- لقي المغول لأول مرة في التاريخ هزيمة منكرة ساحقة، وأنقذت عين جالوت العرب والمسلمين، وأوروبا أيضاً لأن المغول كانوا ماضين في زحفهم نحو أوروبا.

2- استطاعت مصر أن تحافظ على حضارتها وثقافتها ومدنيتها التي خسرتها بغداد نتيجة الخراب والدمار الذي لحق بها على يد المغول، وأضحت مصر ملجأ للعلماء والأدباء

3- أظهرت هذه المعركة قوة المماليك كقوة أساسية في الشرق[1].

4- أدت إلى سيطرة المماليك على بلاد الشام كلها حتى نهر الفرات، وحققوا وحدة بلاد الشام ومصر بعد أن أدى ضعف خلفاء صلاح الدين، وتنازعهم إلى تمزيق هذه الوحدة[2].

ونستطيع القول: إن عين جالوت قد هيأت كما قال الدكتور إبراهيم زعرور: "لبناء هيكل الدولة المملوكية"[3] وذلك بسبب إزالة المماليك الأيوبية على يد المغول، وبعد هزيمة المغول، استطاع المماليك ضم بلاد الشام إلى سلطنتهم وكانت القوى الصليبية ما تزال موجودة فيها.

وعلى الرغم من التحالف الصليبي المغولي ضد المسلمين، إلا أن النصر في عين جالوت أدى إلى التعجيل في زوال الإمارات الصليبية في بلاد الشام على يد بيبرس وقلاوون وأولاده، واعترف المماليك بشرعية الخلافة العباسية التي سقطت على يد المغول.

---

(1) (رنيسمان): ستيفن (تاريخ الحروب الصليبية) ترجمة: السيد الباز العريني - دار الثقافة - بيروت الطبعة الثانية - 1980 - ج3 - ص358.

(2) طقوش: المرجع السابق: ص81.

(3) (زعرور): إبراهيم (الحياة الاجتماعية في بلاد الشام في العصر الأيوبي والمملوكي) تقديم سهيل زكار مطبعة الجمهورية - دمشق - 1993 - ص50

إعادة بعث وإحياء الخلافة العباسية :

جاهدت الدولة المملوكية الأولى على صبغ السلطنة بالصبغة الشرعية عن طريق إحياء الخلافة العباسية في مصر، فقد استند عليها الحكم المملوكي هناك. إذا شعر الظاهر بيبرس عقب انفراده بحكم مصر أنه في حاجة إلى تأييد شرعي لملكه وذلك لكثرة الأعداء المتربصين به، وكون المغول جعلوا من بغداد مركزاً لهم، وظلوا يهددون مركز بيبرس في القاهرة، إضافة إلى أنه لم يكن للمماليك قوة شرعية يستندون إليها في حكم البلاد[1].

عندها فكر الظاهر بيبرس في إحياء الخلافة العباسية، لتكون القوة التي يستند إليها في حكم مصر، وكذلك يكون حامي حمى الخلافة[2]، وكذلك الرد على إعلان الخلافة الحفصية في تونس عام 657هـ/1259م، والتي لم تعترف بها سلطنة المماليك في مصر[3]. وقد استقبل الظاهر بيبرس عام 659هـ/1261م أبا القاسم أحمد بن الظاهر[4] بأمر الله في القاهرة، وكان قبل ذلك محبوساً في بغداد.وعقد مجلساً لإثبات صحة نسب الخليفة حضره كبار رجال الدولة، وبعد ذلك بويع الخليفة ولقب بالمستنصر، وخرج بيبرس مع الخليفة الجديد في جيش كبير إلى دمشق، استعداداً لقتال المغول وطردهم من بغداد وذلك سنة 659هـ/1261م[5].ومما بلغته متانة السلطان أنه يحق له سجن الخليفة في قلعة

---

(1) حسن: دراسات في عصر المماليك البحرية - ص221.

(2) (غانم): حامد زيان (صفحة من تاريخ الخلافة العباسية في ظل دولة المماليك) دار الثقافة - القاهرة - الطبعة الأولى - 1987 ص18-19.

(3) (ابن عبد الظاهر): عبد الله بن رشيد (الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر) تح: عبد العزيز خويضر - الرياض 1976 - ص99.

(4) هو أمير أسود اللون مع جماعة من العرب زعموا أنه عم المستعصم العباسي، وأن اسمه أبو القاسم أحمد بن الظاهر (السيوطي): جلال الدين (تاريخ الخلفاء) دار الفكر - بيروت - الطبعة الأولى - 2001 - ص439.

(5) ابن عبد الظاهر: المصدر السابق - ص99 / السيوطي: المصدر السابق ص439.

الجبل أو أن ينفيه إلى قوص في أقصى الصعيد.ومع كل ذلك لم تبلغ إهانة سلاطين مصر للخلفاء العباسيين ما بلغته في عصر البويهيين والسلاجقة في العراق الذين كانوا يسملون أعين الخلفاء ويقتلونهم، وكان على رأسهم السلطان[1].وقد أفادت السلطنة المملوكية من ذلك المركز فائدتين هما:

1- أن سلاطين المماليك بدءاً بالظاهر بيبرس ظهروا أمام العالم الإسلامي حماة الخلافة والخلفاء، وأكسبوا السلطنة المملوكية شرعية لحكمها لم تكن لتكسبه من مصدر آخر.

2- أن وجود الخلافة العباسية في القاهرة زاد من متانة سلاطين المماليك، وجعلهم على درجة أعلى من سلاطين باقي البلاد الإسلامية وحكامها[2]. وكذلك نجح بيبرس في تحويل القاهرة إلى مركز للخلافة العباسية إذ انتقل إليها مجد بغداد وشهرتها الدينية والعلمية وقد أشار السيوطي إلى ذلك بقوله: "الإيمان والعلم يكونان مع الخلافة أينما كانت، حين أصبحت مصر داراً للخلافة، عظم أمرها، وكثر أثر الإسلام فيها، وصارت مقراً للعلماء، ومحطاً لرحالة فضلاء التجار"[3].

وبعد ذلك سارع أمراء المسلمين إلى القاهرة لتقديم الطاعة والخضوع للسلطان الظاهر بيبرس.

وقد تناوب على حكم العصر المملوكي الأول خمسة وعشرون سلطاناً إذا افترضنا أن شجر الدر هي أول هؤلاء السلاطين، وقد استمر حكمها ثمانين يوماً، ثم أتى بعدها المعز آيبك الذي يعد المؤسس لهذه الدولة بدأ حكمه

---

(1) (النهار): عمار (الحياة الفكرية في مصر في عصر دولة المماليك البحرية) رسالة دكتوراه - جامعة دمشق - 2005 - ص31.

(2) المنصوري: التحفة المملوكية ص 47.

(3) المقريزي: السلوك - ج1 ص427-429 - (السيوطي): جلال الدين (حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة) القاهرة -1981- ج2ص11.

648هـ/ 1250م، وانتهى حكمه بمقتله على يد زوجته شجر الدر في عام 655هـ/ 1257م، فتولى الحكم بعده ابنه نور الدين علي المنصور بعد موته بيوم واحد، وانتهى حكمه بخلعه عام 657هـ/ 1259م، ليتولى الحكم المظفر سيف الدين قطز الذي قتل عام 659هـ/1260م، فحكم بعده الظاهر بيبرس حتى وفاته سنة 676هـ/1277م، وجاء بعده ابنه السعيد محمد بركة خان وانتهى حكمه بخلعه عام 678هـ/ 1279م، فخلفه العادل سيف الدين سلامش ابن الظاهر بيبرس ولم تطل مدته فقد خلع ونفي في العام نفسه 678هـ/1279م.

ثم حكم المنصور سيف الدين قلاوون حتى توفي سنة 689هـ/ 1290م. وجاء بعده ابنه الأشرف خليل وانتهى حكمه بمقتله عام 693هـ/ 1293م. وخلفه الناصر محمد بن قلاوون (عمره تسعة أعوام) حتى عام 695هـ/ 1294م. ثم خلع وحكم العادل زين الدين كتبغا المنصوري حتى عام 697هـ/ 1296م. فحكم حسام الدين لاجين المنصوري حتى عام 698هـ/ 1298م. في العام نفسه عاد إلى الحكم ثانية الناصر محمد بن قلاوون حتى عام 708هـ/ 1308م. وفي العام نفسه تولى الحكم المظفر ركن الدين بيبرس الثاني حتى عام 709هـ/1309م.ثم عاد للمرة الثالثة الناصر محمد بن قلاوون حتى عام 741هـ/1340م، وحكم بعده ابنه المنصور أبو بكر حتى عام 741هـ/1341م، ثم جاء ابنه الأشرف علاء الدين كجك وحكم شهرين فقط..

ثم وصل إلى الحكم ابنه الثالث الناصر أحمد 743هـ/ 1342م.وفي عام 743هـ/ 1342م تولى الحكم الصالح إسماعيل رابع أولاد الناصر وحكم حتى عام 746هـ/1345م.وحكم بعده الكامل شعبان الخامس من أولاد الناصر حتى عام 747هـ/1346م، وجاء بعده الملك المظفر حاجي السادس من أولاد الناصر حتى عام 748هـ/ 1347، واستمر حكم الناصر حسن السابع من أولاد الناصر بعد مقتل أخيه المظفر حاجي وحكم حتى عام 752هـ/ 1351م.إذ وصل إلى الحكم الملك الصالح الولد الثامن والأخير من أولاد الناصر محمد وحكم حتى عام 755هـ/1354م.

وفي العام نفسه رجع الناصر حسن إلى الحكم والسلطة حتى قتل عام 762هـ/ 1360م. وحكم بعده محمد بن المظفر حاجي حتى عام 764هـ/ 1363م.

وجاء خلفه الأشرف شعبان وانتهى حكمه بخلعه وسجنه عام 776هـ/ 1376م.فحكم بعده علاء الدين علي وقتل في عام 779هـ/ 1381م.فحكم بعده الصالح حاجي بن شعبان، وانتهى حكمه بخلعه وتولية الظاهر برقوق أو سلاطين دولة المماليك الجراكسة وذلك في عام 784هـ/ 1382م، وبذلك انتهى حكم دولة المماليك البحرية التي استمرت تقريباً قرناً ونصف من الزمن.

ومن خلال هذا العرض توصلنا إلى الإحصائية الآتية:

1- إن خمسة وعشرين سلطاناً - باعتبار شجر الدر هي أول السلاطين - تولوا حكم مصر خلال ست وثلاثين ومئة سنة.

2- تكرر اعتلاء اثنين منهم للعرش أكثر من مرة هما:

أ- الناصر محمد بن قلاوون تولى الحكم ثلاث مرات.

ب- الناصر حسن تولى الحكم مرتين.

3- حوالي خمسة وعشرين سلطان تولوا الحكم خلال هذه المدة القصيرة من عمر الزمن، أي الوسط الحسابي لمدة كل سلطان خمس سنوات ونصف تقريباً.

4- ثلاثة سلاطين منهم لم يخلعوا، والباقي خلعوا مرة أو مرتين، عشرة منهم خلعوا أي حوالي 40%، و42% خلعوا وقتلوا.

ونستدل من هذه الإحصائية على كثرة تبدلات السلاطين (عزل - قتل - انتهاء حكم بسبب الوفاة) ما يدل على اضطراب الوضع السياسي وقصر مدة حكم السلاطين.

إذاً هذه هي حال الجو السياسي في عصر سلاطين المماليك البحرية الذي لم يكن مستقراً ولا شبه مستقر. بل كان مضطرباً على الدوام.

قيام دولة المماليك الجراكسة (البرجية) : 784ـ-922 هـ/ 1381- 1516م

تعد الأرض المشرفة على البحر الأسود من جهة الشمال الشرقي هي موطن الجراكسة، ولا تزال تعرف بهذا الاسم إلى اليوم، ونتيجة للصراع الذي كان دائراً بين مغول فارس ومغول القفجاق جعل أعداداً من أبناء الجراكسة تدخل سوق النخاسة وتنتقل إلى مصر. فاشترى السلطان المنصور قلاوون أعداداً منهم ليتخلص من صراع المماليك البحرية وليضمن الحفاظ على السلطنة له ولأبنائه من بعده.و قد أطلق على هؤلاء المماليك الجدد المماليك الجراكسة نسبة إلى أصولهم التي ينتمون إليها، كما أطلق عليهم اسم المماليك البرجية نسبة إلى القلعة التي وضعوا فيها. وقد حرص المنصور قلاوون على تربية مماليكه التربية الدينية والعسكرية في وقت واحد، ولم يسمح السلطان لهؤلاء المماليك بمغادرة القلعة مطلقاً.

ولما توفي المنصور قلاوون وخلفه ابنه الأشرف خليل سمح لهؤلاء المماليك بالنزول من القلعة أثناء النهار والعودة ليلاً، وبعد مدة أصبحت أعداد هؤلاء الجراكسة كثيرة، وغدوا أصحاب رتب عسكرية ومنهم الأمراء والقادة واستطاعوا أن يتسلموا السلطة ويحكموا البلاد.و كان هؤلاء كلهم بمستوى واحد فقد سادهم جو من الحسد كما ساد من سبقهم من المماليك.. فكان القتال بينهم ومحاولة استلام السلطة، فما أن يصل أحدهم إلى السلطنة حتى يحاول أن يؤسس أسرة حاكمة غير أن آخر لا يلبث أن يقبض على سابقه وخاصة الصغار منهم فيخلعه أو يقتله ويقوم مقامه.

حكم المماليك الجراكسة مصر والشام والحجاز مدة تزيد على مائة وإحدى وثلاثين سنة، من العام 792 حتى 923هـ، وقد تعاقب في هذه المدة أكثر من سبعة وعشرين سلطاناً، ويلاحظ أن السلطان كان يسلم الأمر ويحكم مدةً ثم يعهد لابنه من بعده وغالباً ما يكون صغيراً فيكون عليه وصياً أو نائباً عنه أو مُدّبراً لأمور المملكة -وهو من المماليك أيضاً- ثم لا يلبث أن يقوم بالاستبداد بالسلطنة وخلع السلطان المعهود إليه بالأمر أو قتله.

لذلك لم تكن هناك أسرة تولت السلطنة إلا الظاهر برقوق الذي حكم ولده المنصور فرج سبع سنوات ثم خُلِع، وأعطيت السلطنة لولده الثاني المنصور عبد العزيز مدة ثلاثة أشهر ثم أُعيد المنصور فرج فحكم سبع سنوات أُخرى.

كما أنه يلاحظ في آخر خمسة سلاطين أن نتيجة القتل هي السائدة، فقد خُلِع الظاهر قانصوه بعد سنة من تسلمه أمر السلطنة رغم أنه جديد، وقتل جامبلاط قبل مرور سنة من تسلمه السلطنة رغم أنه جديد أيضاً.

ولما عُرِضَ أمر السلطنة على الأشرف قانصوه الغوري رفضه وبكى خوفاً من القتل رغم أن سنه كانت تزيد على الستين، ولم يتسلم الأمر إلا بشرط ألا يقتلوه ولكنه قُتِل على يد العثمانيين بعد أن حكم سبع عشرة عاماً. وكانت عاقبة خلفه طومان باي مثله إذا قتله العثمانيون بعد معركة الريدانية عام 923هـ ودخلوا القاهرة وأزالوا المماليك من السلطنة وتنازل لهم العباسيون عن الخلافة.

وانتقلت بذلك أنظار العالم الإسلامي إلى استانبول التي غدت مركزاً للخلافة وتحولت عن القاهرة التي أصبحت مدينة عادية كغيرها من حواضر أمصار العالم الإسلامي، ودرجت مع مراكز الخلافة السابقة مثل بغداد ودمشق.

وإذا كان السلطان الظاهر برقوق قد تسلم للمرة الأولى مدة سبع سنوات من العام 785هـ حتى 791هـ ثم قبض عليه وسُجِن بالكرك، وأعيد السلطان المنصور حاجي لمدة سبعة أشهر.. ثم رجع الظاهر برقوق إلى السلطنة.. فإن مدة سلطنة الظاهر برقوق الأولى لم يعدها صاحب الموسوعة ضمن حكم المماليك الجراكسة، لأن حكمه قد حدث فيه انقطاع وإنما بدأ تدوين أيامهم بعودة الظاهر برقوق للسلطنة في المرة الثانية حيث استمر حكم السلطنة دون انقطاع حتى انطوت أيامهم.

ويظهر مما سبق أن تاريخ الدولة المملوكية كان ممتلئ بسلاطين نصبوا نفسهم بعدما تمكنوا من السلطة الفعلية وجعلوا السلطان مجرد لعبة في أيديهم إلى أن يقدروا على خلعه، إما بنفيه أو بقتله لو لم يسالم ويتنحى، ويتولى أميرهم

بدلاً منه، مثلما حدث للسلطان السعيد بركة بن الظاهر بيبرس الذي عزله السلطان قلاوون وولي بدلاً منه أخيه الأصغر العادل بدر الدين سلامش، إلى أن تمكن هو ومماليكه وعزلوه، وتربع قلاوون على العرش، ومثلما حدث لابنه السلطان الناصر محمد من كتبغا وبيبرس الجاشنكير، وتلك أمور كانت تحدث في العصر المملوكي وكل دول العالم.

ولم تكن السلطنة في العصر المملوكي بالتوريث، ومن المؤكد وجود أبناء للسلاطين يورثوا الحكم كالسلطان السعيد بركة وسلامش أنجال الظاهر بيبرس، ومن بعده أولاد وأحفاد السلطان قلاوون، ولكن العادة كانت تحتم أن يجلس أولاد السلاطين إلى أن تهدأ الأمور، وبعد ذلك يخلعوا ويجلس بدلاً منهم أمير قوي، الذي يكون نائباً للسلطان ويكون هو الحاكم الحقيقي.

أما أهم إيجابيات هذا العصر فتمثلت في وقوفهم سداً منيعاً لصد هجمات التتار والصليبين حيث كان للمماليك جهاد طويل على مدى تاريخهم ضد هاتين القوتين، وهكذا ظلت دولة المماليك تحمل راية الإسلام والخلافة الإسلامية في الأرض قرابة ثلاثة قرون، إلى أن تسلمتها الخلافة العثمانية.

التقسيم الإداري لبلاد الشام في العصر المملوكي :

قسمت بلاد الشام زمن المماليك إلى مناطق إدارية كثيرة، والجدير بالذكر أن المماليك احتفظوا بالتقسيمات السياسية التي ورثوها في بلاد الشام من الأيوبيين، وصارت بلاد الشام تضم عدة نيابات أو ممالك ارتبطت بالسلطان المقيم في القاهرة[1]. ومن خلال مراجعة سريعة لنيابات بلاد الشام في عصر الأيوبيين، نجد أن المماليك لم يبتكروا جديداً في مجال التقسيم الإداري، فقد قسمت بلاد الشام في العصر الأيوبي بعد وفاة صلاح الدين الأيوبي إلى:

1- مملكة دمشق، وكان يحكمها الأفضل علي.

2- مملكة حلب، وكان يحكمها غياث الدين غازي.

---

(1) زعرور: الحياة الاجتماعية - ص56.

3- مملكة الكرك والشوبك والبلاد الشرقية، وكان يحكمها الملك العادل أبو بكر.

4- حماة وسلمية والمعرة ومنبج وقلعة نجم، كانت بيد المنصور ناصر الدين.

5- بعلبك، وكان فيها الملك مجد الدين.

6- أما حمص وتدمر والرحبة، فكان يحكمها شيركوه بن محمد[1].

وقد أورد كل من القلقشندي والعمري، التقسيمات الإدارية لبلاد الشام في العصر المملوكي، والقلقشندي اقتبسها من العمري مشيراً إلى ذلك في مواضع متعددة في كتابه (صبح الأعشى) ولكن امتاز عن العمري بأنه استفاض في شرح وتحديد مناطق أو مدن التقسيمات الإدارية أكثر من العمري بالإضافة إلى أنه قام بترتيبها جيداً، فقمنا بالاعتماد على كلا المصدرين في التقسيم الإداري لبلاد الشام.بالإضافة إلى بعض المراجع الحديثة.

وقد قسمت بلاد الشام تحت حكم المماليك إلى ست قواعد أو نيابات هي (دمشق، وحلب، وطرابلس وحماة، وصفد، والكرك)[2].

لكن بعضهم يرى أن بلاد الشام قد قسمت إلى ثماني نيابات خلال العصر المملوكي، مضيفاً إلى النيابات السابقة نيابتي (غزة، والقدس) مشيراً إلى أن هذا التقسيم "لم يتم دفعة واحدة وإنما جاء بشكل تدريجي" الأمر الذي جعل ظهور التقسيم الإداري لبلاد الشام في عصر المماليك يأتي على مراحل[3]. ومن ذلك على سبيل المثال أن تاريخ إنشاء نيابتي دمشق وحلب كان سنة (658هـ/1260م) عقب هزيمة التتار في عين جالوت مباشرة[4].أما حماة فقد رأى

---

(1) العلبي: دمشق بين عصر المماليك والعثمانيين - ص24.

(2) (حسن): علي إبراهيم (دراسات في تاريخ المماليك البحرية) - القاهرة - الطبعة الثانية 1949 - ص218.

(3) زعرور: المرجع السابق - ص61.

(4) عاشور: مصر والشام - ص323.

المماليك عقب عين جالوت أن يبقوا الأيوبيين فيهـا[1]. وهكـذا أصـبحت عبـارة بلاد الشام في عصر المماليك تشمل ما يـسمى اليـوم سـورية ولبنـان وفلـسطين والأردن، بالإضافة إلى المناطق التي تقع بين خط الحدود الحالي مع تركيا وبين سفوح جبال طوروس والتي اغتصبتها تركيا من سورية إبان الاحتلال الفرنسي[2].

وأطلق على النيابات في العصر المملـوكي أسمـاء مختلفـة مثـل: كفالـة، وبلاد، وممالك، فيقال "الممالـك الـشامية" ويقـصد بهـا دمـشق، و"الممالـك الحلبية" ويقصد بها حلب[3]. وتم تقسيم كل نيابة إلى أقسام إدارية صغيرة سماها القلقشندي "النيابات الصغار"[4] ولإعطاء صورة متكاملـة عـن هـذه النيابـات في عصر المماليك لا بد من تناول كل نيابة بشرح موجز.

أولاً: نيابة حلب:

تمتعت نيابة حلب في العصر المملـوكي بأهميـة خاصـة، نظـراً لخطـورة موقعها على الأطراف الشمالية للدولة، مما جعلها محوراً لكـثير مـن الحـوادث التي رافقت العلاقات المضطربة بين المماليك مـن ناحيـة، وجيرانهـم مـن تتـار وتركمان وعثمانيين من ناحية أخرى. لذلك ضمت حلب عدداً كبيراً من النيابات الصغيرة، ليس لها مثيل في بقية نيابات الشام[5].

ويمكننا تقسيم أعمال مملكة حلب في العصر المملـوكي إلى ثلاثـة أقـسام رئيسية هي:

---

(1) المقريزي: السلوك - ج1 - ص433.

(2) العلبي: دمشق بين عصر المماليك والعثمانيين - ص25.

(3) (الشلي): فيصل (الأوضاع الإدارية في بلاد الشام خلال الفترة المملوكيـة الثانيـة) رسـالة دكتوراه غير منشورة - جامعة دمشق - 2006 - ص76.

(4) (القلشندي): أحمد بن علي (صبح الأعشى في صناعة الإنشا) تح: محمد حـسين شمـس الدين - دار الكتب العلمية - بيروت - الطبعة الأولى - 1987 - ج4 - ص108-184

(5) (عاشور) سعيد عبد الفتـاح (نظـم الحكـم والإدارة في عـصر الأيـوبيين والمماليـك) دار المعارف - سوسة - د.ر ت.ط - ص45.

آ- الأعمال التي تقع ضمن حدود بلاد الشام:

واشتملت على إحدى عشرة نيابة واثنتي عشرة ولاية، أما نياباتها فهي عبارة عن قلاع ومدن حصينة لها عساكرها[1] وهي:

1 - قلعة المسلمين (وهي قلعة من جند قنسرين البر الغربي الجنوبي من قلعة شمالي حلب).

2 - إلكختا (وهي قلعة شرقي حلب).

3 - كركر (قلعة شمالي حلب).

4 - بهنسا (قلعة شمالي حلب).

5 - عنتاب (مدينة شمالي حلب).

6 - الراوندان (قلعة في الغرب والشمال عن حلب).

7 - عنتاب (مدينة شمال حلب).

8 - بغراس (قلعة شمال حلب).

9 - القصير (قلعة غربي حلب).

10 - الشغر وبكاس (وهما اسمان لقلعتين من جند قنسرين).

11 - شيزر (مدينة من جند حمص)[2].

---

(1) العمري: التعريف بالمصطلح - ص179.

(2) العمري: المصدر السابق - ص180 / العمري: مسالك الأبصار ص200-201 / (القلقشندي): صبح الأعشى - ج4 - ص119-124.

أما الولايات التابعة لمدينة حلب فهي:

بر حلب، وكفر طاب، وسرمين، والجبول، وجبل سمعان، وإعزاز، وتل باشر، ومنبج، وتيزين، والباب، وبزاعة، ودركوش، وأنطاكية[(1)].

وتعد هذه الولايات المراكز الإدارية المهمة في مدينة حلب.

ب- أعمال حلب الواقعة في بلاد الأرمن:

وقد اشتملت على الأعمال التالية:

ملطية، ودرندة، ديركي، إياس، طرسوس، باياس، سرفندكار، سيس، قلعة كولان شمال طرسوس، قلعة كرزال، قلعة كومي، قلعة تل حمدون، الهارونية، حميميص، قلعة لؤلؤة شمال كولاك، قلعة تامرون شمال طرسوس، قلعة سنباط شمالي طرسوس، بلسوس، تل جبير، حصن أولاس، رعبان، دلوك، مرعش، الحدث، سميسياط، حصن منصور[(2)].

جـ - أعمال حلب الواقعة شرقي الفرات:

وهذه الأعمال هي:

قلعة البيرة، قلعة جعبر بين بالس والرقة، الرها، وتعدّ هذه الأعمال الثلاثة من الناحية الإدارية نيابات حلبية[(3)].

---

(1) العمري: التعريف ص180 / القلقشندي: المصدر السابق - ج4 - ص124-128.

(2) (ابن الشحنة): محمد أبو الفضل (الدر المنتخب في تاريخ مملكة حلب) تح: عبد الله درويش.دار الكتاب العربي - حلب - الطبعة الأولى 1984 ص187-191 / القلقشندي: المصدر السابق - ج2 - ص135-137.

(3) ابن الشحنة: المصدر السابق ص240 / القلقشندي: المصدر السابق - ج4 - ص131-138.

ثانياً : نيابة حماة :

وكما أشرنا سابقاً فإن النظام الإداري للدولة المملوكية كان معقداً كل التعقيد، وذلك بسبب طبيعة الدولة وتكوينها الشعبي والإداري والعسكري. ولقد حوت دولة المماليك في بلاد الشام مملكة صغيرة من بقايا الأيوبيين هي: مملكة حماة وظلوا يحكموها حكماً وراثياً، ويعترفون بسلطة المماليك الفعلية، وكان المماليك بالمقابل يعترفون لهم بحقهم الوراثي في حماة مدة طويلة من الزمن، وظل ذلك حتى منتصف القرن الثامن الهجري / الرابع عشر الميلادي، وذلك عندما ألغيت ملكية آل أيوب لحماة، وأصبح حاكمها أميراً مملوكياً يعينه السلطان[1]. ومركز هذه النيابة مدينة حماة، وفيها جملتان:

الأولى: حاضرتها، والثانية نواحيها وأعمالها، ولها ثلاثة أعمال هي:

1- عمل برها وهو ظاهرها وما حولها. 2- بارين (بلدة غرب حماة).

3- المعرة (مدينة من جند حمص)[2].

ثالثاً : نيابة طرابلس :

كانت طرابلس تحتل مرتبة الصدارة بين مدن الساحل الشامي، وقد ركز الصليبيون جهودهم سنوات لاحتلال طرابلس والسيطرة على المناطق المحيطة بها حتى تمكنوا من احتلالها سنة (503هـ/1110م) وجعلوا فيها الإمارة الرابعة لهم في بلاد الشام، وقد بذل الظاهر بيبرس جهوداً كبيرة لتحريرها لكنه لم يستطع ذلك، إلى أن تم تحريرها على يد رفيقه في السلاح قلاوون الألفي سنة (680هـ/1289م) وبعد تحريرها أصبحت مقراً لنيابة شامية مستقلة[3]، وفيها جملتان: الأولى في حاضرتها والثانية في نواحيها وأعمالها، وقال القلقشندي عن أعمالها إنها قسمان:

---

(1) حمادة: الوثائق السياسية ص35 / زعرور: الحياة الاجتماعية - ص80.

(2) القلقشندي: صبح الأعشى - ج4 - ص121.

(3) (سالم): السيد عبد العزيز (طرابلس الشام في التاريخ الإسلامي) الإسكندرية د.ر.ط. - 1967 - ص88-264 / زعرور: الحياة الاجتماعية - ص72-73.

القسم الأول: الأعمال الكبار: وهي حصن الأكراد (قلعة الحصن حالياً)، وبلاطنس، وصهيون، واللاذقية، والمرقب، وقلاع الدعوة التي بيد الإسماعيلية وهي "الرصافة، والخوابي، والقدموس، والكهف، والمنيقة، والعليقة".

القسم الثاني: الأعمال الصغار: فهي أنطرسوس (طرطوس حالياً)، ثم عمل جبة المنيطرة، وعمل الظنين (الضنية حالياً)، وعمل بشرية (بشري حالياً)، وعمل جبلة، وعمل أنفة (جنوب طرابلس)[1].

رابعاً: نيابة الكرك:

كلمة أعجمية، اسم قلعة حصينة جداً في طرف الشام من نواحي البلقاء في جبالها بين أيلة وبحر القلزم وبيت المقدس، وهي على سن جبل عال، تحيط بها أودية إلا من جهة الربض[2].

ويلحق بالكرك اسم الشوبك، والشوبك أقدم منها فيقال "كرك الشوبك" والشوبك المنسوب إليه الكرك، مدينة صغيرة أكثر في البر دخولاً منها وانحرافاً إلى التغريب في القبلة عنها[3] والكرك فيها جملتان:

الأولى في حاضرتها والثانية في نواحيها وأعمالها، ولها أربعة أعمال هي:

برها (أي ضواحيها) والشوبك (وهي من جبل الشراة) وزغر (مدينة قديمة متصلة بالبادية) ومعان (مدينة بالقرب من الشوبك)[4] وأضاف العمري مؤتة، وجرت فيها موقعة مؤتة سنة (8هـ/629 م) وفيها قبر جعفر بن أبي طالب[5].

---

(1) العمري: مسالك الأبصار - ص201-205 / القلقشندي: المصدر السابق -ج4- ص153 وما بعدها / زعرور: المرجع السابق - ص57.

(2) (الحموي) معجم البلدان ج4 - ص453.

(3) العمري: المصدر السابق - ص214

(4) العمري: المصدر نفسه - ص215 / القلقشندي: المصدر السابق - ج4 ص156/ زعرور: المرجع السابق - 78.

(5) العمري: المصدر السابق - ص 215.

خامساً : نيابة صفد :

مدينة في سفح جبل، صحيحة الهواء، خفيفة الماء، وهي على مسافة يومين من دمشق ولها قلعة قل أن يوجد لها شبيه كأنما عليها من ذهب الأصيل تمويه، وقد استطاع الظاهر بيبرس استرداد هذه القلعة من أيدي الصليبيين، وقام بتعظيم هذه القلعة، وهي تستحق التعظيم[1]

وصفد فيها جملتان: الأولى في حاضرتها، والثانية في نواحيها وأعمالها، وهي أحد عشر عملاً هي: برها (أي ضواحيها)، والناصرة (بليدة صغيرة بالقرب من طبرية) وهي منبع الديانة النصرانية، وهي منشأ السيد المسيح، وتبنين وهونين (وهما حصنان بين صور وبانياس)، والشاغور (كورة بين عكا وصفد والناصرة)، وعكا (مدينة من سواحل الشام) وعثليث (وهي كورة بين قاقون وعكا)، والإقليم (وهي كورة بين دمشق والشغر والخربة)، والشقيف (حصن بين دمشق والساحل)، وجنين (بلدة قديمة شمال قاقون) وطبرية (مدينة من جند الأردن)، صور (مدينة قديمة بساحل الشام)[2].ويرى الدكتور عادل زيتون أن هذا التقسيم ضروريٌ لأنه يتفق مع طبيعة بلاد الشام الجغرافية.حتى إن معظم هذه النيابات إنما كانت أقساماً إدارية واضحة في العصور السابقة، بل إن بعضها أصبح دولاً مستقلة قبل عصر المماليك مثل دمشق، وحلب، وطرابلس[3].

سادساً : نيابة دمشق :

تعد نيابة دمشق من أهم النيابات في العصر المملوكي، فقد عاش فيها أبرز النواب، وأكثرهم شهرة، وشهدت نيابة دمشق أكثر المحاولات الانقلابية والاستقلالية وأعمال العصيان والتمرد ضد السلطنة المركزية في القاهرة، وفيها

---

(1) العمري: مسالك الأبصار - ص205-206.

(2) العمري: المصدر نفسه - ص207-208 / القلقشندي: المصدر السابق - ج1 - ص160.

(3) زيتون: تاريخ المماليك - ص225.

حيكت أكثر حوادث الحياة الاجتماعية والاقتصادية والصناعية إلى جانب حلب، وفيها خلف المماليك الترب والمساجد والقصور ومختلف المنشآت.

وتسمى بنيابة الشام والممالك الشامية، وحدّها من العريش جنوباً إلى السلمية شمالاً ومن الرحبة شرقاً إلى المتوسط غرباً، يخرج من ذلك نيابات صفد والكرك وطرابلس، وكانت نيابة دمشق تشتمل على ضواحيها، وعلى أربع مناطق إدارية هي:

الأولى: هي المنطقة الساحلية وتشتمل على أربعة أعمال هي: غزة[1]، والرملة[2]، واللد[3]، وقاقون[4]. وتشمل المنطقة الجبلية على ثلاثة أعمال هي: القدس[5]، الخليل[6]، نابلس[7].

---

(1) العمري: التعريف بالمصطلح ص 26.وغزة تقع في الإقليم الثالث من الشام، وهي أقصى الشام من ناحية مصر وهي من نواحي فلسطين غربي عسقلان.الحموي: معجم البلدان م4 ص202.

(2) العمري: مسالك الأبصار ص178.والرملة: مدينة قرب غزة، من فلسطين. العمري: المصدر نفسه - ص221 وما بعد

(3) اللد: هي بليدة من جند فلسطين.تقع شرق الرملة.وكانت قصبة فلسطين قديماً.الحموي: المصدر السابق - ج6 - ص85.

(4) قاقون: مدينة تبعد عن اللد مسيرة يوم، مناخها لطيف.الحموي: المصدر نفسه - ج5 - ص112.

(5) القلقشندي: صبح الأعشى - ج4 - ص103.

(6) الخليل: واسمها بيت حبرون وهي بلدة من جبل فلسطين، وفيها قبر إبراهيم الخليل. (النابلسي): عبد الغني (الحضرة الأنسية في الرحلة القدسية) مطبعة الإخلاص - مصر - 1952 - ص70.

(7) هي مدينة من جند الأردن، وقال القلقشندي:(إنها المدينة الوحيدة في فلسطين في عهدهـ).

العمري: مسالك الأبصار - ص118 / القلقشندي: المصدر السابق - ج4 - ص103.

الثانية : هي المنطقة القبلية الواقعة قبلي دمشق، وتشمل على عشرة أعمال هي: بيسان[(1)]، وبانياس[(2)]، والشعراء[(3)] (القنيطرة)، ونوى[(4)] (بحوران)، وأذرعات[(5)]، وعجلون[(6)] (شرقي الأردن)، والبلقاء[(7)]، وصرخد[(8)]، وبصرى[(9)]، وعمل زرع[(10)].

---

(1) بيسان: من جند الأردن ولها قلعة من بناء الفرنج، وهي مدينة الغور.

القلقشندي: المصدر نفسه - ج4 - ص103 / العلبي: دمشق بين عصر المماليك والعثمانيين- ص38.

(2) هي مدينة من جند دمشق، وهي في نهاية جبل الشيخ، وفيها قلعة الصبيبة / القلقشندي: المصدر السابق - ج4 - ص103.

(3) هي شرق جنوب بانياس، مقر الولاية تارة بقرية حان وتارة أخرى بقرية القنيطرة / القلقشندي: المصدر نفسه - ج4 - ص104.

(4) مدينة قديمة وبها قبر أيوب عليه السلام.العمري: مسالك الأبصار - ص119 / القلقشندي: المصدر نفسه - ج4 - ص105.

(5) هي مدينة من أعمال دمشق من الإقليم الثالث.الحموي: معجم البلدان م 1، مادة أذرعات ص88.

(6) فيها قلعة عجلون بين الأردن وبلاد السراة، وهي محدثة، صغيرة المقدار.

(ابن شداد): عز الدين محمد علي (الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة) تح: يحيى عبارة وزارة الثقافة - دمشق 1978 - ج3 - ص86.

(7) هي شرق أريحا، بلدة صغيرة ولها واد وأشجار وأرضية وبساتين.الحموي: المصدر السابق - ج1- ص75.

(8) صرخد: مدينة قديمة وقلعتها مبنية قبل وفاة نور الدين.الحموي: المصدر نفسه - ج3 - ص38.

(9) بصرى: هي مدينة حوران السفلى، دخلها الرسول (ص) قبل بعثته/ القلقشندي: المصدر السابق- ج4 -ص107.

(10) هي مدينة من أعمال دمشق في الإقليم الثالث، وبها ولاية الحاكم.

العمري: مسالك الأبصار ص121 / القلقشندي: المصدر السابق - ج4 - ص108

الثالثة : تقع شمالي دمشق وتشمل على خمسة أعمال هي: بعلبك[1]، والبقاع البعلبكي، والبقاع العزيزي[2] (نسبة إلى العزيز صلاح الدين الأيوبي)، وبيروت[3] وصيدا[4].

الرابعة: موقعها شرقي دمشق وتشمل خمسة أعمال هي: حمص[5]، ومصياف[6]، وقارة[7]، وسلمية[8]، وتدمر[9].

---

(1) مدينة قديمة البناء شمالي دمشق، يقال إنها من بناء سليمان بن داود عليهما السلام، لها قلعة عظيمة مثل قلعة دمشق.ابن شداد: الأعلاق ج3 ص42-54 / القلقشندي: المصدر السابق - ج4 -ص109-110.

(2) العمري: مسالك الأبصار ص190 / القلقشندي: المصدر السابق - ج1 - ص110.

(3) بيروت: تطل على البحر وعليها سور من حجارة، وبها جبل فيه معدن حديد.تتصل بلبنان.

العمري: المصدر السابق ص190-191./ الحموي: معجم البلدان ج1 ص285.

(4) صيدا: عليها سور حجر، وتنسب لرجل من ولد كنعان بن حام، وهي ولاية جليلة واسعة.

ابن شداد: المصدر السابق - ج3 - ص98-100 / القلقشندي: المصدر السابق - ج4 - ص111.

(5) مدينة فسيحة ولها سور، وهي بين حلب ودمشق.الحموي: المصدر السابق - ج4 - ص302-304.

(6) بلدة جليلة، ولها قلعة حصينة في لحف جبل اللكام الشرقي عن حماة وطرابلس.وهي قاعدة قلاع الدعوة. / الحموي: المصدر نفسه - ج4 - ص113-114.

(7) قرية كبيرة قبلي حمص، بينها وبين دمشق على منتصف الطريق.الحموي: المصدر نفسه - ج3 - ص69-70.

(8) بلدة من عمل حمص.بناها عبد الله بن صالح بن عبد المطلب، وهي على طرف البادية، بينها وبين حمص مرحلة. الحموي: معجم البلدان - ج2 ص76-77.

(9) مدينة بين القريتين والرحبة وهي مدينة شامية عراقية لاتصالها ببر العراق وبر الشام.

العمري: التعريف ص180.القلقشندي: صبح الأعشى - ج4 - ص114.

وتعد نيابة حمص أصغر نيابات الشام، وآخرها رتبة، وعدد أعمالها: شمسين وشميمش[1]، ومدينة سلمية، وأربعة أعمال أخرى لم يُسمها[2].

أما ابن فضل الله العمري (ت 749هـ/ 1349م) فقد حددها بدقة ووضوح قائلاً:

"حدها من القبلة قرية القصب المجاورة لقرية جوسية التي تقع بين قرية القصب من عمل حمص، وبين القرية المعروفة باللفيكة من عمل بعلبك آخذاً هذا الحد على النبك إلى القريتين، ومن الشرق السماوة[3] إلى الفرات ينتهي إلى مدينة سلمية... ومن الشام ما بين سلمية إلى الرستن، ومن الغرب نهر الأرنط (العاصي)... ومدينة هذه الصفقة (الشمالية الشرقية) تحمص، وتشتمل على ولاية قارة وهي قبلي حمص، وولاية مدينة حمص نفسها، وولاية سلمية، وولاية تدمر"[4].

وقد نقل أبو العباس أحمد بن علي القلقشندي (ت821هـ/ 1418م) التحديد الذي ذكره ابن فضل الله العمري في التعريف دون زيادة[5]، أما غرس الدين خليل بن شاهين الظاهري (ت873هـ/ 1468م) فلم يحد نيابة حمص ولم يذكر أعمالها[6].

ويلاحظ مما تقدم أن ابن فضل الله العمري هو الوحيد الذي ذكر حدود نيابة حمص بوضوح، وعلى ذلك فإن حدود هذه النيابة تبدو كما يلي:

---

(1) شميميش: تل عالي بني فوقه المجاهد شيركوه قلعة سميت باسم هذا التل.أبو الفداء: المختصر 3/145.

(2) شيخ الربوة: نخبة ص 202.

(3) السماوة: أرض مستوية خالية من الحجارة، وبادية السماوة التي تقع بين الكوفة والشام وهي قفرا.ياقوت الحموي: معجم البلدان 3/245.

(4) ابن فضل الله لاعمري: التعريف ص 256، 257.

(5) القلقشندي: صبح الأعشى 4/116، 117.

(6) ابن شاهين الظاهري: زبد كشف ص 47.

1- من الغرب نهر العاصي من الرستن شمالاً حتى جنوب بحيرة حمص، ومن بحيرة حمص على امتداد الخط إلى القصب.

2- من الشرق صحراء السماوة إلى الفرات باستثناء مدينة الرحبة.

3- من الجنوب الحدود الشمالية لنيابة دمشق من امتداد الخط الواصل ما بين القصب إلى النبك ثم إلى القريتين وإلى تدمر.

وقد تم استثناء مدينة الرحبة التي كانت تتبع حمص أثناء فترة إمارة الأشرف موسى (658هـ/1260م- 662هـ/1264م) من هذه الدراسة لأنها أصبحت نيابة مستقلة إدارياً عن نيابة حمص بعد وفاة الأشرف سنة (662هـ/ 1264م)[1]، فقد اعتبرها شيخ الربوة من المدن التابعة لدمشق من جهة الشرق[2].

ويوحي قول المؤرخ العمري بأنها كانت مستقلة عن حمص: "وبهذه الصفقة (الشمالية الشرقية) مدينة الرحبة على الفرات، ولها قلعة ونيابة وفيها بحرية وخيالة وكشافة وطوائف من المستخدمين"[3]، فهو بذلك يبين بوضوح أنها نيابة مستقلة إدارياً عن حمص.وقد أعاد القلقشندي ما ذكره العمري بشأنها دون زيادة[4] أما ابن شاهين الظاهري فقد اعتبرها من معاملة حلب[5].

---

(1) عز الدين محمد بن علي بن إبراهيم بن شداد الحلبي: الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة ج1 تحقيق سورديل، ج1، ق2 تحقيقي يحيى زكريا عبارة، منشورات وزارة الثقافة في الجمهورية العربية السورية، دمشق= ==1991م، ج2، تحقيق سامي الدهان، منشورات المعهد الفرنسي بدمشق، دمشق 1956 - 1962م، ج1، ق2، ص 106 - 1077.ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر ص 117، 149، اليونيني: ذيل 108/2، 3/ 250، 251.

(2) شيخ الربوة: نخبة ص 202.

(3) ابن فضل الله العمري: التعريف، ص 257.

(4) القلقشندي: صبح الأعشى 119/4.

(5) ابن شاهين الظاهري: زبدة كشف، ص 50.

مدن نيابة حمص وقراها :

لابد من الإشارة إلى أهم مدن النيابة وقراها في هذا العهد التي توافرت عنها معلومات[1] وهي مرتبة هجائياً على النحو التالي:

1- أيل: من قرى حمص وتقع في السهل الممتد إلى الجنوب منها[2].

2- باسمه: قرية تقع غربي مدينة حمص[3].

3- البريج: قرية تبعد عن حمص مسافة 55 كم تقريباً إلى الجهة الجنوبية[4]، كانت في العهد المملوكي إحدى محطات البريد على الطريق ما بين دمشق وحلب وحماة عن طريق حمص، وكانت عرضة لقطاع الطرق فيخافها المسافرون فبنى القاضي نجم الدين أبو العباس أحمد بن صصرى فيها مسجداً وبركة وأجرى الماء إلى البركة من مُلك كان له وقفه على هذا السبيل، فأصبحت الطريق آمنة من هذه القرية وإليها، ويطلق عليها أيضاً بريج العطش[5]، ويوجد فيهات خان خراب،، ويذكر وصفي زكريا أنه يوجدن على سبيل الماء كتابة قديمة تاريخها سنة 700 هـ/ 1300م ويتعذر قراءتها[6].

4- بَقْطَاطِس: من قرى حمص[7].

5- تلُّ مَنَسْ: من قرى حمص تقع الآن بين علاء المعرة وعلاء سلمية[8].

---

(1) لقد ذكرت المسافات المتعلقة بهذه القرى بالكيلو متر حينما توافرت ذلك، أنما القرى التي تعذر تحديد مسافاتها فقد ذكرتها مثلما وردت في المصادر الأولية.

(2) ياقوت الحموي: معجم البلدان 1/50، ياقوت الحموي: المشترك ص50، البغدادي: مراصد 1/1.

(3) زكريا: جولة أثرية، ص 354.

(4) محمد المكي: تاريخ حمص، تعليق نجيب العمر ص 287.

(5) ابن فضل الله العمري: التعريف ص 279، القلقشندي: صبح الأعشى 14/427.

(6) زكريا: جولة أثرية، ص 370، 371.

(7) ياقوت الحموي: معجم البلدان 1/475، البغدادي: مراصد 1/211.

(8) ياقوت الحموي: معجم البلدان 2/44، البغدادي: مراصد 1/273، زكريا: جولة أثرية ص 200.

6- تل النبي مند أو (مندو) أو (قادش) قرية فوق تل النبي مندو والآن هي على بعد (15) كم إلى الجنوب الغربي من مدينة حمص[1] فيها جامع قديم ينسب بناؤه إلى السلطان الظاهر بيبرس[2].

7- تَنُّونِية: من قرى حمص تبعد عن حمص للغرب ثمانية كيلو مترات[3].

8- جَدَر: قرية كبيرة بين حمص وسلمية[4].

9- جُوسِيةُ: والآن لا جود لها[5] تقع إلى الجنوب من حمص على مسافة 38كم.

على الطريق الذاهبة إلى لبنان[6] كانت زمن المماليك تشكل الحد الجنوبي لنيابة حمص[7] اشتراها السلطان العادل كتبغا سنة 695هـ/ 1296م وعمرها بعد أن كانت خرابا[8] وتشتهر بكثرة عيون المياه فيها لهذا شقت قناة منها إلى مدينة حمص[9].

---

(1) الريماوي: مدين حمص ص 220.

(2) زكريا: جولة أثرية ص 260، 261.

(3) ياقوت الحموي: معجم البلدان 50/2، البغدادي: مراصد 278/1، زكريا: جولة أثرية ص 310.

(4) ياقوت الحموي: معجم البلدان 112/2 - 114، 498، البغدادي: مراصد 367/1، زكريا: جولة أثرية ص 314.

(5) زكريا: جولة أثرية ص 214.

دير إسحاق يقع بين حمص وسلمية وتقع بقربه ضيعة جدر.ياقوت الحموي: معجم البلدان 498/2.

(6) محمد المكي: تاريخ حمص، تعليق نجيب العمر ص 287.

(7) ابن فضل الله العمري: التعريف ص 255، 256.

(8) أبو الفداء: المختصر 303/4، ابن الفرات: تاريخ 214/8، المقريزي: السلوك 817/1.

(9) الإدريسي: نزهة المشتاق ت374/1، ياقوت الحموي: معجم البلدان 185/2، الحميري: الروض المعطار ص 198، زكريا: جولة اثرية ص 330، 362.

10- حسية: بلدة تقع إلى الجنوب من حمص بحوالي 35 - 40كم تقريباً لم يذكرها جغرافيو العرب، في حين أنها كانت أول أو ثاني منزل من حمص بعد شَمْسَيْن[1] وذكرها شمس الدين الحلبي (ت881هـ/ 1476م) في سنة 875هـ/ 1470م باسم حصيا «بالصاد»[2]، وقد أقام الظاهر بيبرس برج الأحمر على بعد 8 كم منها لتأمين السابلة من اللصوص وقطاع الطرق[3].

11- حُوارين: بلدة حصينة تقع إلى الجهة الجنوبية الشرقية من حمص في طريق البرية[4] وتبعد عن صدد 15 كم إلى الشرق[5] وقد مر بها خالد بن الوليد في طريقه من العراق إلى الشام[6] وتشتهر بآثارها وكنائسها القديمة[7].

12- دنوة: ذكرها الهروي من أعمال حمص وقال فيها قبر عوف بن مالك الأشجعي[8].

---

(1) زكريا: جولة أثرية ص 365، 366.

(2) شمس الدين محمد بن محمود بن خليل الملقب بابن أجا: العراك بين المماليك والعثمانيين الأتراك مع رحلة الأمير يشبك بن مهدي الدوادار، تح: محمد أحمد دهمان، ط1، دار الفكر، دمشق 1986م، ص 79،.

(3) زكريا: جولة أثرية ص 270.

(4) أحمد بن محمد بن عبد ربه الأندلسي: العقد الفريد، 8 ج تحقيق مفيد محمد قميحة، دار الكتب العلمية، بيروت، بدون تاريخ 140/5، ياقوت الحموي: المشترك ص 344، أبو الفداء: تقويم، ص 83.

(5) زكريا: جولة أثرية ص 267.

(6) ياقوت الحموي: معجم البلدان 315/2، 316، زكريا: جولة أثرية ص 267.

(7) زكريا: جولة أثرية ص 267.

(8) الهروي: الإشارات ص 7، عوف بن مالك الأشجعي، صحابي شهد خيبر مع الرسول ﷺ، هاجر إلى الشام ونزل حمص في خلافة أبي بكر وتوفي 72هـ/ 693م، محمد بن سعد بن منيع الهاشمي ابن سعد: الطبقات الكبري 9 ج دارسة وتحقيق محمد عبد القادر عطا، ط 1، دار الكتب العلمية بيروت 1990 م 211/4.

13- دير بعلبة: قرية تقع شمال شرقي مدينة حمص بنحو 50 كم تقريباً على يسار الطريق بين حمص والرستن(1).

14- دير عطية: قرية كبيرة إلى الجنوب الشرقي بنحو 10كم من قارة سكانها مسلمون بنتها صالحة خاتون وقفتها على بعض المرافق(2).

15- دير ميماس: قرية تقع على نهر العاصي فيما بين حمص ودمشق بها مشاهد للنصارى كانت زمن البغدادي خراباً(3).

16- ربلة: قرية على مسافة 40 كم تقريباً إلى الجنوب الغربي من حمص تقع على الطريق الواصل بين حمص ولبنان(4).

17- الرستن: بلدة قديمة تقع على تل يشرف على نهر العاصي، وعلى منتصف الطريق ما بين حمص وحماة(5) كانت زمن المماليك تشكل الحد الشمالي الغربي لنيابة حمص وإحدى محطات البريد(6)، ذكرها المؤيد باسم (الروستان)(7) وكانت من أملاك آل فضل(8).

---

(1) محمد المكي: تاريخ حمص، تعليق نجيب العمر ص 287، زكريا: جولة اثرية ص 315.

(2) محمد كرد علي: خطط الشام 6 ج، ط3 / مكتبة النوري، دمشق 1983، 95/5، زكريا: جولة اثرية ص 276.صالحة بنت صلاح الدين بن بهلوان بن الأمير شمس الدين الأكري، الآمدي، كرد علي: خطط الشام 95/5.

(3) ياقوت الحموي: معجم البلدان 538/2، البغدادي: مراصد 578/2، زكريا: جولة أثرية ص 253.

(4) محمد المكي: تاريخ حمص ص 288، زكريا: جولة أثرية ص 362.

(5) الهروي: الإشارات ص 8، ياقوت الحموي: معجم البلدان 23/3، حسين عطوان: الجغرافية التاريخية لبلاد الشام في العصر الأموي ة، ط1 دار الجيل، بيروت 1987م ص 55.

(6) ابن فضل الله العمري: التعريف ص 257، 278، القلقشندي: صبح الأعشى 427/14، ابن شاهين: زبدة كشف ص 120.

(7) هبة الله بن موسى بن داود الشيرازي المؤيد: سيرة المؤيد في الدين داعي الدعاة، ترجمة حياته بقلمه: تقديم وتحقيق محمد كامل حسين، دار الكاتب المصري، القاهرة 1949م ص 107.

(8) ابن الفرات: تاريخ 177/7.

18- السلفوهم: بلدة تقع بالقرب من القصير تعرضت للزلزال الذي حدث سنة 811هـ/ 1408م وانزلقت بأهلها ولم يتأذ منهم أحد[1].

19- سّماك: قرية تقع إلى الجنوب من بحيرة قدس قرب قرية الناعم[2].

20- سمسين (شمسين): قرية صغيرة تقع إلى الجنوب من حمص على بعدة 15 كم[3] كانت زمن المماليك إحدى محطات القوافل التجارية إذ تقع على طريق البريد الذي يربط نحمص وبعلبك من جهة حمص، وعلى الطريق بين دمشق وحمص[4].

21- صَدَد: قرية كبيرة تقع إلى الجنوب من حمص بمسافة 54 كم ذات عيون وبساتين[5].

22- العَجالز: قرية بالقرب من القريتين[6].

23- عُرْض: مدينة كبيرة تقع بين تدمر ورصافة هشام[7]، وفيها هزم المغول سنة 702هـ/ 1303م[8].

24- العطنة: تقع في السهل الممتد فيما بين القريتين وتدمر[9] كانت زمن المماليك إحدى محطات البريد، كما كانت إحدى الأماكن التي توقد فيها النيران (المناور)[10].

---

(1) المقريزي: السلوك 4/80ن، 81.

(2) شيخ الربوة: نخبة ص 119.الناعم من الضياع التي تقع جنوبي بحيرة قدس، زكريا: جولة اثرية ص 360.

(3) المكي: تاريخ حمص ص 288.

(4) القلقشندي: صبح الأعشى 14/427، 428، ابن شاهين: زبدة كشف ص 119، 120.

(5) ياقوت الحموي: معجم البلدان 3/397.

(6) البغدادي: مراصد 2/920.

(7) البغدادي: مراصد 2/920.

(8) المقريزي: السلوك 1/931

(9) زكريا: جولة أثرية ص 285.

(10) القلقشندي: صبح الأعشى 14/427، 445.

25- عُقَيربا: قرية تقع إلى الشرق من سلمية على جبل البلعاس[1].

26- غامية: من قرى حمص وتقع على الطريق بين حمص والرستن[2].

27- الفَسُولة: تقع إلى الجنوب من حسية بحوالي 1 كم[3] كانت منزلاً للقوافل التجارية بين حمص وقارة[4] وفي وزمن المماليك كانت إحدى محطات البريد بين دمشق وحمص[5].

28- الفُنْتُر: قرية كبيرة تقع إلى الشمال من القريتين، يؤتى إليها من حمص عن طريق تدمر وإلى الشمال منها حمام رباح (حمة رباح)[6].

29- الغنطو: قرية تقع إلى الشمال الغربي من حمص على نهر العاصي، تبعد عن حمص حوالي 3 كم[7].

30- الفرقلس: قرية تقع إلى الجنوب الشرقي من مدينة حمص[8]، وذكرها ياقوت الحموي بأنها اسم ماء قرب سلمية[9].

31- قور: من قرى حمص[10].

32- فيروزة: قرية بالقرب من حمص تبعد عنها حوالي 6 كم باتجاه الجنوب الشرقي[11].

---

(1) البغدادي: مراصد 951/2.

(2) البغدادي: مراصد 425/1.

(3) زكريا: جولة أثرية ص 365، 366.

(4) البغدادي: مراصد 995/2.

(5)ابن شاهين الظاهري: زبدة كشف ص 119، 120.

(6) شيخ الربوة: نخبة ص 12، زكريا: جولة أثرية ص 368، 369.

(7) المكي: تاريخ حمص، تعليق نجيب العمر ص 288،

(8) أبو الفداء: المختصر 28/4، العيني: عقد الجمان 157/3، 158.

(9) ياقوت الحموي: معجم البلدان 255/4.

(10) ياقوت الحموي: معجم البلدان 280/4.

(11) محمد المكي: تاريخ حمص، تعليق نجيب العمر ص 288

33- قُدْس: قرية قرب حمص إليها تنسب بحيرة قدس[1].

34- القريتين: قرية كبيرة من أعمال حمص[2] وتشكل الحد الجنوبي لأرض النيابة[3] كانت تدعى في عهد الرومان باسم نزالة[4] ثم عرفت باسم قرادي، وكانت تقسم إلى قسمين لذلك سماها العرب بالقريتين[5].

35- قصب: قرية تقع إلى الجنوب من حمص على الحد الفاصل بين نيابة دمشق ونيابة حمص وكانت تشكل إحدى محطات البريد المتفرغة من دمشق إلى بعلبك وطرابلس[6].

36- القصير: قرية تقع إلى الجنوب الغربي من حمص بمسافة (28 - 30) كم تسلمها الظاهر بيبرس سنة 666هـ/ 1268م[7] كانت تشكل المنزلة الأول لمن يريد حمص من جهة دمشق[8] وإحدى محطات البريد المتفرعة من دمشق إلى بعلبك وطرابلس[9].

37 - قطنة: تقع إلى الشمال الشرقي من مدينة حمص بحوالي 18 كم، وتعرف الآن باسم قرية (المشرفة)[10].

---

(1) ياقوت الحموي: معجم البلدان 211/4.

(2) بنيامين بن بونة التطيلي الأندلسي: رحلة بنيامين (561- 569هـ/ 1165 - 1172م) ترجمة عزرا حداد، المطبعة الشرقية بغداد 1945م ص 40.

(3) ابن فضل الله العمري: التعريف ص 256، 257.

(4) بنيامين التطيلي: رحلة ص 40

(5) زكريا: جولة أثرية ص 269، 270.

(6) القلقشندي: صبح الأعشى 428/14، 429.

(7) العيني: عقد الجمان 34/2، زكريا: جولة أثرية ص 361.

(8) ياقوت الحموي: معجم البلدان 267/4.

(9)القلقشندي: صبح الأعشى 427/14.

(10) الريماوي: مدينة حمص ص 219 / 220.

38- قُطينة: قرية قرب بحيرة حمص اشتهر أهلها بصيد السمك وبيعه في أسواق حمص[1].

39- كفر تِكيس: من أعمال حمص[2].

40- كفر تَغَدْ: من قرى حمص يقال أن فيها قبر أبي أمامة الباهلي وتوجد قرية بشمال حمص باسم هذا الصحابي[3].

41- المزرعة: قرية تبعد عن حمص 8 كم تقع على طريق طرابلس[4].

42- مقد: قرية بالشام قبل حمص مشهورة بجودة الخمر[5].

ويضاف إلى أعمال حمص بلاد الجزيرة الواقعة بين الفرات ودجلة وكلها كانت تتبع نيابة دمشق، (مملكة الشام)[6].

وتعد دمشق عاصمة هذه الأعمال كلها، وفيها يقيم نائب السلطان، ويرسل نواباً عنه وأمراء إلى هذه الأعمال عدا القدس، فإن السلطان هو الذي يرسل إليها نائباً من قبله. وتعد نيابة دمشق أكبر وظيفة في الدولة المملوكية بعد الأتابيكية الكبرى بمصر.

---

(1) زكريا: جولة أثرية ص 360.

(2) ياقوت الحموي: معجم البلدان 4/468، البغدادي: مراصد 3/1199.

(3) الهروي: الإشارات ص 8، ياقوت الحموي: معجم البلدان 4/471، البغدادي: مراصد 3/1172، زكريا: جولة أثرية ص 354.

(4) محمد المكي: تاريخ حمص ص 288.راجع هذه التقسيمات لدى: الطراونة: محمد مبارك(نيابة حمص في العهد المملوكي) رسالة ماجستير - الجامعة الأردنية- 1996- ص34-44

(5) ياقوت الحموي: معجم البلدان 5/165، البغدادي: مراصد 3/1295.

(6) لمزيد من المعلومات حول نيابة دمشق وتقسيماتها راجع: العمري: مسالك الأبصار. العمري: التعريف بالمصطلح. القلقشندي: صبح الأعشى زالعلبي: دمشق بين عصر المماليك والعثمانيين.

وكثيراً ما ترقى بعض نوابها إلى أن صاروا سلاطين مصر بعد نيابة دمشق[1].

* * *

(1) العمري: مسالك الأبصار - ص103 وما بعد.العمري: التعريف بالمصطلح - ص224 وما بعدها / القلقشندي: صبح الأعشى - ج12 - ص6.(دهمان): أحمد (ولاة دمشق في عصر المماليك) دار الفكر - دمشق - الطبعة الأولى 1984 - ص18.

حمص التسمية والجغرافية

تعد حمص ثالث مدينة سورية من حيث عدد السكان والأهمية بعد دمشق وحلب. تقع في الجزء الغربي من وسط سورية، وعلى الطريق بين دمشق وحلب. تبعد حمص 160 كم عن العاصمة دمشق، وهي مركز أكبر المحافظات السورية. وتُعدُّ حمص بموقعها المتوسط همزة الوصل بين المناطق الشمالية والجنوبية والغربية والشرقية، وترتفع عن سطح البحر 508 أمتار.يبلغ عدد سكان حمص اليوم حوالي مليون ونصف نسمة، ، وتبلغ مساحتها 42218 كم؛ أي نحو أربعة أضعاف مساحة الجمهورية اللبنانية.

تشكل حمص جزء من سهل العاصي الخصيب، يمتد بين المنحدرات الجبلية اللبنانية، ومنحدرات السلسلة الجبلية الداخلية، وحيث تبدأ وهدة البقاع الموصلة إلى الجنوب، وتتفتح وهدة طرابلس المؤدية إلى الساحل، وتتفرع طريق تدمر التي تخترق بادية الشام، ولابد أن يكون هذا الموقع الهام من سورية الوسطى، قد أستدرج إليه الإنسان السوري الأول منذ أقدم العصور، وأن لعب بما له من إمكانيات زراعية وتجارية وإستراتيجية كبيرة دوراً هاماً في نشوء مجتمعات بلادنا البشرية الأولية.

أمّا بالنسبة إلى تسمية المدينة بهذا الاسم فقد قيل أن حَمَصَ الجُرْحُ يَحْمُصُ حُمُوصاَ وانحَمَصَ ليحمِص انحماصاً إذا ذهب ورَمُهُ[1]. ذُكرت في كتب الجغرافيين العرب على النحو التالي:

---

(1) الحموي، ياقوت بن عبد الله: (معجم البلدان)، دار صادر، بيروت، د.ت، مج2، ص302.

حُمِصْ: هي مدينة عظيمة بناها رجل من العمالقة يسمى حمص فنسبت إليه وسميت باسمه،[1] واختلف الاسم بالكامل لهذا الرجل، قيل" حمص بن المهر بن جان بن مكنف" وقيل "حمص بن مكنف المليقى".[2] وهي مدينة قديمة اسمها القديم "سوريا" كانت معظمة عند ملوك الروم، ولم تزل يشار إليها بالتعظيم[3].

وقيل لفظة آرامية تعني الأرض اللينة، سميت بذلك لوقوعها في سهل.[4] وقيل أن اسمها مشتق من الحماسة لأنها مدينة الأقوياء[5]. وتعود إلى أول من أنشأها حمث بن كنعان فسميت باسمه، وعلى مرور الأيام أبدلت الثاء صاداً فصارت "حمص"[6].

---

(1) ابن كنان، محمد بن عيسى:(المواكب الإسلامية في الممالك والمحاسن الشامية)، تح: حكمت إسماعيل، مراجعة: محمد المصري، وزارة الثقافة، دمشق، 1992م، ق2، ص31؛ الحميري، محمد بن عبدالمنعم: (الروض المعطار في خبر الأقطار)، تح: إحسان عباس، مكتبة لبنان، بيروت، ط2، 1984م، ص198؛ أسعد، الخوري عيسى: (تاريخ حمص منذ نشأتها الأولى حتى ظهور الإسلام سنة 2300ق.م إلى 622م)، مكتبة السائح، طرابلس، 1983م، ق1، ص37.

(2) الحموي: (معجم البلدان)، مج2، ص302.

(3) العمري، أحمد بن يحيى: (مسالك الأبصار في ممالك الأمصار)، تح: كامل سلمان الجبوري، دار الكتب العلمية، بيروت، 1971م، ج3، ص365؛ ابن كنان: (المواكب الإسلامية)، ق2، ص31.

(4) أسعد: (تاريخ حمص)، ق1، ص37؛ جود الله، فاطمة: (سورية نبع الحضارات)، دار الحصاد، دمشق، ط2، 2002م، ص417؛ شيخاني، محمد فيصل: (حمص عبر التاريخ)، مراجعة: هشام سعيد الحلاق، وزارة الثقافة، دمشق، 2011م، ص21.

(5) أسعد، تاريخ حمص، ق1، ص38.

(6) الخوند، مسعود: (الموسوعة التاريخية الجغرافية)، مؤسسة هانياد، بيروت، د.ت، ج10، ص286.

والجدير ذكره أن هناك عدداً من المدن تحمل اسم حمص وهي:

1- حْمِصُ: بالأندلس، وهم يسمون مدينة إشبيلية[1] حِمص، وذلك أن بني أمية لما حصلوا على الأندلس وملكوها سموا عدة مدن بها بأسماء مدن الشام[2].

2- حَمِصُ: بالفتح ثم الكسر والتخفيف، والصاد مهملة: قرية قرب خلَخْال[3] في طرف أذربيجان[4]. من جهة قزوين[5][6].

إلا أنه ليس لدينا معلومات ثابتة عن مدينة حمص قبل العهد الروماني، وأول من ذكر اسمها القديم (إيمزا، أو ايميزا، أو إيمسا Emèsa، Emèssa) كان المؤرخ الروماني المعروف بلين القديم Pline I'Aucien) في كتابه:

---

(1) إشبيلية: مدينة كبيرة على نهر الكبير وهو نهر قرطبة، الإدريسي، محمد بن محمد بن إدريس: (نزهة المشتاق في اختراق الآفاق)، عالم الكتب، بيروت، ط1، 1989م، مج2، ص541.

(2) السمعاني، أبو سعد عبد الكريم بن محمد (الأنساب)، اعتنى بتصحيحه والتعليق عليه: عبد الرحمن بن يحيى المعلمي اليماني، دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد، ط1، 1977م، مج4، ص250؛ الحموي، البلدان، مج2، ص302؛ المقري، أحمد بن محمد التلمساني، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تح: إحسان عباس، دار صادر، بيروت، 1968م، مج1، ص237.

(3) خلْخَال: مدينة في طرف أذربيجان متاخمة لجيلان في وسط الجبال، الحموي، معجم البلدان، مج2، ص380.

(4) أذربيجان: هي كورة تلي الجبل من بلاد العراق، وتلي كورة أرمينية من جهة المغرب، الحميري، الروض المعطار، ص20.

(5) قزوين: مدينة في سفح جبل يتاخم الديلم، أهلها أخلاط من العرب والعجم، اليعقوبي، أحمد بن أبي يعقوب اسحاق بن جعفر: (البلدان)، وضع حواشيه: محمد أمين ضناوي، دار الكتب العلمية، بيروت، د.ت، ص77.

(6) الحموي: (معجم البلدان)، مج2، ص304.

التاريخ الطبيعي، وكذلك فإنه لم يظهر في أرض المدينة أو فيما يجاورها مباشرة من أراضٍ آثار ترقى إلى أقدم من الزمن المشار إليه، وذلك بسبب أن الأبحاث والتحريات الأثرية لم تتوسع حتى الآن لتشمل نواة المدينة القديمة حيث قامت المنشآت البشرية المتعاقبة فوق بعضها واستمر السكن فيها، مما جعل وصول الباحثين الأثريين إلى أولاها، وتعرفهم عليها متعذرين[1].

وفي العام (15هـ/636م) فتحت حمص سلماً على يد أبو عبيدة بن الجراح وخالد بن الوليد في عهد الخليفة عمر بن الخطاب[2]، حيث توجه أبو عبيدة بن الجراح مع السمط بن الأسود الكندي إلى حمص حسب رواية البلاذري في فتوح البلدان[3]، ونزل بباب الرستن من سورها، وصالحه أهلها على أن أمّنهم على أنفسهم وأموالهم وسور مدينتهم وكنائسهم وأرواحهم، واستثنى عليهم ربع كنيسة يوحنا للمسجد، واشترط الخراج على من أقام منهم، وقد استقرت فيها القبائل العربية اليمانية بعد الفتح من طيء وحجر وكلب وهمذان.



(1) يتحدث المرحوم الخوري عيسى أسعد في كتابه: (تاريخ حمص) أن منشأ هذه المدينة يعود إلى نحو سنة (2300 ق.م) وأن اسمها آنذاك كان (حماة صوبا) وأن سكانها القدماء كانوا من الأموريين والعمالقة الذين امتزجوا فيما بعد بالحثيين، ونتمنى أن تتخذ هذه النظرية شكلاً يقربها من الاكتشافات الأثرية والأبحاث التاريخية التي تظهر كل يوم في عصرنا هذا.

(2) الواقدي، محمد بن عمر: (فتوح الشام)، اختار النصوص وقدم لها وعلق عليها: ماجد اللحام، وزارة الثقافة، دمشق، ط1، 1986م، ص95-96؛ الجنرال أ.أكرم: (سيف الله خالد بن الوليد)، تر: صبحي الجابي، مؤسسة الرسالة، د.ت، ص447.

(3) البلاذري، فتوح البلدان، ص137.

دخول نيابة حمص تحت السيطرة المملوكية

مع وصول الحملة الصليبية السابعة إلى دمياط كان الصالح نجم الدين أيوب مريضاً طريح الفراش[1]، ولكن المنية وافته قبل أن يتمكن من التصدي لها وذلك سنة 674هـ/1249م / تاركاً هذه المهمة إلى أرملته شجر الدر التي علمت خطورة الموقف، فأخفت موت زوجها خشية تضعضع موقف المسلمين، وفي الوقت نفسه أرسلت إلى الابن الوحيد الصالح نجم الدين الباقي في قيد الحياة المعظم توران شاه المقيم في حصن كيفا[2].

ومن الواضح أن قيام شجر الدر في السلطنة كان البداية العملية لدولة المماليك، لأنها كانت بحكم أصلها الأرميني أقرب إلى المماليك منها إلى الأيوبيين[3].

وهكذا يمكن القول بأن دولة المماليك الأولى قامت في شعبان (647هـ/مايو1250م) على يد امرأة ذكية أرمينية أو تركية الأصل.

ما إن فرغ المماليك من حرب الصليبيين وتثبيت حكمهم في مصر، حتى تعرضوا لامتحان آخر ألا وهو الهجوم المغولي على بلاد الشام، فبعد استيلاء المغول على بغداد عام (656هـ/1258م)، قصد هولاكو الشام، فوصل حلب،

---

(1) دمياط: مدينة قديمة بين تنيس ومصر على زاوية بين بحر الروم وبحر الملح والنيل. مخصوصة بالهواء الطيب، وهي ثغر من ثغور الإسلام.(الحموي) ياقوت بن عبد الله (معجم البلدان) دار صادر - بيروت - الطبعة الثانية - 1995 ج2 ص472-475.

(2) المقريزي: الخطط ج3 ص350 / وحصن كيفا: هي بليدة وقلعة عظيمة مشرفة على دجلة بين آمد وجزيرة ابن عمر من ديار بكر، الحموي: معجم البلدان ج2 ص265.

(3) المقريزي: السلوك - ج1 ص391 / (حتي) فيليب: (تاريخ العرب) ترجمة: جورج حداد، دار الثقافة - بيروت - بدون تاريخ - ص266.

دخلها، ودمرها سنة (658هـ/1260م)، وبعد حلب توجه نحو حماة، ومـن ثم تابع نحو دمشق، واستولى عليها وعلى كافة الشام[1]. وتابع هولاكو مسيره نحـو مصر، فقد أرسـل إنـذاراً سـنة (658هــ/1260م) إلى المظفـر قطـز طالبـاً منـه الاستسلام، فما كان من قطز إلا أن عقد اجتماعاً عاجلاً مع أمراء دولته، انتـهى إلى قرار برفض إنذار هولاكو.ولم يكتفِ قطز بذلك، بل أقدم علـى قتـل رُسُـل هولاكو، الذين حملوا الإنذار[2].

لكن طرأت بعض التغيرات على الـساحة المغوليـة وذلـك بـسبب رحيـل هولاكو من بلاد الشام، بعد أن سمع خبراً مفاده قيـام صـراع علـى الـسلطة في عاصمته، وخوفاً على أملاكه في إيران، فأوكل قيادة الجيش إلى قائده كتبغا[3].

أما المماليك فقد قرروا بعد المداولة الوقوف ضد المغول، وعلـى الفـور وضع السلطان قطز خطة عسكرية محكمة وذلك بأن يقوم الظـاهر بيـبرس علـى رأس قوة استطلاعية تذهب لدراسة الموقف على أرض الواقع، ثم تبعه قطز نحو فلسطين إلى عين جـالوت، وهنـاك التقـى الجيـشان المغـولي والمملـوكي يـوم الجمعة /25/ رمضان (658هـ/1260م).وأسـفر هـذا اللقـاء عـن نـصرٍ حاسـم للماليك، وغُلِب المغول، وقتل القائد المغولي كتبغا[4].

ومن أهم نتائج عين جالوت أنها أدت إلى سيطرة المماليك على بلاد الشام كلها حتى نهر الفرات، وحققوا وحدة بلاد الـشام ومـصر بعـد أن أدى ضـعف خلفاء صلاح الدين، وتنازعهم إلى تمزيق هذه الوحدة[5].

---

(1) القلقشندي: مآثر الإنافة - ج2 ص103-104.

(2) (المنصوري) بيبرس (التحفة المملوكية في الدولة التركيـة) تـح: عبـد الحميـد حمـدان - الدار المصرية اللبنانية - الطبعة الأولى - 1987- ص43.

(3) طقوش: تاريخ المماليك - ص74.

(4) لمزيد من المعلومات حول هذه المعركة انظر: المنصوري: التحفة المملوكية ص43 ومـا بعدها / ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة: ج7 ص67 وما بعدها.

(5) طقوش: المرجع السابق: ص81.

ونستطيع القول: إن عين جالوت قد هيأت: "لبناء هيكل الدولة المملوكية"[1] وذلك بسبب إزالة المماليك الأيوبية على يد المغول، وبعد هزيمة المغول، استطاع المماليك ضم بلاد الشام إلى سلطنتهم وكانت القوى الصليبية ما تزال موجودة فيها.

وعلى الرغم من التحالف الصليبي المغولي ضد المسلمين، إلا أن النصر في عين جالوت أدى إلى التعجيل في زوال الإمارات الصليبية في بلاد الشام على يد بيبرس وقلاوون وأولاده، واعترف المماليك بشرعية الخلافة العباسية التي سقطت على يد المغول. وخضعت نيابة حمص الأيوبية الكبيرة في عهد ملكها الأشرف موسى لسيطرة المماليك، وقد أقرّ السلطان قطز للملك الأيوبي الأشرف موسى حكمه على نيابة حمص وتوابعها.

سرعان ما أعلن الملك الأيوبي النائب المملوكي على حمص الأشرف موسى ولاءه للسلطان المملوكي الجديد الظاهر بيبرس وقام بمحاربة المغول في المعركة التي دارت شمالي مدينة حمص قرب قبر خالد بن الوليد، وأوضح أن جميع ما يملكه قد انتقل إلى السطان الظاهر بيبرس، معززاً تبعيته هذه ذهب ليقدم الولاذ والطاعة للسلطان الجديد سنة (661هـ/1262م) خلال إقامته في دمشق حيث خلع الملك الظاهر بيبرس على الأشرف، وأقره على حمص وكل ذلك عقب مقتل قطز في 5 ذي القعدة 658هـ/ 26 تشرين أول 1260م، ، وبقي الأشرف موسى يحكم حمص وأعمالها حتى توفي سنة 662هـ/ 1264م، وبعد وفاته أرسل الظاهر بيبرس نوابه لاستلام حمص وهو آخر من ملك حمص من أسرة شيركوه[2]، وبعد ذلك أصبحت حمص نيابة مستقلة تتبع مباشرة للسلطان المملوكي في مصر، شأنها شأن نيابات بلاد الشام كافة.

---

(1) (زعرور): إبراهيم (الحياة الاجتماعية في بلاد الشام في العصر الأيوبي والمملوكي) تقديم سهيل زكار مطبعة الجمهورية - دمشق - 1993 - ص50

(2) ابن شداد: الأعلاق الخطيرة / ج1 / ق2، ص 106، 107، ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر ص 117 - 119. الطراونة: نيابة حمص -ص30.

وقد ذكرت حمص وأهميتها في كتب الجغرافية من خلال ما قدمه الجغرافيين عنها، ومن ذلك نذكر:

1- زار الإدريسي مدينة حمص وذكرها في كتابه نزهة المشتاق في اختراق الآفاق ووصفها

بقوله: "وأما أرض حمص فإن مدينتها حمص، وهي مدينةٌ حسنةٌ في مستوٍ من الأرض، وهي عامرةٌ بالناس، والمسافرون يقصدونها بالأمتعة والبضائع من كل فنٍّ "، وقدم وصفاً جميلاتً لأسواقها وتجارتها حيث قال:" وأسواقها قائمةٌ ومسرات أهلها دائمةٌ وخصبهم رغدٌ ومعايشهم رفيقةٌ ".

وقدم الإدريسي صورة جميلة لأهل حمص وحياتهم المعاشية وقراهم وما يتمتعون به من صفات قائلاً: "وفي نسائها جمالٌ وحسن بشرة، وشرب أهلها من ماءٍ يأتيهم في قناةٍ من قريةٍ بقرب جوسية، والمدينة منها على مرحلةٍ مما يلي دمشق ونهر الأرنط المسمى المقلوب يجري على بابها بمقدار رمية سهمٍ أو أشف قليلاً، ولهم عليه قرىً متصلةً وبساتين وأشجار وأنهار كثيرة".

وعبّر الإدريسي عن إعجابه بخيرات هذه المدينة وثمارها وزراعاتها إذ قال:" ومنها تجلب الفواكه إلى المدينة، وكانت في مدة الإسلام من أكثر البلاد كروماً فتلف أكثرها، وثراها طيبٌ للزراعات واقتناء الغلات، وهواؤها أعدل هواءٍ يكون بمدن الشام وهي مطلسمةٌ لا تدخلها حيةٌ ولا عقرب، ومتى أدخلت على باب المدينة هلكت على الحال"(1).

ومن عجيب ما ذكره الإدريسي عن حمص وترابها ومسجدها أنه قال:"و بها على القبة العالية الكبيرة التي في وسطها صنم نحاس على صورة الإنسان الراكب يدور مع الريح حيث دارت، وفي حائط القبة حجرٌ عليه صورة عقرب، فإذا جاء إنسانٌ ملدوغٌ أو ملسوعٌ طبع في ذلك الحجر الطين الذي يكون معه ثم يضع الطين على اللسعة فتبرأ للحين، وجميع أزقتها وطرقها مفروشةٌ بالحجر

---

(1) الإدريسي: نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، ،ج2، ص133-134

الصلد وزراعاتها مباركةٌ كثيرةٌ، وزروعها تكتفي باليسير من السقي، وبها مسجدٌ جامعٌ كبيرٌ من أكبر جوامع مدن الشام".

2- وصف الرحالة ابن جبير حمص في كتابه قائلاً:"مدينة حمص هي فسيحة الساحة، مستطيلة المساحة، نزهة لعين مبصرها من النظافة والملاحة، موضوعة في بسيط من الأرض عريض مداه، لا يخترقه النسيم بمسراه، يكاد البصر يقف دون منتهاه، أفيح أغبر، لا ماء ولا شجر، ولا ظل ولا ثمر، فهي تشتكي ظمأها، وتستقي على البعد ماءها، فيجلب لها من نهرها العاصي، وهو منها بنحو مسافة الميل، وعليه طرة بساتين تجتلي العين خضرتها، وتستغرب نضرتها، ومنبعه في مغارة يصفح جبل فوقها بمرحلة بموضع يقابل بعلبك، أعادها الله، وهي عن يمين الطريق دمشق".

وتحدث عن أهل المدينة وإعجابه بأخلاقهم وصفاتهم حيث قال: "وأهل هذه البلدة موصوفون بالنجدة والتمرس بالعدو لمجاورتهم إياه، وبعدهم في ذلك أهل حلب. فأحمد خلال هذه البلدة هواؤها الرطب، ونسيمها الميمون تخفيفه وتجسيمه، فكأن الهواء النجدي في الصحة شقيقه وقسيمه". ولم يغفل ابن جبير عن وصف فن العمارة في هذه المدينة وما تحويه من قبور صحابة النبي صلى الله عليه وسلم حيث قال:"وبقبلي هذه المدينة قلعة حصينة منيعة، عاصية غير مطيعة، قد تميزت وانحازت بموضوعها عنها. وبشرقيها جبانة فيها قبر خالد بن الوليد، رضي الله عنه، هو سيف الله المسلول، ومعه قبر ابنه عبد الرحمن، وقبر عبيد الله بن عمر، رضي الله عنهم ".

ثم قدم وصفاً جميلاً لسور المدينة وأبوابها وذكر متانة بناءها بقوله: "وأسوار هذه المدينة غاية في العتاقة والوثاقة، مرصوص بناؤها بالحجارة الصم السود، وأبوابها أبواب حديد، سامية الإشراف، هائلة المنظر، رائعة الإطلال والأناقة تكتنفها الأبراج المشيدة الحصينة[1].

---

(1) ابن جبير:محمد بن أحمد بن جبير الكناني،رحلة ابن جبير، دار بيروت للطباعة، بيروت،ط1، 2010،ص231-233

3- في حين ذكرها ياقوت الحموي في معجمه فوصفها ووصف قلعتها وسورها بشيء مشابه لما قاله ابن جبير حيث ذكر: "حمص: بالكسر ثم السكون، والصاد مهملة: بلد مشهور قديم كبير مسور، وفي طرفه القبلي قلعة حصينة على تل عال كبيرة، وهي بين دمشق وحلب في نصف الطريق، يذكر ويؤنث".

وذكر ياقوت الحموي بأن أهل السير قالوا أن من بناها: "اليونانيون"، وأفاد بزراعة زيتونها الذي انتشر خارج حمص ووصل إلى فلسطين حيث قال: "وزيتون فلسطين من غرسهم".

قدم لنا الحموي صورة جميلة عن حمص ومسجدها والشفاء من ترابها من لدغة العقرب حيث قال: "ومن عجائب حمص صورة على باب مسجدها إلى جانب البيعة على حجر أبيض أعلاه صورة إنسان وأسفله صورة العقرب، إذا أخذ من طين أرضها وختم على تلك الصورة نفع من لدغ العقرب منفعة بينة، وهو أن يشرب الملسوع منه بماء فيبرأ لوقته".

وقدم الحموي وصفاً لمناخ حمص في وصف مع من ذكرها من الرحالة ويكون بذلك هو الوحيد الذي قدم هذا الوصف من دون أن نعرف سبب ذلك حين قال: "ومن عجيب ما تأملته من أمر حمص فساد هوائها وتربتها اللذين يفسدان العقل حتى يضرب بحماقتهم المثل"، وقال عن أهل حمص بأنهم "التزموا الضلال أولا وأخيرا فليس لهم زمان كانوا فيه على الصواب"[(1)].و بذلك يختلف الحموي مع كل من زار حمص من الرحالة المسلمين الإدريسي وابن جبير وابن بطوطة وغيرهم.

4- جاء ابن بطوطة على ذكر حمص ووصفها بعد خروجه من حصن الأكراد حيث قال:" ثم سافرت إلى مدينة حمص وهي مدينة مليحة، أرجاؤها مونقة، وأشجارها مورقة، وأنهارها متدفقة، وأسواقها فسيحة الشوارع، وجامعها متميز بالحسن الجامع، وفي وسطه ماء".

---

(1) الحموي:معجم البلدان، مج3، 233-236

وعبر ابن بطوطة عن إعجابه بأهل حيث قال:" أهل حمص عرب لهم فضل وكرم". ووقدم لنا مشهداً عن حمص وعن مسجد الصحابي الجليل خالد بن الوليد بقوله:" وبخارج هذه المدينة قبر خالد بن الوليد سيف الله ورسوله، وعليه زاوية ومسجد وعلى القبر كسوة سوداء"[1]. ويأتي هذا الوصف لابن بطوطة عن حمص وهو يوضح في وصفه إياها النواحي الجمالية التي برزت من خلال ألفاظه، وحسن تعبيره في بصورة متعارضة مع وصف ابن جبير عن مدينة حمص بأنها "لا ماء ولا شجر، ولا ظل ولا ثمر فهي تشتكي ظمأها وتستقي على البعد ماءها فيجلب لها من نهيرها العاصي وهو منها بنحو مسافة الميل.

وبخصوص استقلالية نيابة حمص عن دمشق فإننا نلحظ الجواب لدى المؤرخين:

1- ذكر القلقشندي في كتابه صبح الأعشى في كتابه الإنشا: حمص ووصفها وعدّها من قواعد الشام حيث قال:"هي مدينةٌ جليلةٌ، وقاعدةٌ من قواعد الشام العظام،وهي في وطأةٍ من الأرض ممتدةٌ على القرب من نهر العاصي، ومنه شرب أهلها، ولها منه ماءٌ مرفوعٌ يجري إلى دار النيابة بها وبعض مواضع بها"[2].

2- عد المؤرخ شيخ الربوة نيابة حمص من أصغر ممالك الشام الثمانية وآخرها رتبة وقد أطلق على حمص (مملكة) كعادته في وصف جميع نيابات بلاد الشام، وذكر أنها نيابة مستقلة بها كرسي الإمارة ونيابة السلطنة[3].

3- في حين نجد العمري قال بأن حمص نيابة جليلة لها عسكر وعدد أعمالها الأربعة[4]. أما القلقشندي فقد وصفها بأنها نيابة مستقلة عن غيرها وقال:

---

(1) ابن بطوطة:محمد بن عبد الله، رحلة ابن بطوطة المسماة تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، تح: سعيد بن علي السناري، دار الرباط، المغرب، 2009، ص 89-90

(2) القلقشندي، أحمد بن علي القلقشندي، صبح الأعشى في صناعة الإنشا، تح:محمد حسين شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، ط2201،1، مج2، ص153-136.

(3) شيخ الربوة: نخبة ص 202.

(4) ابن فضل الله العمري: التعريف ص 256.

4- "وهي نيابة جليلة كانت في الأيام الناصرية فما بعدها تقدمة ألف ثم استقرت طبلخانة بعد ذلك"[1].

5- أما ابن شاهين الظاهري فقد ذكر حمص أثناء تعداده لمعاملات دمشق إلا أنه لم يذكر العبارة التي يكررها وراء كل اسم (وهي معاملة دمشق) عند ذكره لها[2].

ويفيد أحد المؤرخين المشهورين بأن وجود نائب لحمص يعين من قبل السلطان مما يوحي باستقلالها عن نيابة دمشق، وأفاد بأنه "لحمص نائب من قبل السلطان وحاجب له كلمة نافذة ربما كانت ككلمة النائب، وبها قضاة كانت توليهم قضاة دمشق"[3].

وتعد دمشق عاصمة هذه الأعمال كلها في النيابة الكبرى (المملكة الشامية)، وفيها يقيم نائب السلطان، ويرسل نواباً عنه وأمراء إلى هذه الأعمال عدا القدس، فإن السلطان هو الذي يرسل إليها نائباً من قبله. وتعد نيابة دمشق أكبر وظيفة في الدولة المملوكية بعد الأتابيكية الكبرى بمصر. وكثيراً ما ترقى بعض نوابها إلى أن صاروا سلاطين مصر بعد نيابة دمشق[4].

***

---

(1) القلقشندي: صبح الأعشى 4/101، 209. الطراونة: نيابة حمص ص29- 30

(2) ابن شاهين الظاهري: زبدة كشف ص 47.

(3) محمد بن الشحنة: الدر المنتخب في تاريخ مملكة حلب، وقف على طبعه وعلق حواشيه يوسف بن إليان سركيس، المطبعة الكاثوليكية للأباء اليسوعيين بيروت 1909م، ص 274، الطراونة: المرجع السابق ص 31

(4) العمري: مسالك الأبصار - ص103 وما بعد. العمري: التعريف بالمصطلح - ص224 وما بعدها / القلقشندي: صبح الأعشى - ج12 - ص6. (دهمان): أحمد (ولاة دمشق في عصر المماليك) دار الفكر - دمشق - الطبعة الأولى 1984 - ص18.

الوظائف الإدارية في نيابة حمص في عصر المماليك

جرت العادة أن تكون مدينة حمص هي قاعدة ومركز النيابة التي يتم توليتها لأحد أمراء المماليك ويعرف بنائب السلطة، وكان تعيينه ودخوله لحمص فيعبر عنه في المكاتبات الرسمية بـ"كافل النيابة"[1].

وهو يقوم فيها مقام السلطان وتكتب عنه التواقيع الكريمة[2] والمراسم الشريفة[3]، وهو سلطان مختصر، وهو المتصرف المطلق في كل أمر، ويستخدم الجند ويرتب الوظائف، ويسمى ملك الأمراء، وربما سمي أكابر الأمراء بملك الأمراء[4]. وبتصرفه عدد من الموظفين الذين كانوا يقسمون حسب تصنيف ذلك العصر إلى ثلاثة أصناف سيتم الحديث عنهم مفصلاً.

أولاً: الوظائف العسكرية (أرباب السيوف):

وكانت محصورة بالأمراء المماليك،وهم من طبقة المماليك وكانت الوظائف التابعة لهذه الطبقة وهي ما تعرف باسم (الوظائف العسكرية أو وظائف أرباب السيوف) محتكرة من قبل المماليك، وخاصة بهم، ولا يجوز لأهل البلاد الدخول في السلك العسكري أو أن يكون من أرباب السيوف، ولهؤلاء الأمراء وظائف عديدة هي:

---

(1) الكافل: من الألقاب المختصة بنائب السلطنة / (دهمان): محمد أحمد (معجم الألفاظ التاريخية في العصر المملوكي) دار الفكر - دمشق - الطبعة الأولى - 1990 - ص128.

(2) التوقيع: الإمضاء: حيث كان للسلاطين تواقيع خاصة بخواتيم يختمون بها الرسائل وكانت تسمى (الطغراء). دهمان: المرجع نفسه - ص49.

(3) الناظر: من ينظر في الأموال ويتفقد تصرفاتها ويدفع إليه حسابها لينظر فيه ويدققه، فيمضي ما يمضي ويرد الباقي. دهمان: المرجع نفسه - ص92.

(4) العمري: مسالك الأبصار ص111 / القلقشندي: المصدر السابق - ج1 - ص184.

1- النائب : هو رأس الجهاز الإداري في النيابة ويعين من قبل السلطان حصراً بموجب مرسوم شريف وكان يلقب (النائب بحمص المحروسة)، وكذلك يطلق عليه أيضاً(نائب السلطنة بحمص)[1] ومن التسميات التي أطلقت عليه (كافل المملكة الحمصية)[2].

تصمت المصادر عن هذه الوظيفة ومن يتولاها إلا ما ورد من أن رتبة نائب حمص كانت قبل تولي السلطان الناصر محمد بن قلاوون عرش السلطنة أقل من أمير أربعين[3].

في حين نجد بعض المصادر تزودنا بمعلومة مهمة في سلطنة الناصر محمد وما بعدها حيث كانت رتبته (مقدم ألف) إلا أن رتبته تغيرت فيما بعد واستقرت أمير طبلخانة[4] أي أمير أربعين.

ومن خلال ما ورد في المرسوم السلطاني الشريف بتعيين نائب حمص نجد وظيفته ومهامه محصورة في "إقامة العدل، والرفق بالرعية، وإقامة الحدود، وتجنيد العساكر للدفاع عن حدود نيابة حمص المملوكية وتلبية الدعوات ونصرة المجاورين للقلعة حتى نهر العاصي" وبذلك نجد أن النرسوم حدد واجبات ومهام النائب لحمص المحروسة او كافل المملكة الحمصية[5].

2- الحاجب الكبير : وهؤلاء الحجاب في حمص متعددون، ويقال لرئيسهم (حاجب الحجاب) ويعبر عنه رسمياً بـ (أمير حجاب)، ويعد رجل السلطان في حمص المحروسة، ويقيم في دار العدل، وعند خروج النائب من حمص كان حاجب الحجاب يحل محله، وعند ورود مرسوم من السلطان بالقبض على النائب فإنه كان من ينفذ هذه العملية ويفعل ما يؤمر به من سجن وغيره. ويقوم بأمر البلد إلى أن يقوم نائب آخر.

---

(1) القلقشندي: صبح الأعشى 7 / ص8، 186، 106/12

(2) ابن عبد الظاهر: تشريف الأيام ص 95، 97

(3)ابن حجر: الدرر 54/2

(4) القلقشندي: صبح الأعشى 52/4، 209.

(5) القلقشندي: صبح الأعشى 324/12، 325.الطراونة: المرجع السابق ص48

3- نائب القلعة : وهي نيابة مستقلة عن السلطنة، ليس لنائب حمص عليها كلام، وكان متوليها - بمرسوم من الأبواب السلطانية - يكتب من ديوان الإنشاء الشريف، وتوجد في نيابة حمص قلعتان هما: قلعة حمص، وقلعة سلمية (شميميس) ولكل منهما نائب مركزه في القلعة نفسها.

ويشير أحد الباحثين إلى انه لا توجد موارد "ومعلومات كافية عمن تولوا قلعة حمص إلا أن هنالك خبرين يشيران إلى وجود نواب لقلعة حمص، الأول يشير إلى أن نائب قلعة حمص قد يشارك الأمير سنقر الأشقر في عصيانه سنة 679هـ/1280م[1] والثاني يتعلق باستيلاء نائب حمص تمان بغا الحسيني على القلعة من نائبها سنة 801هـ/ 1399م"[2].

وفيما يخص موضوع قلعة (شميمش) فهناك معلومة واحدة تذكر أن نائبها هو "عز الدين أيبك بن عبد الله أبو محمد الإسكندراني الصالحي" وقد عمل السلطان بيبرس على نقله إلى بعلبك، وإعادته ثانية إلى "حمص المحروسة"، ثم نقله إلى الرحبة[3]. وتتمثل وظيفة نائب القلعة في حفظ القلعة وصونها، ولا يقوم بتسليم مفاتيحها لأحد إلا لمن يتولاها مكانه، أو لمن يأمره السلطان بتسليمها ولنائبها. ومن مهمات نائب القلعة قراءة مراسيم السلطان، وكان ينفذ فيها ما يصدر من عزل، أو تولية أو اعتقال.

4- شد المهمات : وهي رتبة جليلة، تتحدث في أمور الاحتياجات السلطانية، وكانت هذه الوظيفة تسند إلى نائب حمص المحروسة، وتارة إلى حاجب الحجاب وتارة إلى أمير آخر حسب رأي السلطان[4].

---

(1) ابن عبد الظاهر: تشريف الأيام ص 67، المقريزي: السلوك 678/1

(2) أبو البركات محمد بن أحمد بن إياس: بدائع الزهور في وقائع الدهور 5ج حققه محمد مصطفي ط2 الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة 1982- 1984م ج1 ص 541.

(3) اليونيني: ذيل 132/2.الطراونة: المرجع السابق: ص48

(4) القلقشندي: صبح الأعشى - ج4 - ص190-195 / دهمان: معجم الألفاظ التاريخية - ص23-26.

العلبي: دمشق بين عصر المماليك والعثمانيين - ص313-315.

5- نقابة القلعة : وهي إمرة عشرة بمرسوم سلطاني.

6- نقابة النقباء : وهما نقيبان: أحدهما يكون لميمنة النائب والآخر للميسرة.

7- الخزندارية : ومهمتها الخلع والتشاريف السلطانية بالقلعة. وهم أربعة طواشية (خصيان) وبعضهم أعلى مرتبة من بعض، وكل منهم له توقيع كريم من نائب السلطنة بحمص المحروسة على قدر رتبته.

8- نقابة الجيش : وفيها ثلاثة نفر، وكان كبيرهم يطلق عليه نقيب النقباء، ويكون أمير طبلخاناه. ويكتب لكل منهم توقيع كريم من نائب السلطنة بدمشق على قدر رتبته[1].

9- الشد : لفظ اصطلح عليه في العصر المملوكي، وصاحب هذه الوظيفة يقال له: شاد، مضافاً إلى وظيفة، فيقال: شاد الدواوين، شاد العُشر، ومنها في ذلك العصر في بلاد الشام:

آ - شد الدواوين: وموضوعها التحدث في استخراج الأموال السلطانية، ويكتب لمتوليها توقيع كريم من النائب[2]، و ممن شغل هذه الوظيفة بحمص المحروسة تفيدنا المصادر التاريخية بعدد من الأسماء نذكر منهم:

1- نجم الدين داود بن محمد بن أبي بكر بن محمد بن يوسف بن الزيبق، حيث تم نقله منها إلى شد الدواوين بدمشق سنة 729هـ/ 1329م[3].

2- سيف الدين بهادر بن الكركري الذي شغلها أول مرة أثناء فترة نيابة سيف الدين تنكز لدمشق (712 -0 742هـ/ 1312 - 1340م) وأعيد إليها فيما بعد منقولاً من صفد[4].

---

(1) دهمان: المرجع السابق - ص152.

(2) دهمان: المرجع نفسه - ص95.

(3) ابن كثير: البداية 14/149.

(4) الصفدي: الوافي 10/300، 301، ابن حجر: الدرر 2/33.

ب - شد الأوقاف: ومهمتها التحدث عن أوقاف المسلمين، وعادتها إمرة عشرة، أو طبلخاناه، ويكتب لمتوليها توقيع من النائب.

جـ - شد الزكاة: وموضوعاتها تجارة البهار من الفلفل والقرنفل ونحوهما مما يجلب من الهند واليمن، وكان لهذه التجارة شأن عظيم، وعادتها إمرة عشرة، أو طبلخاناه، ويكتب لمتوليها توقيع من النائب.

د - شد العُشر: ومهمتها أخذ العشر من التجارة التي يُأتى بها من بضائع الإفرنج ويسمى عُشرها مكسا (جمركاً).

10- **ولاية المدينة** : ومهمتها التحدث في أمر الشرطة، وصاحبها أمير عشرة.

11- **المهمندارية** : ومهمتها تلقي الرسائل والرسل الواردين إلى النيابة من حكومة أخرى[1].

12- **أمير آخورية البريد** : وموضوعها التحدث عن خيول البريد في حمص ونواحيها، وكان البريد خاصاً بالدولة، ليس لأحد من الرعية سبيل إلى استعماله[2].

13- **تقدمة البريد** : ومهمتها التحدث عن جماعة البريد بحمص، ويعتمد الخيل في نقل الأخبار، لذلك نظمت محطات البريد وزودت بكل ما يحتاج إليه البريدية من ماء وطعام وأعلاف لخيولهم كما كان في معظمها خان ومكان لنزول المسافرين ومسجد[3].

---

(1) دهمان: المرجع نفسه - ص147.

(2) القلقشندي: المصدر السابق - ج4 - ص192-193.

(3) ابن فضل الله العمري: التعريف ص 272 - 279، ابن شاهين الظاهري: زبدة كشف ص 117.

أما مراكز البريد في نيابة حمص فهي :

1 - الخط البريدي الذي يصل بنيابة حمص مع دمشق فهو: دمشق - القصير - القطيفة - القسطل - قارة - بريج العطش (البريج) - سمسمين (سمنين) - حمص[1].

2 - الطريق ما بين دمشق والنيابات الشامية:

أ- الطريق من دمشق إلى الرحبة عن طريق مراكز حمص فهي من دمشق - القصير - القطيفة - العطنة - جليجل - المصنع - القرتيني - الحير - البيضا - تدمر - أرك - السخنة - قباقب - كراثل - الرحبة[2].

ب- الطريق من دمشق إلى حماة وحلب عن طريق مراكز حمص فهي من دمشق - القصير - القطيفة - القسطل - قارة - بريج العطش - الغسولة - شمسين - حمص - الرستن - حماة - لطمين - طرابلس - المعرة - انقرتا (انقراتا) - إياد - قنسرين - حلب[3].

ج- الطريق من دمشق إلى طرابلس مروراً بمراكز حمص فهي: من دمشق - القصب - قُدس - أقمار - الشعرا - عرقا - طرابلس[4] ومن دمشق إلى طرابلس أيضا فهي: من دمشق - الغسولة - القصب - ثم المراكز السابقة.

د- الطريق من دمشق إلى جعبر مروراً بمراكز حمص فهي: من دمشق إلى حمص المراكز السابقة ومن حمص - سلمية - بغيديد - سوريا - الحص - جعبر[5].

---

(1) ابن فضل الله العمري: التعريف ص 272 - 279، ابن شاهين الظاهري: زبدة كشف ص 119، 120.
(2) ابن فضل الله العمري: التعريف ص 278، 279، القلقشندي: صبح الأعشى 427/14
(3) ابن فضل الله العمري: التعريف ص 278
(4) ابن فضل الله العمري: التعريف ص 279، 280، القلقشندي: صبح الأعشى 427/14، ابن شاهين الظاهري: زبدة كشف ص 120.
(5) ابن فضل الله العمري: التعريف 280.

هـ- الطريق من بعلبك إلى حمص فهي: من بعلبك - القصب - الغسولة - شمسين - حمص[1].

و- الطريق الواصلة ما بين دمشق إلى مصياف عن طريق مراكز حمص فهي من دمشق إلى حمص (المراكز السابقة) ومن حمص إلى مصياف[2].

ثانياً: الوظائف الديوانية:

1- كتابة السر: ويسمى صاحبها "صاحب ديوان الإنشاء بحمص المحروسة" وهي تضاهي كتابة السر بالديار المصرية في الرياسة ورفعة القدر وصاحبها مسؤول عن المراسلات ظاهراً، لكنه يطالع السلطان بكل ما خفي من أمور المملكة وما يحدث فيها، (لعل النائب يخفيه عنه)[3].

يقوم هذا الديوان بجميع المراسلات والمكاتبات التي ترد إلى نائب السلطنة وتصدر عنه ورئيس ديوان الإنشاء يعين مباشرة من قبل السلطان بتوقيع شريف[4] ويشترط أن يكون لديه معرفة في القرآن الكريم وبالأحاديث النبوية الشريفة، وسير الملوك الأولين، وبالحكم والأمثال ومعرفة وقائع العرب، وأن يكون على درجة من الفصاحة والبلاغة[5].

---

(1) ابن فضل الله العمري: التعريف 280، القلشندي: صبح الأعشى 428/14، ابن شاهين الظاهري: زبدة كشف ص 120.

(2) ابن فضل الله العمري: التعريف 279.راجع هذه الطرق لدى الطراونة: المرجع السابق ص52-53

(3) دهمان: معجم الألفاظ - ص127.

(4) القلقشندي: صبح الأعشى 195/4، 196، أحمد دراج: تراجم كتاب السر في العهد المملوكي 648 - 922ه، مجلة البحث العلمي والتراث الإسلامي / م4، دار مكة 1981/ ص 322.

(5) ابن شاهين الظاهري: زبدة كشف ص 98، 99.

ومن الذين أسماء الكتاب الذين تولوا هذه الوظيفة بحمص المحروسة خلال العصر المملوكي نذكر:

1- علم الدين مسعود بن أبي الفضل المعروف بابن حشيش في النصف الثاني من القرن السابع الهجري / الثالث عشر الميلادي[1].

2- محيي الدين يحيى بن فضل الله بن المجلي بن دعجان بن خلف بن نصر بن منصور بن عبيد الله بن علي بن محمد بن أبي بكر بن عبد الله بن عمر العدوي العمري في النصف الثاني من القرن السابع الهجري / الثالث عشر الميلادي[2].

3- شمس الدين محمد بن محمد بن عيسى بن عبد الوهاب بن ذؤيب بن مشرف الأسدي بن شرف الدين بن قاضي شهبة سنة 743هـ/ 1342م[3].

وارتبط بديوان الإنشاء وبكاتب السر مباشرة مرفق البريد، وكانت مهمة صاحبه إبلاغ مقر السلطنة في القاهرة عما يجري في النيابة، ويتلقى الرسائل الواردة إليها[4]، ووجدت في نيابة حمص أنظمة البريد الثلاثة التي كانت مستخدمة زمن المماليك وهي: البريد العادي، الحمام والمناور.

وصاحبها يجتمع بالنائب في أوقات معينة، ويحضر اجتماعات دار العدل، ومن مهماته كتابة الغلات والمحاسبات والخرج والدخل. ويكون تعيين صاحبها من قبل السلطان.

---

(1) فضل الله بن أبي الفخر الصقاعي: تالي كتاب وفيات الأعيان، حققه جاكلين سويله، دمشق 1974م، ص 157، 158.

(2) الصفدي: أعيان 325/3 - 327، ابن حجر: الدرر 200/5، دراج: تراجم كتاب السر ص 222.

(3) الصفدي: أعيان 118/2، ابن حجر: الدرر247/4.

(4) القلقشندي: صبح الأعشى 416/14، 417.الطراونة: المرجع السابق ص 51

2- كتّاب الدست : وهم الذين يجلسون معه كاتب السر في دار العدل، ويقرؤون القصص على نائب حمص المحروسة ويوقعون عليها بأمره[1].

3- كتّاب الدرج : ووظيفتهم مكاتبة الولايات والمكاتبات ونحوها، ويشاركهم كتاب الدست في بعض الأحيان. وكتاب الدست والدرج فيكون تعيينهم من قبل النائب.

4- نظر الجيش : مهمتها التحدث في الإقطاعات، فيكتب ناظر الجيش ما يعينه النائب للمستحقين لها مما توافر منها عن أصحابها بالموت نحوه. مثل أن يمنع أحد الأمراء من إقطاعه لسبب من الأسباب أو ينقص قسماً من إقطاعه وما يعينه النائب يكتب بديوان الجيش[2]. وناظر الجيش يتم تعيينه من قبل السلطان، ومعاونوه يتم تعيينهم من قبل النائب. وممن تولى هذه الوظيفة بنيابة حمص:

1- جمال الدين إبراهيم بن شمس الدين علي الكاتب ونقل منها إلى دمشق[3].

2- ابن البدر[4] في سنة 824هـ/ 1421م وقد كان والده من قبل هو ناظر السلطنة ولتقدمه في السن ولعدم مقدرته على القيام بأعباء هذه الوظيفة كتب التقليد لابن البدر خلفاً لوالده[5].

5- نظر المهمات الشريفة : وهي وظيفة جليلة، يكون متوليها من أرباب القلم، رفيقاً لشاد المهمات، ومن أرباب السيوف، الذي يكون تارة نائب حمص، وتارة يكون الحاجب بها وغيره.

---

(1) دهمان المرجع نفسه - ص127.

(2) دهمان: المرجع نفسه - ص150.

(3) الصقاعي: تالي ص 37.

(4) ابن البدر هو محمد بن محمد بن محمد بن إبراهيم بن محمد بن أيوب بن محمد الشمس بن البدر الحمصي توفي 858هـ/ 1454م، السخاوي: الضوء اللامع 8/299 - 300.

(5) الطراونة: المرجع السابق-ص55

6- نظر الخاص : موضوعه التحدث فيما يتعلق بالمستأجرات السلطانية وغيرها من الأغوار، وقد يضاف نظرها إلى الوزير[1].

7- نظر الخزانة : ويعبر عنها بالخزانة العالية، وصاحبها يتحدث في أمر التشاريف والخلع، وما معها، وهي وظيفة يوليها النائب بتوقيع كريم[2].

8- نظر البيمارستان : وهي وظيفة مضافة إلى نائب حمص، ولكن النائب يفوض التحدث فيها لمن يختاره من أرباب الأقلام.

10- نظر خزائن السلاح : وموضوعه التحدث عن كل ما يستعمل من السلاح السلطاني، ويولى صاحب هذه الوظيفة بتوقيع كريم عن النائب.

11- نظر البيوت : وهو نظر جليل يشارك صاحبه الاستدار فيما يتحدث به، وهذه الوظيفة اسم لغير مسمى، لعدم وجود البيوت السلطانية بحمص المحروسة.

12- نظر بيت المال : ومهمته حمل حمول المملكة إلى بيت المال، والتصرف فيه تارة قبضاً وصرفاً، وتارة بالتسويغ محضراً وصرفاً، ولا يلي هذه الوظيفة إلا ذوو العدالة البارزة من أهل العلم والديانة.

13- نظر ديوان الأسرى : وهو التحدث في الأوقاف التي تفدى بها الأسرى.

14- نظر الأسواق : وهو التحدث عن سوق الرقيق والخيل ونحوها.

15- نظر مراكز البريد : ومتوليها يكون رفيقاً لأمير أمور البريد.

كما أن هناك وظائف أخرى تسمى وظائف أهل الصناعات كرئاسة الطب ورئاسة الكحالين، ورئاسة الجراحين (الجرائحية)[3].

---

(1) القلقشندي: صبح الأعشى - ج4 - ص199-200. / العلبي: دمشق بين عصر المماليك والعثمانيين - ص320-321.

(2) دهمان: المرجع السابق - ص150.

(3) القلقشندي: المصدر السابق - ج4 - ص197-198. / العلبي: المرجع السابق - ص321.

ثالثاً : الوظائف الدينية :

آ - الوظائف الإسلامية وهي :

1 - قضاة القضاة : وهي أرفع الوظائف الدينية قدراً وأجلها رتبة.

وموضوعها: التحدث في الأحكام الشرعية وتنفيذ قضاياها، والقيام بالأوامر الشرعية والفصل بين الخصوم. وفي حمص أربع قضاة من المذاهب الأربعة أعلاهم الشافعي، وهو المتحدث عن الموازع الحكمية وأكثر الوظائف، ويليه في الرتبة الحنفي، ثم المالكي، ثم الحنبلي. ويعد القاضي محمد بن خالد الحمصي الحنبلي أول قاض للحنابلة في حمص عُين في بداية القرن التاسع الهجري / الخامس عشر الميلادي. وكان القضاة في حمص يعينون من قبل قضاة دمشق إلى سنة 743هـ/ 1342م حيث أصبح تعيين القضاة بمرسوم سلطاني من القاهرة بفضل جهود قاضي حمص شهاب الدين البارزي[(1)].

ويظهر أن القضاء كان يقع تحت نفوذ بعض نواب السلطنة في حمص فإذا لم يستجب القاضي لرغباتهم يتعرض للضرب والإهانة، ومثال ذلك ما حدث مع القاضي عثمان بن محمد الحموي الذي ضرب من قبل نائب السلطان أرقطاي[(2)].

وكان بعض القضاة في حمص يدرسون في مدرستيها النورية والمجاهدية. وتولى قضاء حمص قضاة لا تتوفر فيهم الصفات الواجب توافرها فيمن يتولى هذا المنصب كالمعرفة بالفقه، والصرامة، والشدة في إصدار الأحكام، وعدم التقصير، فقد عين القاضي شرف الدين قاسم بن سعيد الحسباني رغم أن معرفته قليلة بالفقه، بالإضافة إلى تساهله في إصدار الأحكام[(3)].

---

(1) ابن كثير: البداية 208/14، ابن الشحنة: الدر المنتخب ص 274.

(2) الصفدي: أعيان 114/2، ابن حبيب: تذكرة النبيه 199/2.

(3) ابن حجر: أنباء 58/8، السخاوي: الضوء اللامع 180/6.

وعين محمد بن عباس السلطي سنة 791هـ/ 1389م[1] ومسعود بن شعبان الحساني سنة 791هـ/ 1389م رغم جهلهما وأخذهما الرشوة[2].

وقد استحوذ البعض على تولي القضاء في حمص لمرتين متتاليتين نذكر منهم:

1- قطب الدين محمد بن عبد المحسن السبكي الأولى سنة 747هـ/ 1346م، والثانية لا نعرف متى تم تعيينه فيها[3].

2- محمد بن عباس السلطي الأولى سنة 791هـ/ 1489م، والثانية عزل منها سنة 800هـ/ 1398م[4].

وكذلك الحال حفلت المصادر بذكر أسماء لبعض الحمصيين الذين تولوا القضاء في مدينتهم نذكر منهم من الشافعية:

1- أحمد بن أحمد الحمصي في النصف الأول من القرن التاسع الهجري / الخامس عشر الميلادي[5] والشهاب أحمد بن محمد الحمصي سنة 809هـ/ 1406م[6].

2- ومحمد بن محمد بن إبراهيم الحمصي في النصف الثاني من القرن التاسع الهجري / الخامس عشر الميلادي[7].

---

(1) شرف الدين موسى بن يوسف الأنصاري: نزهة الخاطر وبهجة الناظر، 2 ق، تحقيق عدنان محمد إبراهيم، منشورات وزارة الثقافة في الجمهورية العربية السورية، دمشق 1991م ق1 ص 104، 105.

(2) ابن قاضي شهبة: تاريخ 274/3، ابن حجر: أنباء 48/6.

(3) أبو المحاسن محمد بن علي بن الحسن الحسيني: ذيل العبر في خبر من غبر، المنشور في الجزء الرابع من كتاب العبر للذهبي، حققه هاجر محمد السعيد بن بسيوني زغلول، دار الكتب العلمية بيروت 1985م، ص 200، 201.

(4) ابن حجر: أنباء 265/5، 266، السخاوي: الضوء اللامع 277/7.

(5) ابن حجر: أنباء 121/7.

(6) الخوري: تاريخ حمص ق2، ص 281، 282.

(7) السخاوي: الضوء اللامع 299/8، 300.

3- ومحمد بن أحمد بن محمد الحمصي في النصف الثاني من القرن التاسع الهجري / الخامس عشر الميلادي[1].

ومن الأحناف:

1- محمد بن عبد الرحمن بن محمد الحمصي في النصف الأول من القرن التاسع الهجري / الخامس عشر الميلادي[2].

ومن الحنابلة:

1- محمد بن خالد بن الشرف الحمصي الذي توفي وهو يشغل الوظيفة بحمص سنة 830هـ/ 1427م.

ولم يدوم منصب القضاء لأي قاضي فكان العزل نصيب مجموعة من القضاة نذكر من هؤلاء القضاة:

1- قطب الدين محمد بن عبد المحسن السبكي سنة 747 - 763هـ/ 1346 - 1361م[3].

2- محمد بن محمد بن إبراهيم الحمصي سنة 842ه- 857هـ/1438- 1453م[4].

واشتغل بالتأليف والنظم ثلاثة قضاة هم: محمد بن أحمد بن محمد الوائلي (728 - 732هـ/ 1328 - 1332م) الذي ألف زوائد الحاوي الصغير على المنهاج، ومختصر الروضة وشرح المنهاج من الشرح الصغير للرافعي[5]،

---

(1) شمس الدين محمد بن عبد الرحمن السخاوي: التبر المسبوك في ذيل السلوك، مكتبة الكليات الأزهرية، القاهرة، بدون تاريخ ص 61، 199، 200.

(2) السخاوي: الضوء اللامع 39/8.

(3) الحسيني: ذيل العبر 200/4، 201. وللمزيد حول السبكيين ودورهم راجع (الحزوري):حسام الدين (دمشق والسبكيين) دار الحافظ عمان-2013

(4) السخاوي: الضوء اللامع 299/8، 300.

(5) ابن كثير: البداية 165/14.

وضياء الدين أبو الحسن علي بن سليم بن ربيعة في النصف الأول من القرن الثامن الهجري / الرابع عشر الميلادي الذي نظم التنبيه في ستة عشر ألف بيت[1]، وابن الهكاري في النصف الثاني من القرن الثامن الهجري / الرابع عشر الميلادي، وألف كتاب مختصر ميدان الفرسان ويقع في ثلاثة مجلدات[2]، وانتدب اثنان من قضاة حمص لمرافقة قافلة الحج الشامي هما محمد بن أبي بكر بن النقيب سنة 718هـ/ 1319م[3].

ومحمد بن أحمد بن سحمان الوائلي سنة (728-732هـ/ 1328-1322م)[4].

2 - **قضاة العسكر**: وموضوعه أن يحضر قاضي العسكر بدار العدل مع القضاة الأربعة، ويسافر مع النائب إذا سافر، وقضاة العسكر بحمص: شافعي، وحنفي، وليس فيها مالكي ولا حنبلي. وجلوسهم في دار العدل دون القضاة الأربعة متقدمي الذكر.

3 - **إفتاء دار العدل**: وبها مفتيان: شافعي وحنفي لا غير. وقد تولاها في نيابة حمص محمود بن محمد بن أحمد بن محمد بن شرف الدين الشريشي في النصف الثاني من القرن الثامن الهجري / الرابع عشر الميلادي[5]، وإبراهيم برهان الدين النقيراوية الحمصي (ت841هـ/1437م) الذي تولاها مضافة إلى التدريس في النصف الأول من القرن التاسع الهجري / الخامس عشر الميلادي[6].

---

(1) ابن حبيب: تذكرة النبيه 2/212.
(2) الحنبلي: شذرات الذهب 6/292.
(3) الذهبي: العبر 4/79،
(4) الطراونة: المرجع السابق ص 57-58
(5) ابن حجر: الدرر 5/103.
(6) الخوري: تاريخ حمص 2/273.

4 - **وكالة بيت المال** : مهمتها مبيعات بيت المال ومشترياته، من أراضٍ ودور وغير ذلك، والمعاقدة على ذلك وما يجري هذا المجرى، وولايتها من قبل النائب، فقد تولاها عماد الدين صالح بن العربي الدمشقي الذي استمر في ولايتها من سنة (658هـ/ 1260م - 667هـ/ 1269م)[1].

5 - **نقابة الأشراف** : موضوعها التحدث على ولد علي بن أبي طالب كرم الله وجهه من فاطمة بنت رسول الله (ص)، وهم المراد بالأشراف في الفحص عن أنسابهم، والتحدث عن أقاربهم، والأخذ على يدي المعتدي عليهم، ونحو ذلك. وولايتها من قبل النائب.

6 - **مشيخة الشيوخ** : موضوعها التحدث عن جميع الخوانق والفقراء الصوفية في حمص وأعمالها، وولايتها من النائب.

7 - **الحسبة** : ومهمتها التحدث عن الأمر والنهي، والتحدث عن أهل المعايش والصنائع، والأخذ على يد الغاش في معيشته وصناعته، وإليه ولاية نواب الحسبة بجميع أعمال حمص، وهي كدوائر البلديات في عصرنا.

8 - **الخطابات المضافة إلى نظر النائب** : فيولى فيها بتواقيعه، وعلى من يتولاها أن يرف صوته أثناء الآذان، ويدعو للسلطان بالهداية والصلاح، وأن لا يطيل فيها، وأن لا يختار من الألفاظ ما يصعب فهمه، ولا يتكلف السجع[2].

ومن الخطباء في حمص:

1- الشمس محمد بن موسى بن عبد الله بن سليمان السبكي الحمصي[3].

2- شمس الدين محمد بن يوسف التدمري الذي تولاها مضافة إلى التدريس والإفتاء في النصف الأول من القرن الثامن الهجري / الرابع عشر الميلادي[4].

---

(1) الصقاعي: تالي ص 112.

(2) السبكي: معيد النعم ص 112.

(3) السخاوي: الضوء اللامع 206/11.

(4) أبو الفداء: المختصر 115/4.

3- قطب الدين محمد بن عبد المحسن بن حمدان السبكي الشافعي الذي تولاها مضافة للقضاء والتدريس مرتين الأولى سنة 747 - 762هـ/1346 -1361م، والثانية بقي يباشرها إلى أن توفي سنة 774هـ/1373م[1].

4- محمد بن محمد بن أحمد بن عبد المحسن بن حمدان السبكي ثم الحمصي في القرن التاسع الهجري / الخامس عشر الميلادي[2]، وأحمد بن حسين في القرن نفسه[3].

9- التداريس : على اختلاف أنواعها من الفقه والحديث والتفسير والنحو واللغة والقراءات والطب، وتختلف باختلاف من يتولاها في الرفقة، وولايتها عن النائب[4].

ب - وظائف رؤساء أهل الذمة :

وهؤلاء الرؤساء تنتخبهم طائفتهم أولاً، ثم يوليهم السلطان بنفسه أو بواسطة نائب حمص[5].

4 - وظائف أرباب الصناعات :

ومن هذه الوظائف التي وجدت في العصر المملوكي كانت هناك:

رئاسة الطب ورئاسة الكحالين، ورئاسة الجراحين، ويكلف رؤساؤها بتوقيع كريم عن النائب. وأما مهتارية البيوت، فتخص نائب السلطنة لكونه يقوم مقام السلطة[6].

---

(1) الحسيني: ذيل العبر 200/4، 201.
(2) السخاوي: الضوء اللامع 153/5: 155.
(3) السخاوي: الضوء اللامع 139/6، 140.
(4) القلشندي: المصدر السابق - ج4 - ص199-200.
(5) القلقشندي: المصدر نفسه - ج4 - ص201.
(6) القلقشندي: المصدر نفسه - ج4 - ص200

المناور :

عرفها العمري بأنها إشعال النيران في الليل، وإثارة الدخان في النهار للإعلام بحركات المغول[1]، ويرى أحد الباحثين أن أهميتها من:" خلال سرعة وصول الأخبار عن طريقها، فإذا أرسل الخبر من الفرات صباحاً وصل القاهرة عشاءً[2] وتختار مواقع المناور على قمم الجبال أو فوق أبنية عالية، وكان في كل منارة موظفون يشرفون عليها ويتقاضون رواتب مقررة، وقد أرصد في كل منور النظارة لرؤية ما وراءهم وإيراء ما أمامهم ولهم على ذلك جوامك مقررة"[3].

فقد وجدت المناور في نيابة حمص في منظرة تدمر، ومنظرة القريتين وتشكل مناور نيابة حمص حلقة وصل بين المناور الواقعة على نهر الفرات، ومدينة دمشق، وذلك على النحو التالي: من القناطر - الرحبة - كواثل - قباقب - جفير أسد الدين - السخنة - منظرة أرك - البويب - منظرة تدمر - البيضا - الحبر - جليجل - العطنة - ثنية العقاب - مأذنة العروس - برزه - دمشق - جبال المانع... وتتصل بسلسلة مناور إلى قلعة الجبل في القاهرة[4].

ج - وكالة بيت المال :

وموضوعها التحدث فيما يتعلق بمبيعات بيت المال ومشترياته من أرض وعقار، ولا يليها إلا أهل العلم والديانة[5].

***

---

(1) ابن فضل الله العمري: التعريف 287، القلقشندي: صبح الأعشى 445/14

(2) القلقشندي: صبح الأعشى 447/14.

(3) ابن فضل الله العمري: التعريف 287، والجوامك: جمع جامكية واللفظ تعريب للكلمة الفارسية جامكي وهو مركب من (جامهــ) بمعنى قيمة ومن (كي) بمعنى أداة النسبة ويكون المعنى الكلي روتب خدام الدولة. الطراونة: المرجع السابق ص 54

(4) ابن فضل الله العمري: التعريف 287 - 284، القلقشندي: صبح الأعشى 445/14، 446.

(5) السبكي: معيد النعم ص 65، القلقشندي: صبح الأعشى 37/4، 192.

الأوضاع السياسية والعسكرية
في نيابة حمص خلال عصر سلاطين المماليك

كان لسقوط حَلَب بيَد الـمَغول أثرُه البالغ نفسيّاً على بقيَّة حُكام المدن الشاميَّة، فسارَعَ بعضهم إلى خَطْب وُدِّ الـمَغول وقائدِهم هولاكو، ومنهم الأشرف موسى[1] أمير تل باشر الذي بادَرَ بإعلان خضوعه لهم، فردَّ هولاكو عليه حِمْص التي أَخَذها منه الناصرُ يوسف، وبعد تملُّك هولاكو لدمشق يُعيِّنه نائباً في دمشق والشام[2]، وكذلك أسرَعَ الناصر يوسف صاحب حَلَب ودمشق إلى إعلان خضوعه للمغول[3]، كما خضع له الملكُ السعيد ابن الملك العزيز عثمان بن العادل أمير الصُّبَيبة[4]، وخضع له المغيث عمر أمير الكرك حيث

(1) الأشرف موسى: الـمَلِك الأشرف مُظفَّر الدين موسى ابن الملك المنصور إبراهيم بن الملك المجاهد أسد الدين شيركوه بن محمد ابن الملك المنصور أسد الدين شيركوه الكبير، ملَكِ حِمْص بعد وفاة أبيه، وطالت مدته بها ووقع له أمور، وكان فيه مُداراة للمغول واستمرَّ على ذلك إلى أن تُوفي بحِمْص سنة (662هـ/1263م). (ابن تغري بردي. النجوم الزاهرة. ج7، ص217).

(2) ابن العميد. أخبار الأيوبيين. ص51-52؛ اليونيني. ذيل مرآة الزمان. ج1، ص377؛ أبو الفداء. المختصر في أخبار البشر. ج3، ص202-203؛ المقريزي. السلوك. ج1، 511، 513.

(3) أبو الفداء. المختصر في أخبار البشر. ج3، ص197-198.

(4) الصُّبَيبة: تقع بين دمشق وبيسان على طريق الشقيف وصفد. (الدوادار المنصوري. التحفة الملوكية.ص65)؛ وحديثاً: لم أعثر على معلومات جغرافية عنها.

راسله في الباطن[1]، وخضعتْ له أيضاً حماة[2]، وبـذلك يكـون معظـمُ حُكـام المسلمين في الشرق الإسلاميِّ قد أحنَوْا جميعاً رؤوسَهم أمام الــمَغول؛ خوفـاً من بطشهم ووحشيَّتهم[3]، وكان ذلك السلوكُ الشائن الذي سَلَكه ملوك الأيوبيِّين في الشَّام جاء بمثابة فَصْلِ الخِتام لدولتهم، وإعلاناً لتنازُلهم عن مُلكهم في الشَّام ليَستوليَ عليه إما الـمَغولُ وإما المماليك[4].

تعد معركة عين جالوت الـتي حـدثت في 26 رمـضان 658هــ/ 3 أيلـول 1260بداية تحول خطير في تاريخ الشرق، فقد أنقذت مـصر والـشام مـن خطـر المغول الكاسح، وقد تنبه بعض المـؤرخين الأوروبـيين لهـذا الأمـر، فـاعترفوا بأهمية المعركة وذكروا أنها لم تنقذ الشام ومصر فحـسب، بـل خلّـصت العـالم الأوروبي من شر لم يكن لأحد من ملوك أوروبا وقتئذ طاقة في دفعه[5].

كان مِن أبرز نتائج الهزيمة الساحقة التي مُنِي بها الجيش الـمغوليُّ في معركـة عين جالوت سنة (658هـ/1260م) طردُهم من بلاد الشَّام، وإجبـارهم علـى عبـور الفرات، إلا أنهم لم ينسَوْا أو يَتناسوا تلك الهزيمة، بل بذلوا الـمُحاولات الواحـدة تلو الأخرى عَبْر الفُرات وهضبة الأناضول في محاولاتٍ منهم للعودة إلى بلاد الشَّام مرةً أخرى متى ما حدَث خللٌ في صُفُوف الـمماليك.

وقد ساهم جيش نيابة حمص الأيوبية مع جيش حلب بقيادة الملك الأشرف موسى في محاربة المغول الذين اجتـاحوا بـلاد الـشام في أعقـاب معركـة عـين

---

(1) ابن أيبك الدواداري. كنز الدرر. ج8، ص47؛ أبـو الفـداء. المختـصر في أخبـار البـشر. ج3، ص304.

(2) ابن أيبك الدواداري. كنز الدرر. ج8، ص46؛ ابـن العميـد. أخبـار الأيـوبيين. ص51؛ ابـن العبري. تاريخ مختصر الدول. ص279؛ أبو الفداء. المختصر في أخبار البشر. ج3، ص201.

(3) سعيد عبد الفتاح عاشور. الحركة الصليبيَّة. ج2، ص1014.

(4) Grousset: Hist des Croisades. III، p 586-587.

(5) براون: إدوارد جوانفيل (تاريخ الأدب في إيران من الفردوس إلى الـسعدي) تـر: إبـراهيم الشواربي- القاهرة-1954- 3/43-44

جالوت، ومع حدوث تطور خطير بقيام الملك الأشرف صاحب حمص وغيره قد بالانضمام للمغول، ولعل سبب ذلك أن الملك الناصر قد اخذ هذه المدينة منه في سنة (646هـ) وعوضه مكانها تل باشر، وهذا الإجراء يعد بمثابة تحد لسلطته فضلاً عن التناحر الأيوبي - المملوكي على أشده باعتبار أن المماليك وصلوا إلى الحكم بطريقة غير شرعية (من وجهة نظر الأيوبيين) فكانت ردة الفعل أن قام الملك الأشرف بالانضمام إلى صفوف المغول وقدّم الطاعة إلى هولاكو.

ولم يهدأ الملك المظفر قطز (657 -658 هـ) حتى عمل على تمزيق هذا التحالف، فقد أرسل رسالة إلى الملك الأشرف والي حمص والملك السعيد بن الملك العزيز والي الصبيبة وبانياس يستميلهم إليه للعمل ضد المغول، فكان رد الملك الأشرف متعاوناً ووعده بخذلان المغول عند اللقاء، وأما الملك السعيد فكان رده سلبياً وسبّ رسوله[1].

ومن خلال إقامة هولاكو في حلب عمل على كسب ود الملك الأشرف وأعاد له حمص، فقد وصل للملك الأشرف موسى منه مرسوماً يقضي بأن يكون نائب السلطة بدمشق والشام، حتى أن كتبغا امتثل لأمره، وصارت الدواوين تحضر إليه[2]. وتم حشد شعبي كبير في محاولة للتصدي لهذا الهجوم إلا أن مدينة حلب سقطت في أيدي الأعداء ثم جاء دور مدينة دمشق التي قام حاكمها الملك الناصر صلاح الدين الثاني[3] (ت658هـ/1259م) بمحاولة

(1) النويري: نهاية الأرب 273/29.

(2) المقريزي: السلوك 142/1.

(3) هو الملك الناصر أبو المظفر صلاح الدين يوسف ابن الملك العزيز محمد بن الملك الظاهر غازي ابن الملك الفاتح صلاح الدين الكردي الدويني الأيوبي، المعروف بصلاح الدين الثاني، صاحب دمشق وحلب. كان ملكاً كريماً كثير المعروف، حسن الأخلاق، مُحبّباً إلى الرعية، يؤثر العدل ويكره الظلم. قتله هولاكو بتبريز - مع جملة من الأمراء والأعيان ممن كان معه - وذلك في شوال سنة 658هـ/1259م وكان له من العُمر 32 سنة. انظر ترجمته في: قطب الدين اليونيني: ذيل مرآة الزمان، (231/1). ابن كثير: البداية والنهاية، (209/13).

جمع مزيد من القوات، فانضم إليه أعداد كبيرة من المتطوعة والغرباء[1]، وزاد عدد الذين شاركوا في الدفاع عن المنطقة الشامية أمام الزحف المغولي ثم تراجعوا إلى حمص سنة 660هـ/1262م عن مائتي فارس بعائلتهم[2]، وقد قُتل خلال هذا التراجع عدداً كبيراً من السوقة والعوام[3]، ولكن بعد وصول السلطان سيف الدين قطز إلى السلطة سنة 657هـ/1259م وانتصاره على المغول في عين جالوت 658هـ/1260م دخل دمشق دخول الظافرين وبذلك دخلت دمشق تحت الحكم المملوكي المباشر لأول مرة، وعهد الملك المظفر للأمير علم الدين سنجر الحلبي بنيابة السلطة فيها، ليكون أول نائب للمماليك في دمشق[4].

وعلى الرغم من ضم بلاد الشام إلى حكم المماليك فإن بلاد الشام ظلت معقلاً للصليبيين إلى أن تمكن الملك الأشرف خليل بن قلاوون من القضاء عليهم وتحرير عكا سنة 692هـ/1292م.

أما الممالك الأيوبية في الكرك وحمص وحماة، فقد أخضعت أيضاً للحكم المملوكي المباشر، فاعتقل المغيث صاحب الكرك في سنة 661هـ/1263م بتهمة التعاون مع التتار، وضمت الكرك للدولة المملوكية[5]، ثم ضمت حمص في العام نفسه بعد وفاة ملكها الأشرف موسى، أما حماة فقد بقيت في يد البيت الأيوبي حتى سنة 745هـ/1341م[6]. حيث عزل الملك الأفضل بن أبي الفداء، وعين طقز دمر الحموي نائباً للسلطة بها.

---

(1) ابن كثير: البداية والنهاية، (211/13).

(2) ابن واصل: مفرج الكروب، (406/2).

(3) النويري: نهاية الأرب في فنون الأدب، (34/31).

(4) أبو الفداء: المختصر في أخبار البشر) 316/2.ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة -82/7

(5) أبو الفداء: المصدر السابق ج2 ص327-328 / المقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك- 1 /550.

(6) حمادة: الوثائق السياسية والإدارية للعصر المملوكي ص35 / زعرور: الحياة الاجتماعية -ص80.

وتحدثنا المصادر أن الأمور لم تدم طويلاً للمغول، إذ أن المماليك انتصروا عليهم وتم طردهم من بلاد الشام.و فيها أيضاً أن الأمير بيبرس جهزّ جيشاً لتتبع فلول المغول في حمص، فقتل منهم وأسر آخرين ثم عاد إلى دمشق ثم إن طائفة من المغول جاءت من طرف هولاكو مدداً لكتبغا، فلما وصلت إلى حمص وجدت أن جيشه قد انهزم على أسوأ حال "فكانوا للسيوف غنيمة وكانت عدتهم ألفين"[1].

معركة حمص الكبرى (659هـ/ 1261م)

ما حدث في أواخر سنة (658هـ/1260م) غَداة اغتِيال السلطان المظفر قطز، حيث انتَهَزوا تلك الوفاة وما ترتَّب عليها من انشقاق في الجبهة الإسلاميَّة، فشنُّوا هجوماً على مدينة البِيرَة، التي كانوا قبل ذلك قد هدموا أسوارها وأبراج قلعتها، وأضحت مدينةً مكشوفة، فهزموا من كان بها من المقاتلين المسلمين، ومنها اتَّجهوا إلى حلب في (26 ذي الحجة 658هـ/2 نوفمبر 1260م) واقتحموا أسوارها، واستولوا عليها[2]، وقد تصدَّى لهم المسلمون بقيادة حسام الدين لاجين، الذي وظَّف كثيراً مِن أساليب الخدع الحربية ضد الكثافة المَغوليَّة، وقد تمثَّل ذلك في التظاهر بالهزيمة والتراجع إلى الخلف، واستِدراج المَغول إلى مكانٍ أفضل ومناسب لمنازلتهم، فتَراجَع إلى حماة ومنها إلى حِمْص؛ لتوسيع الرُّقعة على المَغول، متظاهراً بالضعف أمامهم، وحَشَد خلالها أعداداً كبيرة من الجيوش الإسلاميَّة[3]، كما مكَّنه هذا التراجعُ مِن إفساح المجال لوصول عددٍ مِن الأمراء على رأس قواتهم، منهم عسكر حِمْص، وعسكر حماة، وكان لهذا الحشد أثرُه البالغ في نجاح هذا القائد في إعادة تنظيم جيشه، ورَفْع الرُّوح المعنويَّة بين صفوفهم.

---

(1) المقريزي: السلوك 144/1

(2) ابن أيبك الدواداري. كنز الدرر. ج8، ص65؛ اليونيني. ذيل مرآة الزمان. 2/ 3-4؛ المقريزي. السلوك. 1/ 539؛ ابن تغري بردي. النجوم الزاهرة. ج7، ص104

(3) الغامدي. جهاد المماليك ضد المغول والصليبيين. ص129.

وعقب مقتل السلطان قطز في (5 ذي القعدة سنة 659هـ/ 26 تـشرين أول 1261م) أغار المغول على مدن الشام، و من بين المدن التي أغاروا عليها كانـت مدينة حمص لما تمتلكه هذه المدينة من موقع جغرافي له ثقـل كـبير علـى نيابـة دمشق، فتجمع المغول الذين كانوا بحران وغيرها من بلاد الجزيرة، ومن أنضم إليهم بعد معركة عين جالوت من المغول المنهزمين فأغاروا على حلـب وحمـاة وكان عددهم (6000) مقاتل، وعندما اقتربوا من حمص خـرج إلـيهم صـاحبها الأشرف موسى بعساكره وعسكر حلب بقيادة الأمير حسام الدين وعسكر حمـاة بقيادة الملك المنصور، فضلاً عن مشاركة القبائل العربية بقيادة زامـل بـن علـي أمير العرب في عدة من العربان[1]،

وبمجرد وصول الـمغول إلى حمص في (محرم 659هــ/ ديـسمبر 1260م)، اجتمعت هذه القوات بظاهر حمص عند قبر الصحابي الجليل خالد بـن الوليـد، وهزمهم في محرم سنة 659هـ/ كانون أول 1260م، وقتل مـن المغـول أعـداداً كبيرة ولاذ قائدهم (بيدرا) بالفرار في نفر يـسير مـن قواتـه، ويـذكر أنـه لم مـن المسلمين سوى رجل واحد، هذه الرواية وإن كان فيها مبالغة فإنها تشير إلى قلة عدد شهداء المسلمين، ويرجع ذلك إلى دقة التنظيم والخطة العسكرية المحكمة من قبل الأمير بيبرس.

فوصلت أخبار النصر إلى مقر السلطنة بمصر واستبشر الناس خيراً لهذه البشارة[2]. وبذلك استطاع صاحب حمص تشتيت شمل المغول حيث التحـق من نجا منهم بباقي جماعتهم الذين كانوا نازلين قرب سلمية وبعـدها رحلـوا إلى أفامية[3]. دارتْ بين الطرفين معركة مُنِيَ الـمَغول فيها بهزيمةٍ قاسيةٍ، رغم كثرة عددهم وقلة عدد الـمسلمين، وأخَذَهم الـمـسلمون بـين قتـل وأسـر،

---

(1) ابن عبد الظاهر: الألطاف الخفية ص97

(2) المقريزي: السلوك 147/1

(3) أبو شامة: الذيل ص 211، 212، ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر ص 97، السيد البـاز العريني: المغول، دار النهضة العربية للطباعة والنشر بيروت 1986م ص 265، 266.

وترتّب على هذه الـمعركة تحرير حلب والبيرة، وعودتُها إلى حـوزة الدولـة الـمملوكيَّة[1]، ومما ساعد على هذا النـصر اهتِمـام بيـبرس نفـسه بالعـشائر العربيَّة الـمقيمة على الحـدود الفراتيَّـة مثـل: عـرَب خَفاجَـة[2]، ففـي سـنة (659هـ/1260م) قام بتجنيدهم، وحثِّهم علـى قتـال الــمَغول، وتزويـدهم بالأموال والعتاد والهدايا والخلع[3]، وقرَّبهم إليه وأكرمهم "ووصل أرزاقهم، وسلم لهم بخفر البلاد، وألزمهم حفظهـا إلى حـدود العـراق"[4]، وجعلـهم عيوناً له، لرصد تحركات الـمَغول في هذه الـمناطق؛ الأمر الذي كان له الأثر البالغ في التصدِّي للمغول في هذه السنة وغيرها مِن السنوات[5]، وهذا يـدل على أهمية دَورهم، ومدى تأثيرهم في حفظ الطرق، خاصـة أن لهـم درايـة بالصحراء ودروبها الآمنة[6].

---

(1) أبو شامة. الذيل على الروضتين. ص323؛ ابـن عبـد الظـاهر. الـروض الزاهـر. ص96-97؛ اليونيني. ذيل مرآة الزمان. ج2، ص4-7؛ أبو الفداء. المختـصر في أخبـار البـشر. ج3، ص209-210؛ النويري. نهاية الأرب. ج30، ص22-23؛ المقريـزي. الـسلوك. ج1، ص525؛ ابن تغري بردي. النجوم الزاهرة. ج7، ص104-107.

(2) عرب خفاجة: أحدُ الأقسام في قبيلة زُبيد بالعراق، وقبيلةُ زُبيد قبيلةٌ عربية واسعة الانتِشار، وكبيرة العدد، وتُغطي أراضيها كلَّ المنطقة الواقعة في بلاد الرافدين من مدينة بغداد حتى المسيب إلى شمال أهوار بغيلة والدغارة في الجنـوب. (مجموعـة مـن البـاحثين. معجـم البلدان والقبائل في شبه الجزيرة العربية والعراق وجنوبي الأردن وسيناء. ترجمة وتعليـق: عبد الله بـن ناصـر الـوليعي. الريـاض: دارة الملـك عبـد العزيـز، 1435هــ/ 2014م، 238/3؛ 4/ 205).

(3) المقريزي. السلوك. 529/1، 537، 539.

(4) ابن عبد الظاهر. الروض الزاهر. ص119؛ النويري. نهاية لأرب. ج3/ 26.

(5) عن دَور زعماء هذه العشائر العربيَّة، وعلى رأسهم الأمير عيـسى بـن مهنـا انظـر: حامـد غنيم. الجبهـة الإسـلامية. ج1، ص468؛ عبـد الله بـن عبـد الـرحمن الربيعـي. مواقـف أعـراب الـشَّام مـن الغـزو الـصليبي والتتـري. مجلـة الدرعيـة، ع: 14، ربيـع الآخـر 1422هـ/يوليو 2001م، ص222.

(6) يوسف بن نصرة الله محمد. إستراتيجية الظاهر بيبرس في مقاومة الاستعمار الصليبي. ص84.

وتحدثت بعض المصادر عن هذه المعركة وعلقت عليها حيث ذكر اليافعي قائلاً "وحمل المسلمون حملة صادقة وكان النصر والحمد لله ووضعوا السيف في الكفار قتلاً حتى أبادوا أكثرهم" في حين شدد العييني على أهميتها العسكرية وأعجب بها وبيّن أهميتها بقوله: "و كانت أعظم من كسرة عين جالوت بكثير لكثرة التتار وقلة المسلمين"[1].

وتكرَّرت محاولات الـمَغول للسيطرة على الـبِيرَة سنة (663هـ/1264م)، وسنة (665هـ/1266م)[2]، إلا أنَّ الـمُحاولتين باءَتَا بالفشل، وذلك يعود إلى الدَّور الكبير الذي بذَلَهُ سكان هذه الـمدينة في الدفاع عنها، جرَّاء ما لاقوه من اهتِمامٍ وتكريم مِن قِبل السلطان الظاهر بيبرس، الذي طالما أغدَقَ الخِلَع على أهل البيرة مِن أمير ومأمور وجندي وعاميٍّ وحتى الحراس، فضلاً عما وُزِّع عليهم من المال[3]، الأمر الذي كان له الأثرُ البالغ في شَحْذ الهِمم، وفي رفع معنويَّات عامَّة الناس وخاصتَّهم؛ لـمُواصلة نضالهم، وتصدِّيهم لأي عدوان مغوليٍّ على مدينتهم.

وزيادة في حثِّهم على حماية هذه الـمدينة وما جاورها، فقد أمر في سنة (662هـ/1263م) بعمارة القلاع التي خرَّبها الـمَغول من حمص إلى حوران، وزوَّدها بكل ما تحتاج إليه من مؤن وذخيرة، وأقام بذلك خطّاً حصيناً من شرق الأردن إلى نهر العاصي، إضافة إلى أبراج الـمراقبة، كما أمر في سنة (663هـ/1264م) بتجديد بناء قلاع الـمدن الـمطلة على الفرات، وفي مقدمتها قلعة البيرة، وزودها بما يحتاج إليه أهلها، تحسباً لأي حصار قد تتعرض له مستقبلاً، ولتظلَّ عصيَّة على أي هجوم يقوم به الـمغول[4]، ولا شك أن هذا الإجراء قد أدى إلى رَفْع معنويَّات أهل البيرة من ناحية، وأصاب الـمَغول بخيبة أملٍ فيما لو فكَّروا في مهاجمتها من ناحيةٍ أخرى.

---

(1) اليافعي: مرآة الزمان، 2/197، العييني: عقد الجمان، 1/68

(2) ابن أيبك الدواداري. كنز الدرر. 8/107؛ ابن عبد الظاهر. الروض الزاهر. ص221، 280؛ الدوادار المنصوري. مختار الأخبار. ص95؛ اليونيني. ذيل مرآة الزمان. 2/318. 2/ 361؛ الذهبي. العبر. 3/ 307

(3) ابن عبد الظاهر. الروض الزاهر. ص227؛ المقريزي. السلوك. 2/18.

(4) العبادي. في تاريخ الأيوبيين والمماليك. ص177-179.

وبعد حوالي عام اشترك الملك الأشرف موسى وعساكر حمص مع بقية العساكر السلطانية التي كانت في حلب وقوات من حلب وحماة في الإغارة على إنطاكية سنة 660هـ/ 1262م، واستولوا على مينائها، وأحرقوا السفن الموجودة فيه، ونتيجة لفتح أنطاكية خلع السلطان بيبرس على صاحب حمص الملك الأشرف وأطلق له وزاده تل باشر[1].

كما قامت قبيلة خفاجة العربيَّة بدور مماثِل عندما هاجم الـمَغول حِمْص سنة (662هـ/1263م) بقيادة بيدرا Piedra[2]؛ حيث قامت بدور جاسوسي بارز في نقل أخبار ومعلومات عن الـمغول إلى السلطان، إضافةً إلى شنِّها هجوماً وغارات خاطفة على الـمَغول في العراق حتى وصلوا بالقرب من بغداد والبصرة، وهزموا جماعة منهم، فأكرمهم السلطان بيبرس[3]، وجعلهم جنوداً مجندة، وعيوناً مدربة، في وحدة الكشَّافة والطليعة[4]، وزاد على ذلك بأن منحهم الامتِيازات والهبات والإقطاعات، ليكونوا حصناً منيعاً للتصدي لأي هجوم مغولي جديد عبر نهر الفرات.

بالإضافة إلى ذلك نشير إلى دور عساكر نيابة حمص مع عساكر حماة وحلب في محاربة الملك الأرمني هيثوم بن قسطنطين[5] سنة 662هـ/ 1264م، وتمكنوا من قتل ثلاثين شخصاً من جيشه[6].

---

(1) ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر ص 123، ابن الوردي: تتمة المختصر 2/205، ابن خلدون: العبر 5/439، العيني: عقد لجمان 1/233، كرد علي: خطط الشام 2/112.

(2) ابن كثير. البداية والنهاية. ج15، ص398.

(3) ابن عبد الظاهر. الروض الزاهر. ص194. المقريزي. السلوك. ج2، ص7.

(4) محمود السيد. تاريخ عرب الشَّام في العصر المملوكي. مصر - الإسكندرية: مؤسسة شباب الجامعة، 1417هـ/1997م، ص144.

(5) هيثوم بن قسطنطين ويكتب بهيتون وهيثون / ملك أرمينا الصغري حكم من سنة 1224 - 12609م اتبع سياسة تقوم على الصداقة والتحالف مع المغول.

(6) ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر ص 192، المقريزي: السلوك 1/511، العيني: عقد الجمان 1/384.

فتح أنطاكية :

كانت تحركات الظاهر بيبرس تحركات قائد يدرس ويراقب حقل عملياته، ويتأكد مبدئياً من قوة وتصرف العدو[1]، فوظَّف في هذا الـمجال أسلوب الوعيد والتهديد والإبعاد والتخويف، ففي سنة (662هــ/1263م) سارعت إليه وفود الإمارات الصليبيَّة تطلب منه السلام والـمهادنة، فقابَلَها بمنتهى الجفوة، وقال لرُسل الصليبيِّين: "فردوا ما أخذتموه من البلاد وفكوا أسرى الـمسلمين جميعهم فإني لا أقبل غير ذلك"، ثم طردهم من مجلسه[2]، فجاء ذلك بمثابة إعلان الحرب عليهم[3]، وهنا يتبيَّن التغيير في موازين القوى، فقد أصبحت الكفة الراجحة والقويَّة للمسلمين على الصليبيِّين، بدليلِ مجيئهم إليه وطلبِهم الصلح والهدنة، وأسلوب الاستِعلاء في الكلام والأمر والنهي من قبل الظاهر بيبرس، ومن ثم الأسلوب العملي وهو القيام بطردهم من مجلسه.

وإمعاناً من السلطان الظاهر بيبرس في زيادة الضغط النفسي على الصليبيِّين في أنطاكية الصليبيَّة قام بمهاجمة مملكة أرمينيَّة الصغرى وتحجيم دَورها، وحرمان الصليبيِّين من التحالف معها، ففي (جمادى الآخرة 662هــ/ أبريل 1264م) قام مَلِكها هيثوم الأول Het'um I بالإغارة على الأجزاء الشماليَّة من بلاد الشَّام، فأصدر بيبرس أوامرَه لعساكر دمشق وحِمْص بمهاجمته في عُقْر داره، فانهزم وولَّى الأرمن الأدبار، وأغار الـمسلمون في طريق عودتهم على أطراف أنطاكية نفسها، وبعض مدن ساحل بلاد الشَّام، حتى وصلوا إلى أبواب عكَّا، وغنموا غنائم كثيرة[4]، مما أَرهب الصليبيِّين، وأدخل الرعب في نفوسهم.

---

(1) Stevenson: The Crusaders. p 336.

(2) المقريزي. السلوك. 553/1؛ Stevenson: The Crusaders. p 337

(3) سعيد عاشور. الحركة الصليبية. ج2، ص1035.

(4) ابن عبد الظاهر. الروض الزاهر. ص196-197؛ ابن الـمُغَيزل. ذيل مفرج الكروب. ص61-62؛ المقريزي. السلوك. 7/2.

ولقرب نيابة حمص من الصليبيين في أنطاكية وطرابلس كتب السلطان الظاهر بيبرس سنة 660هـ/ 1268م إلى نائب حمص يأمره أن يرابط قريباً من حصن الأكراد لصد الغارات الصليبية على شمال بلاد الشام[1].

توفي الملك الأشرف صاحب حمص سنة(662هـ/1270م)، فبعث السلطان الظاهر بيبرس إلى الأمير عز الدين بيليلك العلائي وهو أحد الامراء المعروفين فتسلمها وأدى يمين الطاعة له على وجوه الناس[2].

ومن أبرز أساليب الحرب النفسية التي نفَّذها بيبرس قبيل هجومه الكاسح على أنطاكية، الهجومُ الخاطف والمباغت على أطراف إمارة مناطق أنطاكية، ومن ذلك أيضاً أسلوب التَّمويه وعدم الإعلان عن الهدف المباشر، ففي (9 جمادى الأولى 663هـ/ 27 فبراير 1265م) تظاهر السلطان بالتوجُّه إلى الصيد في غابات أرسوف، ولكنْ فجأة اتجه إلى قيساريَّة وهاجمها على حين غِرَّة، وأخذها، ومن ثَمَّ استسلمت قلعتها، مستخدماً في ذلك عنصر المفاجأة، وأسلوب الحصار، وردَم خنادقها، ودكَّ أسوارها بالمنجنيقات، ونَصَبَ السلالم، وبذلك تمكَّنوا من الدخول إلى داخلها، ثم شنُّوا هجوماً كاسحاً على قلعتها، وشعر الصليبيُّون الذين بداخلها بعجزهم عن الاستمرار في الدفاع عنها، فسلَّموها للسلطان الظاهر بيبرس بما فيها من المؤن والعتاد، فدخلها المسلمون من الأعلى والأسفل، وأذَّنوا لصلاة الصبح عليها.

ولم يقف السلطان الظاهر بيبرس على ذلك، بل أمرَ بهدم القلعة كلها، وشارك بنفسه في هدمها، حتى لم يبقَ لها أثر»[3]، وذلك لإحباطهم نفسياً، وإشعارهم بالخيبة والعجز، وفقدان الأمل بالعودة إليها مرةً أخرى، وأنَّ نهايتهم

(1) ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر ص 305، 306.

(2) المقريزي: السلوك 168/1

(3) ابن أيبك الدوادري. كنز الدرر. 107/8. ابن عبد الظاهر. الروض الزاهر. ص229-231؛ الدوادار المنصوري. زبدة الفكرة. ص95-96؛

هناك اقتربت. وقد ساهم نائب حمص الأمير علم الدين سنجر الباشقردي وعساكر نيابته في صد الهجوم الصليبي الذي كان بقيادة الأمير بوهيمند السادس صاحب إنطاكية وطرابلس على مدينة حمص سنة 664هـ/ 1266م وتمكنت عساكر حمص من هزيمة الصليبيين ومطاردتهم داخل ممالكهم[1].

ولم يكتفِ السلطان الظاهر بيبرس بذلك الانتصار واسترداد أنطاكية من أيدي الصليبيِّين، بل أراد أن يزيد من تفعيل الضغوط النفسيَّة ضدهم عامَّة وضد بوهيموند السادس-المقيم بطرابلس-خاصَّة، بإرسال رسائل تهم وسخرية بأسلوبٍ لاذع، يُخبره فيها بما حل بعاصمة ملكه ورجاله من إذلال، وضمَّنها عباراتٍ كلها تقريع وسخرية[2]، وذلك يدلُّ على ما وصلت إليه أحوال الصليبيِّين مِن ضعف حتى استطاع السلطان بيبرس أن يوجِّه أمثال تلك العبارات إلى صاحب أكبر إمارة صليبيَّة في الشَّام في ذلك الوقت[3].

كما كان لسقوط هذه الإمارة التي كانت تشكل حجر زاوية للصليبيِّين على ساحل بلاد الشَّام أثره البالغ على ما تبقى للصليبيِّين من مدن وقرى وهجر على الساحل، إذ إن سقوط إمارة أنطاكية في حدِّ ذاته كان عاملَ انهيار، وفقدانَ ثقةٍ بين الصليبيِّين، وقد انعكس ذلك على الكِيانين المتبقيْن للصليبيين في ساحل الشَّام، وهما: إمارة طرابلس الصليبيَّة، وبقايا مملكة بيت المقدس الصليبيَّة في مدينة عكَّا وما جاوَرَها، وباتت مَوْئلاً لهم آنذاك.

---

(1) ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر ص 245، بيبرس الدوادار المنصوري: التحفة الملوكية في الدولة التركية، نشره عبد الحميد صالح حمدان، ط1، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة 1987م، ص 62، 63.المقريزي: السلوك 1/ 543، السيد عبد العزيز سالم وسمر عبد العزيز سالم: دراسة في تاريخ الأيوبيين والمماليك، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية 1992م، ص 249.

(2) ابن أيبك الدواداري: كنز الدرر. ج8، ص128-130؛ ابن عبد الظاهر. الروض الزاهر. ص309-313؛ العيني: عقد الجمان. ج2، ص24-28

(3) العبادي: في تاريخ الأيوبيين والمماليك. ص194.

ومثلما كانت نيابة حمص تشارك في الدفاع عن ديار السلطنة فقد كانت تساهم في إمداد الحملات التي تعدها السلطنة بالمعدات الحربية اللازمة لمحاربة المغول، ففي سنة(671هـ/1273 م) زودت الملك الظاهر بيبرس بعدد من مراكب الصيد التي نقلها على ظهور الجمال إلى نهر الفرات لمحاربة المغول المتجمعين هناك[1].

وقعة حمص الكبرى (680هـ/1281م):

لم تهدأ هجمات المغول المتكررة على مدن الشام، بهدف السيطرة والانتقام لعين جالوت، ولا سيّما مدينة حمص التي تعرضت لعدد من هذه الهجمات، وفي (جمادى الأولى 680هـ/ سبتمبر 1281م)، وسار منكوتمر -قائد الجيوش المغوليَّة - بقواته إلى عينتاب، ومنها تقدَّم إلى حماة فأفسد نواحيها، ثم تقدَّم من هناك إلى حمص التي احتشدت فيها الجيوش الإسلاميَّة، وكان مملوكاً لأحد الأمراء قد هرب إلى المغول ودلهم على عورات المسلمين، وأخبرهم بعدَدهم[2].

---

(1) ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر ص 405، 406، اليونيني: ذيل 2/3، 3، ابن تغري بردي: المنهل الصافي 457/3.الطراونة: المرجع السابق ص83

(2) الدوادار المنصوري. زبدة الفكرة. ص195-196؛ النويري. نهاية الأرب21/31-22؛ ابن الفرات. تاريخ ابن الفرات. ج7، ص215؛ المقريزي. السلوك. 145/2؛ العيني. عقد الجمان. 272/2-272؛ وقد يكون هذا المملوكُ ممن قد جنَّده المغول في أرض المسلمين وزَرَعه بين صفوف معسكرهم؛ ليكون جاسوساً عليهم ويأتي للمغول بأخبارهم والمعلومات السرِّية عنهم، وهو ما يُعرف في وقتنا الحاضر بالعميل المزدوج، ويُعدُّ هذا التجسس من الخطورة بمكان؛ لما يُسبِّبه من أضرار كبيرة بما يمتلكه من معلوماتٍ في غاية الأهمية على الجيش الإسلاميِّ بكشف أسرارهم وتحركاتهم ومخططاتهم، وبذلك يكون ظَهْر الجيش الإسلامي مكشوفاً للعدو المغولي.

وفي الـمقابل استنفر السلطان الـمنصور قلاوون قواته استعداداً لمنازلتهم، واتَّفق في تلك الأثناء أن شخصاً من معسكر الـمغول[1] دخل حماة وقال للنائب بها: "اكتب الساعة إلى السلطان على جناح طائر، وعرفه بأن القوم ثمانون ألـف مقاتل، في القلب منهم أربعة وأربعون ألفاً مـن الـــمغل، وهـم طـالبون القلـب وميمنتهم قوية جداً فيقوي ميسرة الـمسلمين ويحترز على الصناجق"[2]، واستغلَّ السلطان قلاوون ذلك وبعث رسائله طالباً النجدة، وقدَّم عليه الـمتطوعة من كل مكان[3]، ولِمَا للنساء والأطفال من تأثير في إثارة حماسة الـــمجاهدين للقتـال،

(1) وقد أراد هذا النَّاصح النِّكاية بجيوش المغول التي كانت تحتـلُّ أراضـي العـراق، بإسـداء النصائح لوُلاة الشَّام ومصر، وكَشْف أسرار جيوش المغول وعيوبها لهم. (طـارق موسـى الجبوري. المجتمع ودوره في التصدي للاحتلال المغولي. ص199-200).

(2) الدوادار المنصوري. زبدة الفكرة. ص196؛ ابن الفرات. تاريخ ابن الفـرات. ج7، ص215؛ المقريزي. السلوك. ج2، ص146؛ العيني. عقد الجمـان. ج2، ص272؛ والـسّناجق هـي: مفردها سنجق، وهي كلمة تركية، والسنجق باللغة التركية معناه الطعن، سُمِّيت الرايـة بـذلك لأنها تكون في أعلى الرمح؛ والرمح هو آلة الطَّعن، وبذلك هي تدلُّ على الرايات الـتي تُرفـع في المواكب الـسلطانيَّة، وفي وقـت الحـرب، ومنـها ذات اللـون الأصـفر، والـتي يحملـها السنجقدار خلف السلطان، وتُسمَّى أيضاً الأعلام، وهي الرايات، وتُسمى أيـضاً العـصائب، أخذاً من عصابة الرأس لأن الراية تَعصِب رأس الرمح من أعلاه. القلقشندي. صـبح الأعـشى. 242/2؛ وهذا يدلُّ على استِخدام السلطان المنـصور قـلاوون للرايـات في هـذه المعركـة، والتي كانت تُعدُّ من الشفرات المرئية في أرض المعركة، وهي أسلوبٌ مـن أسـاليب الحـرب النفسيَّة، لها أهميتها في أرض المعركة. ىفقـد قيـل: إن الـسلطان عنـدما عَلِـم بخـبر ميـسرة المسلمين وتعثُّرها في بداية المعركة، وأن المغول وصـلت خلـف الـسناجق الـسُّلطانية؛ أمـرَ بلفِّ السناجق، وإبطال ضَرْب الكوسات. (ابن أيبك الدواداري. كـنز الـدرر. ج8، ص243؛ الدوادار المنصوري. زبدة الفكـرة. ص199؛ التحفـة الملوكيـة. ص100؛ شـافع بـن علـي. كتاب الفضل المـأثور. ص72؛ الكـتبي. عيـون التـواريخ. 279/21؛ المقريـزي. الـسلوك. 148/2؛ العيني. عقد الجمان. ج2، ص25).

(3) اليونيني. ذيل مرآة الزمان. ج4، ص91؛ شافع بن علي. كتاب الفضل المـأثور. ص65-66؛ المقريزي. السلوك. ج2، ص146؛ العيني. عقد الجمان. 272/2-273

خرج النساء والأطفال إلى الصحاري والجوامع والـمساجد، وأكثروا من الابتِهال إلى الله ﷻ في تلك الأيام، ولم يَفتُروا عن ذلك[1]، ثم استَفاد الـسلطان قـلاوون من الـمعلومات التي زوَّده بها ذلك الوافد الـمغولي في ترتيب جيشه، اسـتعداداً للقاء الـمغول في معركة فاصلة.

وكان نائب حماة هو مَن تولَّى ترتيب الجيـوش الإسـلاميَّة[2]، وَفْـق تلـك الـمعلومات التي أدلَى بها ذلك الوافد، وكذلك ممـا تلقَّـاه مـن معلومـاتٍ عـن طريق الحمام الزَّاجل، وذلك في (14 رجب 680/29 أكتـوبر 1281م) اشـتركت عساكر نيابة حمص مع الحملة العسكرية التي أعدها السلطان المنـصور قـلاوون لمحاربة المغول في المعركة التي دارت في المنطقة الواقعة ما بين مشهد خالد بن الوليد والرستن في 14 رجب 680هـ/ 30 تشرين أول 1281م.

وكان تعداد الجيش المغولي في هـذه المعركـة مائـة ألـف مقاتـل، بينـهم خمسة وعشرون ألف فارس، وقيل (80) ألف مقاتل من المغول والباقي حـشود وجموع من أجناس مختلفة مثل الكرج والعجم والأرمـن وغيرهـم.أمـا الجـيش الإسلامي فكان تعداده خمسين ألفاً من المقاتلين

و استقر الجيش كالآتي:

1- الميمنة: وعليها الملك المنصور محمـد صـاحب حمـاه بعـسكره، وكان في رأس الميمنة شرف الدين عيسى بن مهنـا وآل فـضل وآل مري وعربان البلاد الشامية، وهذا يعني أن القبائل العربيـة حاضـرة ومشاركة بقوة في هذه المعركة مع الجيش المملوكي على اعتبار أن المصير واحد والقضية مشتركة فيما بينهم.

---

(1) ابن تغري بردي. النجوم الزاهرة. 7/305.

(2) وقد شارك العلماءُ والأدباء جيشَ المسلمين في جهاد المغول في هـذه المعركـة، وأبلَـوْا بلاءً حسناً، حتى قُتل بعضهم. رائد مصطفي عبد الرحيم. أثر الغـزو المغـولي في الثقافـة العربية في العصر المملوكي. ص76.

2- الميسرة: وعلى رأسها شمس الدين سنقر الأشقر ومن معه من المماليك الظاهرية، وعلى رأس الميسرة التركمان بجموعهم.

3- مقدمة القلب: الأمير حسام الدين طرنطاي (نائب السلطنة).

وبالنسبة للسلطان المنصور فإنه وقف تحت السناجق المنصورة وحوله مماليكه، إذ أن الملتقى كان بوطأة حمص بالقرب من مشهد الصحابي الجليل خالد بن الوليد حيث مركز الرماح ومهب الرياح.و بدا القتال على أشده من أول النهار والتحمت ميسرة المغول مع ميمنة المسلمين فصدمتها الميسرة صدمة شديدة، لكن ميمنة المسلمين "ثبتوا لها ثباتاً عظيماً وحملوا على ميسرة التتار فانكسرت وانتهت إلى القلب وبه منكوتمر".

وتمكنت ميمنة المغول من هزيمة ميسرة العساكر المملوكية ومطاردتها حتى بحيرة حمص، وهذا التقدم للمغول باتجاه حمصو الجيش الإسلامي في تراجع إلى الوراء يتعقبهم المغول حتى أوصلوهم إلى بحيرة حمص، ووصلوا إلى حمص وهي مغلقة الأبواب، ولكن المغول لم يتمكنوا من دخول مدينة حمص لإغلاق أبوابها في وجوههم لذلك قتلوا من العامة والمجاهدين خارجها أعداداً كثيرة، وأشرف المسلمون على خطر عظيم، ومكثوا فترة قصيرة منتظرين قدوم رفاقهم فلما أبطأوا في الوصول عادوا إلى ساحة المعركة ووجدوا أن قائدهم منكوتمر قد هرب، وقتل من المغول خلق كثير، وهنا برز الدور البطولي للأمير العربي شرف الدين عيسى بن مهنا، إذ انه أمدّ الجيش الإسلامي من ناحية العرض فصدم المغول واضطرب ذلك الجيش وعمت هزيمته، وأن العساكر المملوكية قد انتصرت عليهم ففروا راجعين إلى بلادهم وعساكر السلطان المنصور قلاوون تلاحقهم[1].

---

(1) ابن عبد الظاهر: تشريف الأيام ص 44، 45، الدوادار المنصوري: التحفة الملوكية ص 100، 101، أبو الفداء: المختصر 4/4 - 15، ابن الوردي: تتمة المختصر 326/2، 327، ابن الفرات: تاريخ 2312/7 - 215، المقريزي 692/1 - 695، ابن تغري بردي: النجوم 257/7 - 261، العريني: المغول ص 300، 301

ومما يذكر من شدة المعركة ما ذكره اليافعي: "واستغاث الخلق والأطفال وتضرعوا إلى الله تعالى فنزل المدد من الله تعالى والنصر وفتح الله، وانكسر أعداء الله وأصيب ملكهم بطعنة"[1].

وعمت الأفراح بلاد الشام من شدة المعركة، فعاد السلطان المنصور إلى مستقره وكتب البطائق بالنصر وأنفق الأموال حتى قيل

"فرّق ما في الخزائن على مماليكه أكياساً في كل كيس ألف دينار".

وقد تغنّى الشعراء وأطنبوا في هذه المعركة وما تحقق فيها من نصر، فضلاً عن القضاة الذين قالوا الشعر في هذه المعركة، فقد وصف القاضي فتح الدين بن عبد الظاهر (كاتب السر آنذاك) قائلاً:

الله أعطاك لا زيد ولا عمرو	هذا العطاء وهذا الفتح والنصرُ
هذا المقام الذي لو لم تحل به	لم يبق والله لا شام ولا مصرُ
من ذا الذي يلق ذا العدد وكذا	أو يدرع لأمة، لامها الصبرُ
يا أيها الملك المنصور قد كسرت	جنودك المغل كسروا ما له جبرُ
و استجمع المغل والتكفور اتفقوا	مع الفرنج ومن أدري به الكفرُ
جاءت ثمانون ألفاً من بعوقهم	لأرض حِمصَ فكان البعث والنشرُ[2]

كذلك وصف القاضي محيّ الدين عبد الله بن عبد الظاهر شجاعة وبسالة السلطان وجيشه بقوله:

لله لله في حِمص مقام مقامه	والنار من بين الأسنة توهجُ
والناس قد فرّوا فلا متريث	والخلق قد هربوا فليس معرّجُ
وهناك من تجد الملائك عصبة	جاءته للنصر المبين تروّجُ[3]

(1) بيبرس: زبدة الفكرة، ص317

(2) العيني: عقد الجمان، 1/182

(3) العيني: عقد الجمان، 1/182

وانسحب الـمَغول بعد هزيمتهم في معركة حِمْص إلى نواحي الفرات[1]، وزيادةً في النكاية بالجيش الـمغولي الـمنهزم أَرسل السلطان الـمنصور قلاوون عن طريق الحمام الزاجل إلى عمَّاله وقُواده عند الحدود الفراتيَّة يأمرهم بالوقوف في وجه الـمَغول الهاربين؛ في محاولة لمنعهم من عبور الفرات، وإشعال النيران في طريقهم؛ لإدخال الـمزيد من الهلع والرعب إلى قلوبهم، خاصّة بعد اختفاء طائفة منهم بجانب الفرات؛ حيث أَضرمت النار بالأشجار والحشائش التي على نهر الفرات، فاحترق من الـمغول خلق كثير ممن اختفي هناك، وعاد قائدهم منكوتمر جريحاً وحزيناً إلى بغداد، ولقي توبيخاً وتقريعاً من أخيه أُبغا[2].

وقعة الخزندار (699هـ/ 1300م):

وردت الأخبار بأن قازان بن أرغون سيّر جيشاً فيه جموع من المغول والكرج وغيرهم وعبروا نهر الفرات حتى وصلوا إلى حلب ثم حماة ثم إلى وادي مجمع المروج في حمص، فسارت الجيوش الإسلامية بقيادة السلطان الناصر محمد بن قلاوون إلى ملاقاة المغول، فوصلوا إلى ظاهر حمص ثم ساروا إلى المجمع في شرق حمص على نصف مرحلة من حمص على رأس جيش كبير متوجهاً إلى بلاد الشَّام، ونزل عند سلمية، وفي الـمقابل تحرَّك السلطان الناصر

(1) وكان نهر الفرات بمثابة الحدِّ الفاصل بين كلا الدولتين، ولعب دَورَ المانع الطبيعي، والمُعرقِل لسرعة تقدُّم الجيوش المغوليَّة، وكذلك المدن الحدوديَّة كانت بمثابة الموانعِ البشرية لِمَا تمتلكه من طاقاتٍ تؤهِّلها للوقوف بوجه الأحلام المغوليَّة. طارق موسى الجبوري. المجتمع ودوره في التصدي للاحتلال المغولي. ص190

(2) الدوادار المنصوري. زبدة الفكرة. ص200؛ اليونيني. ذيل مرآة الزمان. 94/4؛ شافع بن علي. كتاب الفضل المأثور. ص76؛ النويري. نهاية الأرب. 25/31؛ ابن الفرات. تاريخ ابن الفرات. 218/7؛ المقريزي. السلوك. 148/2-150؛ وقد وبَّخه أخوه بقوله: "لم لا مت أنت والجيش ولا انهزمت". المقريزي. السلوك. 150/2

محمد بن قلاوون من مصر على رأس جيش كبير وصلَ به إلى حِمص، متجاوزاً بعض الصعاب التي وقعت في طريقه آنذاك[1].

التَقى الجيشان في واد قرب سَلَمْيَة يسمى وادي الخزندار[2]، وأظهر السلطان الناصر محمد بن قلاوون وجندُه شجاعةً كبيرة، ومالت كِفَّة القتال ناحيته أول الأمر، ولكنِ استَطاع محمود غازان بنصيحةِ قبجق المنصوري أن يُحوِّل دفة المعركة لصالحه، وأَوقع بجيش مصر والشام هزيمةً قاسية[3]، ويبدو أن قبجق قد انتابته نوبة من صحوة الضمير، وصرف محمود غازان عن تتبُّع الفارِّين من جيش الناصر، فأَوهمه أنها قد تكون خدعة أو حيلة ليجرَّه إلى كمين أعَدّه سلفاً، واكتفي غازان بما غَنِمه من غنائم في هذه المعركة[4]؛ ليستعد بعدها لهجومه الكاسح على دمشق، ونجح في السيطرة على دمشق وحلب وحماة وحمص وصفد وطرابلس والساحل، وفي ظل هذه المتغيرات هاجم جيش القوات الإسلامية فانهزمت ميمنة المسلمين والميسرة، ولم يثبت منها إلاّ القلب، وما يزل فرسان المغول بقوات القلب إلى أن كسروهم وتعقبوهم بالضرب والقتل، ولما رأى أهل حمص ما حلّ بالجيش الإسلامي وهم في

---

(1) سببتها فرقة الأويراتية، للمزيد عن هذه الفتنة انظر: ابن أيبك الدواداري. كنز الدرر15/9؛ الدوادار المنصوري. مختار الأخبار. ص110ابن العسال. النهج السديد. ص354-355.

(2) أبو الفداء. المختصر في أخبار البشر. ج2، ص381؛ ابن الجزري. تاريخ ابن الجزري. وقيل: إن اللقاء كان في وادي مجمع المُروج؛ وادي الخزندار: وادٍ بالقرب من السلمية بين حِمص وحماة. (الدوادار المنصوري. مختار الأخبار. ص111

(3) ابن الجزري. تاريخ ابن الجزري. 463/1؛ ابن العسال. النهج السديد. ص356-357؛ المقريزي. السلوك. 320/2 العيني. عقد الجمان.10/4-16

(4) ابن أيبك الدواداري. كنز الدرر.17/9؛ النويري. نهاية الأرب في فنون الأدب. 241/31-242 ابن الجزري. تاريخ ابن الجزري. 461/1-462 ابن إياس. بدائع الزهور407/1

مدينتهم يقتلون، ابتهلوا إلى الله بالدعاء والتضرع ونـادوا "يـا مـسلمون الرجعـة الرجعة لا تسلمونا إلى العدو فتباكوا وبكى السلطان الناصر". وأسفرت عن هزيمة المماليك[1] ودخل غازان حمص ونهبت قواتـه "مـا فيهـا مـن خـزائن الـسلطان والمؤن والذخائر وأثقال العسكر"ثم زحف المغول إلى دمشق"[2].

وكانت النهاية أن الجيش الإسلامي تمت بـه الهزيمـة إلى الـديار المـصرية وتبعهم المغول الذين استولوا على دمـشق "وسـاقوا في أثـر الجحافـل إلى غـزة والقدس وبلاد الكرك وسَبُوا وغنموا من المسلمين الجفال شيئاً عظيماً" ولم يدوم الأمر طويلاً على ما هو عليـه، إذ تم في هـذه الـسنة اسـترجاع بـلاد الـشام مـن المغول، وشاركت في هذه العملية القوات الحموية والحلبية والحمصية، وكـان ذلك في العشر الأخير من شهر شعبان من السنة نفسها[3].

ومن ثم فقد سيطر الفزع على أهالي دمشق وبلاد الـشَّام؛ فحـاول ابـن تيميـة ومعه جماعة من العلماء والفقهاء حماية أهل دمشق من الـمغول، فذهبوا إلى غازان ليطلبوا منه عهداً بالأمان للأهالي، فردَّ عليهم بأنه قد أَرسَـل إلى أهـل دمـشق ذلـك العهد[4]، ولم يكن ذلك العهدُ سوى خُدعة، إذ رأى أن هذا الأمـان كـان "ليخـدع بمكره ويغر بنكره ويوهم بخداعه"[5]، على حـدِّ تعـبير الــمؤرِّخ الـدوادار بيـبرس

---

(1) الدوادار المنصوري: التحفة الملوكيـة ص 158، 159، ابـن الـوردي: تتمـة المختـصر 2/ص 353، ابن كثير: البداية 7/14، 8، صالح بن يحيى: تاريخ بـيروت وهـو أخبـار السلف في ذرية بحتر بن علي أمير العرب، تحقيق فرنـسيس هـورس اليـسوعي، وكمـال سليمان الصليبي، دار المـشرق، بـيروت 1986م ص 137، 138.المقريـزي: الـسلوك 888/1 - 891، ابن تغري بردي: النجوم 98/8

(2) ابن أبي الفضائل: النهج السديد ص 636، 637.

(3) الصفدي: نزهة المالك والمملوك، 130/8

(4) الدوادار المنصوري. زبدة الفكرة. ص333-337؛ أبو الفداء. المختصر في أخبار البشر. 43/4؛ ابـن العـسال. النـهج الـسديد. ص360-362؛ المقريـزي. الـسلوك. 232/5 العيني. عقد الجمان. 4/29-32.

(5) زبدة الفكرة. ص333.

الـمنصوري. وكان الخداع والغدر طبع الـمغول وديدنهم للسيطرة على أي مدينة أو قلعة بدون مقاومة، وقد أثبتت الأحداث التالية على دمشق صحةَ هذا الرأي؛ إذ سُرعان ما استهان الـمغول بأهل دمشق وأذاقوهم الذلَّ والهوان والأَسْر وعاثُوا فساداً في دمشق وبلاد الشَّام، الأمر الذي أَوجَب على ابن تيمية والعلماء الخروج مرةً أخرى إلى غازان ليُذكِّروه بعهده، وأَغلَظ عليه ابن تيمية القول حتى تعجَّب قبجق من إقدامه وجُرْأته على الـمَغول[1]، إلى أن أُفْرِج عن الأسرى[2].

وفي الـمقابل لجأ السلطان الناصر محمد إلى بثِّ روح الحماسة والصمود في نفوس أهل الشَّام، وحثَّهم على الثبات وحفظ ما تحت أيديهم من القلاع، وطَمأنهم بأنه يستجمع كل قوَّاته لسرعة نجدتهم، وكان لذلك أثرُه على مَن كان بقلعة دمشق؛ حيث استعصَتْ على الـمَغول بقيادة الأمير عَلَم الدين سنجر الـمنصوري الـمعروف باسم أُرْجواش، الذي رفض تسليمها رغم ما بذله له الـمَغول من ترغيب وترهيب[3]؛ حيث أجابهم بأن الناصر محمد قد جمع الجيوش بغزة وسيصل عما قريب. كما كان لحميَّةِ أمراء الـمماليك الذين انضمُّوا لمعسكر غازان أيامَ السلطان حسام الدين لاجين، وغَيْرتِهم على إخوانهم في الجيش الـمصري، وتقديرِهم للسلطان الناصر الذي كان قد بدأ في الاتّصال بهم سراً؛ دَورٌ كبيرٌ في حفظ قلعة دمشق، إذ قام قَبْجَق وبكتمر السِّلِحْدار بتثبيط همَّة الـمغول وتخذيلهم عن اقتِحامها، فانصرفوا عنها[4]، وخاصَّة بعد أنْ أَجْهَدهم علم الدين سِنْجَر باستخدام أسلوب حرب العصابات، والذي تسبَّب في خسائرَ فادحةٍ للعدو.

---

(1) ابن العسال: النهج السديد ص370، 371، 378، 379؛ المقدسي: محمد بن أحمد (ت744هـ/1343م).

(2) الدوادار المنصوري. زبدة الفكرة. ص333، 337؛ ابن كثير. البداية والنهاية. ج15، ص622؛ ابن حجر العسقلاني. الدرر الكامنة. 154/1.

(3) يذكر ابن كثير أن الشيخ تقي الدين ابن تيمية أرسل إلى أُرْجواش يقول له: "لو لم يبقَ فيها إلا حجر واحد فلا تسلمه ذلك إن استطعت". البداية والنهاية. 621/45

(4) الدوادار المنصوري. زبدة الفكرة. ص332؛ التحفة الملوكية. ص158؛ أبو الفداء. المختصر في أخبار البشر.4/43

كما تمكَّن مِن أَخْذ زمام المبادرة، بهَدْم المباني المحيطة بقلعته؛ حتى لا يحتمي بها المَغول المُحاصِرون لقلعته فيَكونوا بذلك مكشوفين لرُماته؛ مما ألقى في قلوبهم الرُّعب. كما أَشعَل النار في جميع الأماكن التي حولها عن طريق استِخدام النفط، واستمرَّت تلك النيران مشتعلةً لمدة يومين، ولم يكتفِ بذلك فأَرسَل أربعة من رجاله في مهمَّةٍ خاصة؛ لقَتْل الرجل المسؤول عن تصنيع المنجنيق ومساعديه، ونجحوا في ذلك، مما أَوقَع اليأس في قلب غازان وجَعَله يتشدَّد في طلب المال من أهالي دمشق كشكلٍ من أشكال الانتِقام وليُواري فشله[1].

وعن الضحايا قيل إن عدد قتلى المغول (10) آلاف، ورغم المبالغة في عدد القتلى إلا أنها كانت تشير إلى كثرة عدد القتلى في المغول، لكن قازان تنبه لخطورة الأمر وما حلّ بميمنته قرّر الاعتزال بعدد من فرسانه بعيداً عن أجزاء الجيش المتواجد في ساحة المعركة، وساعده في تنفيذ مهمته الأمراء المنشقين عن السلطان.

وعلى إثر ذلك لم يمكث غازان كثيراً في بلاد الشَّام بعد سيطرته عليها، إذ اكتَفي بما ناله من الغنائم، وما أخذه من الجِبايات التي فرضها على بلاد الشَّام بخلاف ما نهبه جنودُه، وكان قد جعل الأمير قبجق المنصوريَّ نائباً له على دمشق، وأعطى نيابةَ حلب وحماة وحِمْص للأمير بكتمر السلحدار، وجعل في نيابة صفد وطرابلس والساحل الأمير الألبكي[2]، وترك مع كل واحدٍ منهم حامية مغوليَّة، وجعل قطلوشاه[3] مقدَّماً عليهم لحماية الشام، وأَرسل عشرين ألفاً من

---

(1) الدوادار المنصوري. مختار الأخبار. ص113؛ أبو الفداء. المختصر في أخبار البشر؛ 43/4 ابن الوردي. تاريخ ابن الوردي. 240/2 ابن كثير. البداية والنهاية620/15، ؛ المقريزي. السلوك. 328/2؛ العيني. عقد الجمان. 4/41-44.

(2) الألبكي: هو الأمير فارس الدين أَلْبَكي الساقي، مملوك الظاهر بيبرس، من كبار أمراء مماليك مصر، جعله السلطان المنصور قلاوون نائباً على صفد فأقام بها عشر سنين، ثم فرَّ مع الأمير قبجق إلى غازان وتزوج أخته، ثم قَدِم مع غازان، ثم لحق مع الأمير قبجق بالسلطان الناصر محمد بن قلاوون، فولاه نيابة حِمص حتى مات سنة (702هـ/1303م). ابن تغري. النجوم الزاهرة. ج8، ص204.

(3) قطلوشاه أو خطلوشاه: مقدم مغولي ونائبهم، رفيع الرتبة ماكراً كافراً، رُمي بسهم فقتله سنة (707هـ/1307م). الصفدي. الوافي بالوفيات. 13/ 216.

عسكره مع أربعة من أمراء المغول بالأغوار، وأعلن "أنه لن يلبث أن يعود لفتح مصر"[1]، وقد ظنَّ أنه بهذه الوسيلة يستطيع أن يَشطُر المماليك إلى حِزبين مُتناوِئين يَضرب كلٌّ منهما الآخر[2].

وقَفَل عائداً إلى دياره تاركاً القيادة لقطلوشاه الذي غادر دمشق مُتجِهاً إلى حلب بالاتفاق مع الأمير قبجق نائب غازان على دمشق؛ لإحكام قبضته عليها[3].

أما السلطان الناصر محمد بن قلاوون فقد تَراجَع إلى بعلبك وأقام بها أياماً، ومنها توجَّه إلى مصر فدخلها بعد خمسة عشر يوماً من معركة الخزندار؛ حيث شرع في تضميد جراح جيشه بعد هذه الهزائم، وإعادة ترتيب قواته، فعمل على تأليف قلوب الجند ومحوِ الآثار الماديَّة التي لَحِقت بهم جرَّاء الهزيمة، ففرَّق فيهم العتاد الحربيَّ من لباسٍ وخُوَذٍ وسُيوف، ثم فَتَح خزائن المال وأَجزَل العطاء والنَّفقة على عسكره[4]، كما عَمِل على محوِ الآثار المعنويَّة والنفسيَّة التي أصابت الجند بسبب الهزيمة وتجرُّؤ العامَّة عليهم، وسبِّهم لهروبهم من المَغول، ومُعايرتهم بالهزيمة، فعندما أرادوا تحصيل المال من الناس كان إذا تَشدَّد عليهم الجند استَخفُّوا بهم قائلين: لماذا لم تكن تلك الشدةُ والجرأة على المَغول الذين هربتُم منهم؟ لذلك أصدر السلطان أمراً توَّعد فيه بقَتْل أيِّ عاميٍّ يسيء إلى جندي[5]. وبتلك الإجراءات حَفِظ السلطانُ للجند هيبتَهم، وأعاد بناء معنويَّاتهم ورُوحهم القتاليَّة بعد أن أَكرَمهم وأعاد لهم الثقة في أنفسهم.

---

(1) رنسيمان. تاريخ الحملات الصليبية. ج3، ص501.

(2) العبادي. في تاريخ الأيوبيين والمماليك. ص226.

(3) الدوادار المنصوري. زبدة الفكرة. ص333؛ النويري. نهاية الأرب في فنون الأدب. 250/31 المقريزي. السلوك. 2/325- 326.

(4) أبو الفداء. المختصر في أخبار البشر. 44/4؛ ابن العسال. النهج السديد. ص382- 383؛ ابن دقماق. الجوهر الثمين. ص348؛ العيني. عقد الجمان. ج4، ص71؛ ابن إياس. بدائع الزهور. ج1، ص405.

(5) المقريزي. السلوك2/335 العيني. عقد الجمان. 125/4؛ ابن تغري. النجوم الزاهة8/124

وقعة المرج (702هـ/1303م)

بعد مرور ثلاث سنوات أي سنة 702هـ/ 1303م أعاد غازان مهاجمة بلاد الشام، فوصلوا حمص وبعلبك، ودخل حمص بعد فرار أهلها إلى دمشق وعاثوا بحمص فساداً ثم سارت فرقة من المغول يقدر عددها بحوالي عشرة آلاف فارس لمهاجمة القريتين من أعمال حمص، وتمكنت من هزيمة التركمان أهل القريتين وأسر حوالي ستة آلاف من أولادهم ونسائهم وساقوهم معهم، إلا أن قسماً من القوات المملوكية المتجمعة قرب حلب والمعدة أصلاً لصد هذا الهجوم المغولي، تمكنت من مهاجمة القوة المغولية في شعبان سنة 702هـ/ نيسان 1303م وهزيمتها بعد وصول قوات السلطان الناصر والعساكر المصرية والشامية وتم النصر للمسلمين وهزم المغول بعد ان انسحبوا من المدن الشامية خائبين، في عُرض وتخليص ما أسر من التركمان، وكانت عساكر نيابة حمص من ضمن هذه القوة[1].

عز الدين آيبك ونيابته في حمص :

في سنة (702هـ/1202م) صدر مرسوم سلطاني بتعيين الأمير عز الدين آيبك الحموي الظاهري على نيابة حمص بدلاً من بلبان الجوكندار.إلاّ أن هذا الأمير لم تدم مدة حكمه إذ توفي بعد سنة، فصدر مرسوم بتعيين النائب السابق بلبان الجوكندار وتولّى مكانه ولم يبقى سوى 4 سنوات حيث توفي، وتم تعيين الأمير سيف الدين تمر الساقي بدلاً عنه نائباً جديداً على نيابة حمص[2].

---

(1) الذهبي: العبر 5/4: أبو محمد عبد الله بن أسعد بن علي بن سليمان عفيف الدين اليافعي، مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة ما يعتبر من حوادث الزمان، 4ج طبعة حيدر أباد الدكن - الهند 1338هـ/ 1919م 237/4.ابن حبيب: تذكرة النبيه 246/1، المقريزي: السلوك 931/1، ابن تغري بردي: النجوم 124/8 - 130، ابن إياس: بدائع الزهور 413/1.

(2) بيبرس: زبدة الفكرة، ص 354

عودة المغول مرة جديدة وفتح ملطية :

لم يلبث المغول يفكروا في العودة لمهاجمة بلاد الشام من جديد ففي سنة(712هـ/ 1212 م) اجتاح المغول أراضي نيابة حمص فهرب أهلها وتركوها وعاشوا في اضطراب شديد ولم يعودوا إلى حياتهم الطبيعية إلا بعد أن رحل المغول من حمص ومن القريتين، لقلة العلف اللازم لدوابهم ولموت الكثير منهم[1].

ولم تقتصر مشاركة عساكر نيابة حمص على الدفاع عن ديار السلطنة فقد كانت تشارك في غزواتها أيضاً، ففي سنة 715هـ/ 1315م وردت الأوامر السلطانية بالتحرك نحو ملطية لفتحها، واجتمعت الجيوش المصرية بالشامية التي كان عليها الأمير سيف الدين تنكز (نائب السلطنة في دمشق) ومعه الجيوش الحمصية والحموية والطرابلسية، وقد شاركت عساكر النيابة في حمص في غزو ملطيه[2] مع الأمير تنكر الحسامي لقبض المغول على بعض الأشخاص الذين أرسلهم الناصر محمد لقتل قراسنقر الملتجئ للمغول[3].

وقد لاقى الجيش الإسلامي بعض العقبات تتعلق بالمسالك، وهناك وصل إليهم الأمير قيران نائب حمص ومعه بعض المقاتلين، فحاصروا المدينة (ملطية) ثلاثة أيام وزحفوا عليها جملة واحدة مما اضطر أهاليها أن يخرجوا إليهم بالمفاتيح وطلبوا الأمان، فأمنوهم من جانب وهجموا عليهم من الجانب الآخر(لأنها لم تعلم بذلك)، فهجموا عليها وأخبروا وأحرقوا وكسبوا وقتلوا منهم.و بالنسبة

---

(1) أبو بكر عبد الله بن أيبك الدواداري: كنز الدرر وجامع الغرر الجزء التاسع وهو الدر الفاخر في سيرة الملك الناصر، تحقيق هانس روبرت رويمر، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة 1960م 258/9 - 260.ابن كثير: البداية 68/14.

(2) ملطية: بلدة من بلاد الروم تتآخم الشام.ياقوت الحموي: معجم البلدان 192/5، 193.

(3) المقريزي: السلوك 126/2، 142 - 144، 184، فايد حماد عاشور: العلاقات السياسية بين المماليك والمغول في الدولة المملوكية الأولى، دار المعارف، القاهرة 1974م ص 183، 184. الطراونة: المرجع السابق ص 84

للأسرىفكانت معاملتهم إيجابية وتنم عن روح الإسلام ومعانيه النبيلة، فعاملوا كل من أسلم بإعتاقه وتسليمه لأهله، ومن لا أهل له أودعوه عند الحاكم

الخروج إلى جعبر :

وفي سنة 737هـ/ 1337م كتب الناصر محمد إلى نائب حمص وبقية نواب النيابات الشامية بخروج عساكرهم إلى ناحية جعبر[1] إلى أن تصل عساكر السلطنة مدينة حلب ومن ثم يتوجهون جميعاً إلى سيس[2] لأن ملكها ليو الخامس (720 - 742هـ/ 1320 - 1341م) نقض الهدنة مع المماليك بالامتناع عن دفع الجزية وقتل جماعة من المسلمين[3].

حملات تيمور لنك وموقفه من حمص :

عاود المغول تهديدهم لديار السلطنة في أواخر القرن الثامن الهجري / الرابع عشر الميلادي ومطلع القرن التاسع الهجري / القرن الخامس عشر الميلادي، كانت عساكر نيابة حمص من بين العساكر الشامية التي أرسلت لصدهم ففي سنة 796هـ/ 1394م خرج نائب حمص وعساكر نيابته مع نواب الممالك الشامية وعساكرها للإقامة في حلب وحمايتها من تيمورلنك الذي كان يهدد بالاستيلاء عليها[4].

---

(1) جعبر: قلعة على نهر الفرات بين بالس والرقة وكانت قديماً تسمى دوسر.ياقوت الحموي: معجم البلدان 142/2.

(2) سيس: بلدة في آسية الصغرى وتعرف باسم سيسية، وهي قصبة المملكة القيليقية الأرمنية القديمة وعلى مسيرة 65 كم شمال شرق أذنه.بوختر « سيس» دائرة المعارف الإسلامية 467/12 - 472.

(3) موسى بن محمد بن يحيى اليوسفي: نزهة الناظر في سيرة الملك الناصر، تحقيق ودراسة أحمد حطيط ط1، عالم الكتب، بيروت 1986م ص 266 - 268.
المقريزي: السلوك 418/2، 419، عاشور: العلاقات السياسية ص 196.

(4) ابن الفرات: تاريخ 282/9، المقريزي: السلوك 813/3.

وبعد مضي سبع سنوات خرج نائب حمص بعساكر نيابته مع نواب النيابات الشامية وعساكرها إلى حلب مرة أخرى لصد تيمورلنك الذي عزم على غزو مصر، إلا أن هؤلاء النواب لم يتمكنوا من صد الهجوم المغولي، فاستولى المغول على حلب ووصل تيمور لنك إلى حماة وسلمية فأرسل جماعة من عسكره إلى نحو طرابلس فتاهوا عن الطريق فدخلوا في واد بين جبلين فوثب عليهم جماعة من عربان جبل نابلس فقتلوا منهم جماعة كثيرة بالنشاب والحجارة فولوا مدبرين. وذكروا أن ابن رمضان أمير التركمان جمع عساكره وجاء حلب بعد رحيل تيمور لنك وطرد من بها من عساكره بحلب. وفعل تيمور لنك بأهل حماة كما فعل بأهل حلب من القتل والنهب وأحرق معظمها. قال ابن حجر: وذكر بعض من يوثق به أنه قرأ في الحائط القبلي بالجامع الأموي النوري بحماة منقوشا على رخامة بالفارسي ما نصه: إن الله يسر لنا فتح البلاد والممالك حتى انتهى استخلاصنا إلى بغداد، فحاورنا سلطان مصر والشام فراسلناه لتتم المودة فقتلوا رسلنا، فظفرت طائفة من التركمان بجماعة من أصلنا فسجنوهم، فتوجهنا لاستخلاص قريبنا من أيدي مخالفينا واتفق في ذلك نزولنا بحماة في العشرين من شهر ربيع الآخرة[1].

وفي طريقهم إلى حمص دخلوا سلمية بدون مقاومة وأعملوا فيها الهدم والدمار مما دفع أهلها إلى الفرار منها إلى الجبال المجاورة وإلى مدينة حمص[2] ثم توجه المغول صوب حمص فانزعج أهلها، فمنهم من هرب إلى دمشق ومنهم من لجأ إلى قلعة حمص[3] وعمل تيمور لنك في حمص مثل عمله في حلب من أخذ الأموال والجواهر وإباحة النهب والسلب والقتل

---

(1) علاء الدين أبو الحسن بن خطيب الناصرية: الدر المنتخب في تكملة تاريخ حلب، مخطوط مكتبة دار الأوقاف الإسلامية حلب رقم 1212، ص 348 - 350. المقريزي: السلوك 1031/2 - 1035

(2) ابن تغري بردي: النجوم 179/12 - 181، أمين: سلمية ص 139.

(3) المقريزي: السلوك 1038/3.

وقطع الأشجار وهدم البيوت وإحراق المساجد وغيرها[1]، وقيل: إن تيمور لنك عندما دخل حمص ولم تطل يده إلى حمص فوهبها كما قال لخالد بن الوليد وقَبِل الهدايا من أهلها وعين فيها من ينوب عنه[2]. وعندما دخل تيمورلنك حمص قال له أهلها "نحن ندخل عليك بخالد بن الوليد فإنه مدفون عندنا أن لا تتعرض لنا" فأجابهم لذلك ولم يتعرض لهم.وأنشد ابن عربشاه:

ألا لا تجاور سوى الخيرين	أحيا وكن جارهم في القبور
ألم تر حمص وسكانها	نجوا من بحار بلايا تمور
لأنهم جاوروا خالدا	ومن جاور الأتقيا لا يبور[3]

وساهم جند نيابة حمص المحروسة في الحملة العسكرية التي جردتها السلطنة في الفترة ما بين (870 - 875هـ/ 1466 - 1470م) ضد شاه سوار الذي طمع في الإبلستين واستولى عليها وخرج عن الطاعة وضرب العملة باسمه وهدد بالاستيلاء على حلب[4].

وعندما هاجم السلطان سليم الأول بلاد الشام غادر السلطان الغوري مصر متوجهاً لشمال بلاد الشام حيث وصل حلب يوم الخميس 10 جمادى

---

(1) ابن الصيرفي: نزهة النفوس 93/2، حكيم أمين عبد السيد: قيام دولة المماليك الثانية، الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة 1966م ص 135، 136.

(2) أبو العباس شهاب الدين أحمد بن محمد الدمشقي بن عربشاه: عجائب المقدور في نوائب تيمور، تحقيق أحمد فايز الحمصي ط1، مؤسسة الرسالة، بيروت 1986م ص 229 - 231.

(3) ابن عربشاه: عجائب المقدور ص 229 - 231.

(4) ابن أجا الحلبي: تاريخ الأمير يشبك ص 34 - 40، 159، علي بن داود الخطيب الجوهري ابن الصيرفي: أنباء الهصر بأبناء العصر، حققه حسن حبشي، دار الفكر العربي، القاهرة 1970م ص 237.

الآخرة (922هـ/ 1516/7/3م) مصطحباً معه أمراء كل من نيابات بـلاده في غزة ودمشق وحمـص وحمـاة وطـرابلس، بالإضـافة إلى أتابـك العـسكر في البلاد الشامية سـودون العجمـي[1] وقـد كـان لجـيش نيابـة حمـص دوراً في المعركة العسكرية التي التقى فيها السلطان العثماني سليم الأول مع المماليك في مـرج دابـق (25 رجـب 922هـ / 24 آب 1516م)، وقاتـل جـيش نيابة حمص مع ميسرة الجيش المملوكي وكانت القيـادة فيهـا لنائـب دمـشق سيباي مع عساكر الـشام كاملـة[2]، وقتـل الأمـير أصـلان نائـب حمـص في هذه مرج دابق[3].

وفي يوم (29 رجـب 922هـ/ 28 أغـسطس 1516م) تمكـن الـسلطان سليم دخول حلب بكل يسر وسهولة مستقبلاً فيها بحفاوة من قبـل سـكانها، وتسارعت الأحداث لتسهيل زعامة العثمانيين للعام الإسلامي حيـث خاطـب خطيب الجمعة في حلب السلطان سليم بـ «خادم الحرمين الشريفين».وبذلك تمكن السلطان سليم من الاستحواذ على اللقب الـذي طالمـا كـان يحلـم بـه ولأجله حارب سلطنة المماليك.و كرّس السلطان سليم نفسه الزعيم الروحي والديني والمدني لبلاد الإسلام، ومنذ لـك الوقـت أطلـق علـى نفـسه لقـب «سلطان المسلمين»، وخلال أسبوع واحد من الـزمن حقـق الـسلطان سـليم أهداف حربه بكاملها من إلحاق الهزيمة بالمماليك وبسط السلطة العثمانيـة، وتـسلمه لزعامـة العـالم الإسـلامي، وحظـي بـاعتراف الـسادة في مكـة والمدينة[4].

---

(1)ابن إياس: بدائع الزهور 34/5

(2) خواجة، تاج التواريخ، ص332؛ صولاق زادة، صولاق زادة تاريخي، ص387.

(3) ابن إياس: بدائع الزهور 77/5.

(4) بارتولد، الخليفة والسلطان، ص68-72.

وبعد أن أقام السلطان سليم في حلب مدة من الزمن حَرَّك قواته باتجاه الشام، وبسبب خلو الطريق من الجراكسة سيطر عليها بلا مزاحم، وفي الطريق دخلت كلاً من حماة وحمص تحت طاعته، كما دخلت كثير من البلاد الشامية ومشايخ العربان تحت طاعته[1].

* * *

(1) رشيد، خريطة لي ورسمه، 226/1. كامل باشا، تاريخ سياسي، 1 /155. شرف، تاريخ دولت عثمانية، 214/1.

حركات العصيان الداخلية في نيابة حمص

أ- تمرد علم الدين سنجر (659هـ/ 1261م):

عانت الساحة السياسية في نيابات بلاد الشام أثناء الحكم المملوكي عدداً من حركات التمرد العصيان والثورات التي قام بها بعض نواب الشام ضد السلاطين المماليك وشارك بعض نواب حمص في عدد منها، فغداة اغتِيال السلطان المظفَّر قُطز، حيث انتهز المغول تلك الوفاة وما ترتَّب عليها مِن انشقاق في الجبهة الإسلاميَّة، حيث خرج الأمير علم الدين سنجر الحلبي نائب دمشق عن طاعة السلطان الظاهر بيبرس سنة (659هـ/ 1261م) وأعلن نفسه سلطاناً وتلقب بالملك المجاهد، وهو من أكابر أمراء المماليك الصالحية النجمية[1] وأول نائب للمماليك في دمشق عام 658هـ/1259م وشارك في معركة عين جالوت[2]. وبعد مقتل قطز واستلام الظاهر بيبرس وجد علم الدين الفرصة سانحة لتغيير الحكم في القاهرة، وقام بانتفاضة مسلحة ضد الحكم الجديد بداعي:

1- مقتل قطز الذي ولاه حاكماً على دمشق.

2- تولي بيبرس السلطة دون استشارة للأمراء.

---

(1) نسبة إلى الصالح نجم الدين أيوب، وقام نجم الدين بتربيتهم تربية مدنية وحربية في جزيرة الروضة.

(ابن عبد الظاهر): محي الدين (تشريف الأيام والعصور في سيرة الملك المنصور) تح: مراد كامل - القاهرة - 1961 - ص36.

(2) (اليونيني): قطب الدين أبو الفتح بن محمد (ذيل مرآة الزمان) حيدر أباد - 370/19541

فأعلن نفسه سلطاناً حاكماً على دمشق سنة 658هـ/1260م[1]، وحاول الظاهر بيبرس التعامل مع هذه القضية التي هددت حكمه بالوسائل السلمية لكن الأمر فشل. وقام علم الدين بتحصين قلعة دمشق[2]. وأرسل إلى الملك الأشرف موسى صاحب حمص ليدخل في طاعته، فرفض صاحب حمص ذلك تخوفاً من الظاهر بيبرس[3].

عندئذ قرر بيبرس القضاء عليه من خلال إرسال حملة عسكرية نجحت بإخماد فتنته والقضاء عليها، وسيق أسيراً إلى القاهرة سنة 659هـ/1261م. حيث عفا عنه الظاهر بيبرس[4] ونال مكانة جيدة بعد ذلك. وقد ترتب على ثورته غلاء الأسعار في نيابة دمشق وحمص، فوصل إلى بيع الخبز الرطل بدرهمين، واللحوم بثمانية عشر درهماً[5]. واستمر علم الدين سنجر يحظى بالاحترام في عهد خلفاء بيبرس كابنه بركه خان والمنصور قلاوون. الذي سرعان ما قبض عليه بعد أن كلفه بالقضاء على ثورة الأمير سنقر الأشقر خوفاً من ازدياد نفوذه وبقي كذلك إلى أن أفرج عنه السلطان الأشرف خليل بن قلاوون (690-693هـ/1291-1293م) وبقي معززاً مكرماً إلى أن مات سنة 693هـ/1292م[6].

---

(1) (خطاب): حنفي محمود (الحركات الداخلية في الدولة المملوكية الأولى) رسالة ماجستير غير منشورة - كلية الآداب - جامعة القاهرة - 1949 - ص54-55.

(2) المنصوري: بيبرس (التحفة المملوكية في الدولة التركية) تح: عبد الحميد حمدان - الدار المصرية اللبنانية - الطبعة الأولى 1987 - ص45.

(3) أبو الفداء: المختصر 208/4 - 210، ابن أبي الفضائل: النهج السديد ص 68، 69، أحمد مختار العبادي: قيام دولة المماليك الأولى في مصر والشام، دار النهضة العربية، بيروت 1986م، ص 178.

(4) النويري: نهاية الأرب - 30/31-39.

(5) (ابن طولون): محمد بن علي (إعلام الورى بمن وليّ نائباً من الأتراك بدمشق الكبرى) تح: عبد العظيم خطاب - القاهرة - 1973 - ص5.

(6) المقريزي: السلوك - 2 /246/ ابن تغري بردي: النجوم 8 /39 / ابن تغري بردي: المنهل الصافي - 6 /76 وما بعدها.

ب - حركة سنقر الأشقر (679هـ/ 1280م) :

قامت هذه الحركة قامت ضد السلطان قلاوون، والسبب في قيامها خروج بعض الأكابر والأمراء على حكمه لأنهم يأنفون الخضوع له، ولاعتقادهم أنهم أجدر منه بالسلطنة.

وقاد هذه الحركة سنقر الأشقر نائب دمشق الذي لم يرضَ عن التغيير الذي حصل وأوصل قلاوون إلى السلطة، ويبدو أنه كان يطمع بتولي السلطة، والدليل على ذلك أنه دعا أهل دمشق إلى الخروج على طاعة السلطان قلاوون وأعلن نفسه سلطاناً في (شهر ذي القعدة عام 678هـ/شهر نيسان1280م) وتلقب (بالملك الكامل)، وطلب من نواب الولايات في بلاد الشام الاعتراف به[1]، فمال إليه نائب حمص الأمير لأجين الكبير[2] وأمير العرب عيسى بن مهنا وأحمد بن حجي، وقد وصل الأميران إليه في الوقت الذي أخذ السلطان قلاوون يتجهز لحرب سنقر[3].

ولابد من الإشارة إلى الدور الهام الذي شغله الأمير عيسى بن مهنا في مساندة ومناصرة الأمير سنقر الأشقر ودخل في خدمته، ففرح الأشقر بذلك وأجلسه بجانبه، فأدرك السلطان المملوكي قلاوون خطورة هذه الحركة بعد انضمام آل فضل للتمرد ووقوفهم بجانبها، وهنا تكمن خطورة التمرد حيث كان السلطان يخشى من انتفاضة بقية عرب الشام الذين كانوا يؤيدون انفصال بلاد الشام عن مصر[4].

لكن السلطان قلاوون لم يقف موقف المتفرج من هذه الحركة خاصة وأنه يخشى انتفاضة الأمراء الظاهرية وأسرة بيبرس[5]، فأرسل قلاوون جيشاً بقيادة

---

(1) المقريزي: السلوك - ج3 - ص 212.

(2) ابن عبد الظاهر: تشريف الأيام ص 292، ابن الفرات، تاريخ 172/7، 222/8.

(3) اليونيني: ذيل 11/4، 40، أبو الفداء: المختصر 11/4

(4) (المحيميد): علي بن صالح (دور إمارة آل فضل السياسي في بلاد الشام إبان العصر المملوكي) مجلة جامعة أم القرى -ج17-ع29-1425هـ -ص460

(5) المنصوري: التحفة المنصورية - ص92.

علم الدين سنجر لمحاربة سنقر الذي لم يصمد أمام الجيش وحلت به الهزيمة[1]، لكنه حصل على نجدات سريعة من حلب وحماة وبعلبك واشتركت عساكر نيابة حمص وعرب عيسى بن مهنا مع سنقر الأشقر في المعركة التي وقعت بين الأمير سنقر وعساكر السلطنة في (19 صفر 679هـ/ 20 حزيران 1280م) وعلى أثرها هزم سنقر والتجأ ومن معه من الأمراء إلى الأمير عيسى بن مهنا ثم اتصل بايلخان المغول أبغا بن هولاكو (680 - 683هـ/ 1281 - 1284م) ووعده بمساعدته في الاستيلاء على بلاد الشام[2].

وفي نهاية المطاف عقد صلحاً مع السلطان: على أن يمنحه لقب ملك، ويحصل على أفاميا وكفر طاب وأنطاكية وصهيون، ويعين أميراً على ستمائة فارس باستثناء أتباعه، وهكذا انتهت حركته بشكل سلمي[3].

ج - خروج الأمير قرا سنقر المنصوري نائب حلب[4] (711هـ/1311م)

تعد شخصية قراسنقر المنصوري من الشخصيات الهامة في التاريخ المملوكي فقد عاصر السلطان المنصور سيف الدين قلاوون(678 -689هـ/ 1279م-1289م) وابْنَيْهِ الأشرف خليل (690-693هـ/1290-1293م) والناصر محمد - في فترات حكمه الثلاث- والعادل سيف الدين كتبغا، والمنصور حسام الدين لاجين.

(1) (العيني): محمود بن أحمد (عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان) تح: عبد الرزاق الطنطاوي - الزهراء للإعلام العربي - ط - بيروت - 1989 - ج2 - ص 242.

(2) اليونيني: ذيل 11/4، 40، 41، ابن الفرات: تاريخ 167/7، 172، المقريزي: السلوك 674/1، 675، الحياري: الإمارة الطائية ص 109.

(3) المنصوري: المصدر السابق ص94 / النويري: نهاية الأرب - 31 /21-22.

(4) وقع الباحث الطراونة في وهم عندما جعل هذا التمرد في فترة نيابة قرا سنقر على دمشق في حين أنها كانت بعد نقله لنيابة حلب (أي أنه كان نائباً لحلب وليس لدمشق) الطراونة: المرجع السابق ص88

ففي سلطنة السلطان الناصر محمدلم تكن العلاقات قد تحسنت وأصبحت جيدة بينه وبين الأمير مهنا التي سرعان ما تعكر صفوها بسبب حركة التمرد التي قام بها نائب حلب قراسنقر المنصوري وبعد ذلك في سنة 711هـ / 1311م اجتمع الأمير قراسنقر المنصوري نائب السلطنة في حلب عقب عودته من تأدية فريضة الحج وصدور مرسوم سلطاني بمنعه من دخول حلب، ومنعه القضاة من دخول حلب عنوة حتى لا تتحول مسرحاً للسلب والنهب، وفي هذا الوقت وصل له طوق النجاة من خلال الأمير مهنا الذي دعمه بقوات مكنته من دعم موقفه للوقوف ضد السلطان وقواته، وأعلن خروجه عن طاعة السلطان الناصر محمد بن قلاوون وعَمِل على تقوية موقفه من خلال تواصله بنواب الشام وحرضهم ضد السلطان الناصر محمد[(1)] لإتباعه سياسة الإبعاد والاعتقال والقتل مع الأمراء الذين شاركوا في مقتل الأشرف خليل وكان قراسنقر أحدهم، فمال إليه نائب حمص الأمير ركن الدين بيبرس العلائي[(2)] لذلك قبض السلطان على (بيبرس العلائي) سنة 712هـ / 1312م بعد انتهاء هذه الحركة ونفي إلى الكرك وبقي فيها حتى وفاته[(3)]. وكذلك انضم إليهم الأمير جمال الدين الأفرم والأمير بدر الددين الزردكاش، ولكنه لم يستطيع الصمود أمام هجمات قوات السلطان وملاحقاتهم له قبل أن ينتهي به المطاف طريداً في بلاط خان المغول خدابنده؛ الذي رحّب به لعظم مكانته وعلمه

---

(1) قراسنقر الجوكندار الجركسي المنصوري: اشتراه المنصور قلاوون قبل أن يصبح سلطاناً، سعى بتقل ملك الأشرف خليل، عين نائباً بدمشق وبقي فيها إلى أن أعلن عصيانه سنة 711هـ / 1311م انتهت حركته بالتجائه إلى أمير العرب مهنا بن عيسى ثم رحل من عنده إلى خدبندا ايلخان المغول واقطعه مراغة وبقي فيها حتى وفاته سنة 728هـ / 1327م.ابن حجر: الدرر 230/3 - 232.

(2) ابن بطوطة: تحفة النظار ص 96، المقريزي: السلوك 108/3.

(3) ابن أيبك الدواداري: كنز الدرر 109/9، 110، 346، ابن الوردي: تتمة المختصر ص 277، ابن كثير: البداية 67/14، المقريزي: السلوك 100/2، ابن حجر: الدرر 42/2.

ببواطن وأسرار الدولة المملوكية، في الوقت الذي سيّر فيه الناصر محمد بن قلاوون جيشاً من طائفة (الحشاشين) الفداوية طلباً لرأسه[1].

د- يلبغا اليحياوي الناصري نائب دمشق (747هـ / 1346م)

يلبغا اليحياوي نائب دمشق قال عنه الصفدي: "الأمير الكبير سيف الدين ابن الأمير سيف الدين طابطا الناصري نائب[دمشق سنة 746هـ / 1345م ومن ثم حلب وحماه، كان من أكبر الخاصكية ولم يكن في آخر الأمر عند السلطان الملك الناصر أعز منه"[2].

في سنة 747هـ/ 1346م اتصل الأمير يلبغا اليحياوي الناصري نائب دمشق بنواب الشام لمناصرته في القيام بخلع الملك الكامل شعبان بن الناصر محمد وتولية أخيه حاجي بدلاً منه لكثرة ما كان يعتقل من الأمراء دون مبرر، وبرز إلى الجسور بدمشق في سنة سبع وأربعين وأقام هناك أياماً وحضر إليه الأمير حسام الدين طرنطاي البشمقدار نائب حمص والأمير سيف الدين أراق نائب صفد والأمير سيف الدين أسندمر نائب حماة والأمير سيف الدين بيدمر البدري نائب طرابلس واجتمع الكل عنده بظاهر دمشق وعسكر دمشق بأجمعهم وكاتبوا السلطان الكامل وخلعوه وظاهروه بالخروج عليه وعدم الطاعة وخلعه، وكتبوا إلى القاهرة يطلبون خلع الكامل شعبان[3] وقد استطاع السلطان الكامل القضاء على هذه الحركة دون قتال عن طريق عزل المشركين بهاء فعزل نائب حمص حسام الدين البشمقدار وعين بيدمر البدري بدلاً منه[4]،

---

(1) لمزيد من المعلومات عن قراسنقر وتمرده راجع (عبد الفتاح): سند أحمد (الأمير شمس الدين قراسنقر المنصوري اشكالياته في ضوء المصادر المملوكية- مجلة حوليات الآداب والعلوم الاجتماعية- الكويت - العدد 484-2017 ص 68 وما بعد

(2) الوافي بالوفيات - الصفدي - 22/9

(3) ابن الوردي تتمة المختصر 491/2، الصفدي: أعيان 330/3 - 331، المقريزي: السلوك 708/2، ابن تغري بردي: النجوم 108/10، 125 - 134.

(4) الحسيني: ذيل العبر 140/4، 141، المقريزي: السلوك 632/2، ابن تغري بردي: النجوم 84/10 - 131.

وذكر الصفدي نهايته بتفصيل حيث قال:"أمسك والده وأخويه قراكز وأسندمر والدوادار عز الدين طقطاي وسيف الدين جوبان والأمير سيف الدين قلاوون والأمير ناصر الدين محمد بن جمق وقيدهم وجهز سيوفهم إلى السلطان ثم بعد ذلك جهز الأمير سيف الدين يلبغا وولده مقيدين إلى السلطان فلما وصل إلى قاقون كان قد وصل إليها الأمير سيف الدين منجك فأطلعوه إلى القلعة ومعه والده وحبسوهما في بيتين مفردين ثم أنزلوا والده من قلعة قاقون وجهز على البريد إلى السلطان آخر النهار وطلع إلى سيف الدين يلبغا مشاعليان فأحس بذلك وسألهما الوضوء والصلاة ركعتين ولما فرغ قال لهما بالله عليكما هوناها علي فقالا له يا خوند إن أردت ذلك فدعنا ندير كتافك فمكنهما من نفسه وخنقاه فسمع الناس شهقته من أسفل القلعة ثم حز رأسه ووضع في عسل وجهز إلى السلطان ثم دفنت جثته بقاقون رحمه الله تعالى وسامحه وكان ذلك في العشر الأواخر من جمادى الأولى سنة ثمان وأربعين وسبع مائة"[1].

هـ- تمرد منطاش ويلبغا الناصري ضد الظاهر برقوق(791هـ / 1489م)

وفي سنة 791هـ/ 1489م أعلن الأمير تمربغا الأشرفي المشهور بمنطاش العصيان على السلطان الظاهر برقوق واستقل في نيابته وأخذ في جمع الأمراء المماليك والأتراك الذين نفاهم السلطان برقوق استعداداً لمقاومة السلطان وإعلان العصيان، ثم قام أمير تركي آخر هو يلبغا الناصري بحركة مناهضة للسلطان برقوق في بلاد الشام واستمال يلبغا الناصري منطاش ومن معه وقرروا خلع السلطان برقوق، وتم لهم ذلك، وأعادوا السلطان المظفر حاجي[2].

وفي الوقت الذي تحالف فيه منطاش ويلبغا على خلع السلطان برقوق سار منطاش بعساكره وتمكن من الاستيلاء على حمص بعد هزيمة عسكر السلطان،

---

(1) الوافي بالوفيات - الصفدي - 24/9

(2) ابن حجر: الدرر 135/5، 136، ابن تغري بردي: النجوم 211/11 - 230، 251 - 258.

ولما علم السلطان برقوق بذلك جهز حملة عسكرية لقتال الناصري ومنطاش اللذين كانا مجتمعين على حمص، وبعد فشل الحملة توجه لحصار دمشق[1]. ولما فصل منطاش عن دمشق خرج أشمس من محبسه وملك القلعة ومعه مماليك السلطان وأرسل إلى الجوباني بالخبر فأغذ السير إلى دمشق وجلس بموضع نيابته وقبض على من بقي من أصحاب منطاش وخدمه مع من كان حبس هو معهم، ووصل الطنبغا الحلبي ودمرداش اليوسفي من طرابلس.

وكان منطاش استقدمهم وهرب قبل وصولهم وبلغ الخبر إلى أيماز تمر وهو يحاصر حلب وأهل كانفوسا معصوصبون عليه فأجفل ولحق بمنطاش وركب كمشيقا من القلعة إليهم بعد أن أصلح الجسر وأركب معه الحجاب وقاتل أهل كانفوسا ومن معهم من أشياع منطاش ثلاثة أيام، ثم هزموهم وقتل منهم أكثر من ثمانمائة وخرب وبعث الجوباني العساكر إلى طرابلس وملكوها من يد قشتمر الأشرفي نائب منطاش من غير قتال وكذلك حماة وحمص[2].

وعندما علم منطاش أن السلطان برقوق قد خلص من سجنه في الكرك وأخذ يعمل لاستعادة عرش السلطنة سار إلى الشام ومعه السلطان المظفر حاجي وهزم في المعركة التي دارت بينه وبين برقوق عند شقحب سنة 792هـ/1390م، ثم هرب إلى دمشق واعتصم فيها[3].

ولما استقر السلطان برقوق في مصر أرسل تجريدة بقيادة بليغا الناصري لمحاربة منطاش تمكنت بمساعدة نواب طرابلس وحماة من هزيمة منطاش عند سلمية في شعبان سنة 792هـ/ تموز 1390م وقَتل عدد من عرب آل فضل وتسلَم مدينة حمص[4].

---

(1) ابن صصرى: الدرة المضيئة ص 3 - 6، 8، 75.

(2) ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون 167/5

(3) ابن حجر: الدرر 134/4 - 136، ابن صصرى: الدرة المضيئة ص 63.

(4) ابن الفرات: تاريخ 217/9 - 222، ابن خلدون: العبر 561/5، 562

ومع تقدم الوقت دخل منطاش حماة ونـادى فيهـا بالأمـان ثم سـار منـها إلى حمص استطاع المتمرد منطاش دخول حمص والاستيلاء عليها في شهر رجب سنة 793هـ/تموز1391م، كذلك ثم إلى بعلبك وهرب نائبها إلى دمشق فخرج الناصري نائب دمشق في العساكر لمدافعته وسار علـى طريـق الزبـداني فخالفـه منطـاش إلى دمشق مما دفع السلطان برقوق للتوجه على رأس حملة عسكرية لمحاربته، وتمكن السلطان من دخول حمص في شوال 793هـ/ تشرين أول 1391م، وأقام فيهـا فتـرة قصيرة من الوقت دون أن يتمكن من العثور على منطاش[1].

لم يتوقف منطاش عن سياسته المعادية للسلطان برقوق ووجد في شخصية نعير بن حيار الحليف القوي الذي يمكن التعاون معه في توحيد الـصفوف تجـاه السلطان برقوق، واتفق الاثنان على مهاجمة سلمية سنة 794هـ / 1392م إلا أن حدثاً مفاجئاً ظهر للوجود غير مسار الأحداث متمثلاً بوصول الأمير محمـد بـن قارة الذي للإمارة على أميراً آل فضل عوضاً عن الحليف السابق نعـير، وكـذلك تَمَكْن السلطان برقوق من كسب ود القبائل التركمانية الموالية للسلطنة المملوكية تمكن برقوق من منطاش وحليفه والقضاء عليهما[2].

ولا نستطيع إخفاء الدور القوي لجـيش نيابـة حمـص ومـساندته للـسلطنة المركزية وسلطانها برقوق مع بقية العساكر في نيابات الشام في قتال منطـاش إلى أن قضي على حركته تماماً سنة 795هـ/ 1393م بالتعاون مع الأمير نعـير حليـف منطاش فحرضه ضده واستماله الظـاهر برقـوق وأمنـه، فغـدر بمنطـاش وألقـى القبض عليه وأرسله إلى حلب، وقتل بها وأرسل رأسـه إلى القـاهرة ليطـاف بـه هناك، تمت تصفية تمرد منطاش على يد الحليف السابق وصديق الأمـس الـذي تحول لعدو اليوم حيث لا ثابت في السياسة والمصالح تغير كل ثابت تغير[3].

---

(1) ابن خلدون: العبر 567/5، 568، ابن دقماق: الجـوهر الـثمين 282/2، ابـن حجـر: إنباء 57/3، المقريزي: السلوك 741/3

(2) ابن خلون: تاريخ ابن خلدون 177/5 ابن الفرات: تاريخ 331/9، 332.

(3) ابن حجر: الدرر 136/5، الطراونة: المرجع السابق ص91

وبعد وفاة السلطان الملك الظاهر برقوق وتولي ابنه الناصر فرج عرش السلطنة سنة 801هـ / 1399م أعلن الأمير تنم الحسني أحد مماليك الظاهر برقوق، حيث تم تعيينه في نيابة دمشق سنة 797هـ/ 1294م نائباً لها، أعلن العصيان بعد وفاة برقوق وأخذ يستميل نواب النيابات الشامية للقيام معه في حركته فامتنع نائب حمص الأمير تمان بغا الحسيني عن مساندته، وأخذ نائب حمص قلعة حمص من نائبها خوفاً من عصيانه مع تنم وتأميناً للمدينة من أي محاولة للضرر بها من سطح القلعة المشرفة على المدينة، لذلك توجه تنم بعساكره إلى حمص واستولى عليها وأقام عليها نائباً من قبله[1].ومال إلى تنم عدداً من نواب الشام واستمر في عصيانه حتى هزم بالقرب من غزة سنة 802هـ / 1400م حيث ألقي القبض عليه وقتل في العام نفسه على حد قول المؤرخ السخاوي[2].

أهل شهر جمادى الأولى سنة (807هـ/1404م) والفتنة قائمة بين أمراء الدولة المملوكية، وذلك أن الأمير يشبك هو زعيم الدولة، بيده جميع أمورها من الولاية والعزل، والنقض والإبرام، وصار له عصبة كبيرة، فأحبوا عزل الأمير إينال باي ابن الأمير قجماس ابن عم الملك الظاهر برقوق من وظيفة أمير أخور، وذلك أنه اختص بالسلطان لأمور منها قرابته، ثم مصاهرته إياه[3].

تأثرت نيابة حمص خلال العصر المملوكي شأنها شأن النيابات الشامية الأخرى من الصراع الذي جرى بين السلطان الناصر فرج وكبار الأمراء المماليك الذين نافسوه السلطة وخرجوا عليه وهم: أبو الفرج جكم الظاهري وشيخ المحمودي ونوروز الحافظي وذلك عندما أعلن جكم نائب حلب خروجه عن الطاعة سنة 807هـ / 1404م واستولى على حلب فمال إليه شيخ المحمودي نائب دمشق[4] وخضعت له حمص بالقوة وأطاعه عدد كبير من العرب والتركمان.

---

(1) المقريزي: السلوك 99/3.السخاوي: الضوء اللامع 44/3،.

(2) السخاوي: الضوء اللامع 44/2.

(3) ابن تغري بردي: النجوم 286/12.

(4) ابن تغري بردي: النجوم 287/12.

في خامس ذي الحجة اقتتل الأمير جكم، والأمير شيخ المحمودي نائب الشام، بأرض الرستن - فيما بين حماة وحمص -، قتل فيها الأمير طولو نائب صفد، والأمير علاق نائب حماة، وجماعة كثيرة من الفريقين، وانهزم الأمير شيخ ومعه الأمير دمرداش المحمدي إلى دمشق، ومضى منها إلى الرملة يريد القاهرة، فإن الأمير شيخ توجه من دمشق بعد عيد الأضحى، ومعه الأمير دمرداش، فنزل مرج عذراء في عسكره يريد حمص، وقد نزل بها عسكر جكم عليهم الأمير، ونزل جكم على سلمية، فلبس الأمير دمرداش خلعة نيابة حلب الواصلة إليه مع تقليده وهو بالمرج، وقدم إليهم الأمير عجل ابن نعير بعربه طالباً أخذ ثأره من جكم، ووصل أيضاً ابن صاحب الباز يريد أيضاً أخذ ثأر أخيه من جكم، ومعه جع من التركمان، فسار بهم الأمير شيخ من المرج إلى أن نزل قارة ليلة الثلاثاء، فوصل تقليد العجل بن نعير بإمرة العرب، وقدم الأمير علان نائب حماة وحلب - كان - من مصر، وقد استقر أتابك دمشق، وبعد هزيمة العساكر المتوجهة إلى مصر برفقة شيخ جكم لعزل الناصر فرج عن السلطنة في مصر دبَّ الخلاف بين شيخ وجكم، فمال شيخ إلى طاعة الناصر فرج وبقي جكم على عصيانه، وأخذ كل منهما يعد العدة لمحاربة الآخر ووصل جكم إلى سلمية وأقام فيها وأرسل إلى حمص من يمنعها من شيخ وفي الوقت ذاته سار شيخ يريد حمص ووصلها في ذي الحجة سنة 808هـ / أيار 1405م ولفشل محاولات الصلح جرت بينهما موقعة بالرستن على نهر العاصي بين حمص وحماة في ذي الحجة 808هـ / أيار 1405م. وأثناء وجود الناصر فرج في دمشق فرَّ نوروز منها إلى حمص في جمادى الأولى سنة 809هـ / 1406م وأرسل شيخ حملة لمحاربته[1]. ونزل الأمير شيخ حمص يوم فكاتب الفريقان في الصلح فلم يتم، واقتتلا بالقرب من الرستن، فوقف الأمير شيخ والأمراء في الميمنة، ووقف العرب في الميسرة، فحمل جكم بمن معه على جهة الأمير شيخ فكسره، وتحول

(1) ابن إياس: بدائع الزهور ج1 ق 2، ص 765.

إلى جهة العرب - وقد صار شيخ إليها وقاتلوا قتالاً كبيراً ثبتوا فيه، فلـم يطيقـوا جموع جكم وانهزموا، وقتل عدد من أتباعه شيخ وسار شـيخ بمـن معـه - مـن دمرداش وغيره - إلى دمشق، فدخلوها وجمعوا الخيول والبغـال، وأصـحابهم متلاحقيين بها، ثم مضوا من دمـشق، فخـرج النـاس إلى لقـاء نـوروز، فـدخل دمشق ودخل الأمير جكم ونادى ألا يشوش أحد على أحد، وكان قد شنق رجلاً في حلب رعى فرسه في زرع، وشنق آخر بسلمية، ثم شنق جندياً بدمـشق علـى ذلك، فخافه الناس، وانكفوا عن التظاهر بالخمر، وقتل في وقعة الرستن الأمير علان نائب حماة وحلب، والأمير طولو نائب صفد، قدما بين يدي الأمير جكم فضرب أعناقهما، وعنق طواشي كان في خدمة الأمير شيخ، كان يؤذي جماعـة نوروز المسجونين، ومضى الأمير شيخ إلى جهة الرملة.

وبعد عودة الناصر فرج إلى مصر تمكـن جكـم ونـوروز مـن الرجـوع إلى دمشق وطرد شيخ منها حيث التجأ إلى صفد وسيطر عليها باسـم الـسلطان سـنة 809هـ / 1406م.

وبعد فترة وجيزة أعلن شيخ العصيان على الملك الناصر فرج وأخذ يعمل على خلعه من السلطنة، وتأثرت نيابة حمص من هذا الصراع، ففي سنة 810هــ / 1407م أقام شيخ في أقل من ألف فارس على حمص واشـتد علـى أهلـها في طلب الأموال، فكتب السلطان إلى الأمـير نـوروز الـذي كـان في مدينـة حلـب لمحاربته بعد أن ولاه نيابة دمشق، فامتثل نوروز لأمر السلطان والتقى مع عسكر شيخ قرب بعلبك وهزمها، ولما بلغ شيخ نبأ الهزيمة التي حلت بعساكره هـرب من دمشق واستولى عليها نوروز دون قتال، وبقيت حمص خاضعة لـشيخ رغـم محاربة نوروز له[1].

ولما أدرك شيخ خطة الناصر فرج القائمة على التفريق بينه وبينه نوروز وبما أنه كان يسعى لاعتلاء عرش السلطنة، فقد أعاد تحالفه مع نـوروز واتفقـا علـى

---

(1) ابن إياس: بدائع الزهور ج1 ق 2، ص 767.

إسقاط اسم فرج من الخطبة في النيابات الشامية، واجتمعا على حمص وعندما علما بمسير السلطان إليهما التجأ شيخ إلى قلعة صرخد وتمكن من هزيمة السلطان فرج وسجنه في قلعة دمشق حيث دخل عليه بعض مماليك أبيه فقتلوه سنة 815هـ / 1412م[1].

وبعد الحادثة الأخيرة لم تزودنا المصادر التاريخية ولم تمدنا بأي معلومات أو إشارات عن مشاركة نواب نيابة حمص أو تأثرت نيابة حمص بحركات العصيان والتمرد والخروج ضد السلطنة المملوكية في القاهرة لاحقاً.

***

(1) الطراونة: المرجع السابق ص 93-94

الحياة الاقتصادية في نيابة حمص المملوكية

أولاً : الزراعة :

نمت الزراعة في حمص حيث مثلت الحرفة الرئيسية والمورد الأساسي للسكان، نتيجة تنوع الظروف المناخية، إلى جانب أرضها السهلية الخصبة، وتوفر المياه عن طريق الأمطار ونهر العاصي، حيث كانت الزراعة تعتمد على الأمطار بالدرجة الأولى، وهناك مناطق توقفت زراعتها على مياه الأمطار أكثر من غيرها كفلسطين وحمص لذلك فإن تأخر الأمطار أو انحباسها في تلك المدن هو الذي يقرر مصير المواسم الزراعية فيها وبالتالي يؤدي إلى كوارث، فالجفاف يعني القضاء على الزراعة وارتفاع الأسعار فضلاً عن هلاك الكثير من الفلاحين والحيوانات[1].

ولعل شهرة حمص متأتية من وجود نهر العاصي وبحيرة حمص مما أعطى لها أهمية كبرى في موقعها الجغرافي وأثرا في ديمومة الحياة الزراعية. وقد قسمت الأراضي الزراعية في عهد المماليك في نيابة حمص المحروسة من حيث ملكيتها إلى:

1 - **أراضي الملك أو "الخاص"**: وهي ملك لأصحابها حصلوا عليها عن طريق الشراء أو الإرث ولا علاقة للدولة بها إلا فيما يتعلق بالضرائب.

2 - **أراضي السلطان** : وهي ملك خاص بالسلطان، ويشرف عليها موظف مقيم في حمص، حيث وجد للأمير تنكز الحسامي (712 - 741هـ / 1312م - 1340م) أملاك في مدينة حمص وولاية قارة، أما أملاكه من الأراضي في الأولى

---

(1) النويري، نهاية الأرب، 8/255.

فتقدر قيمتها بسبعة آلاف درهم[1] وأما في قارة فقد كانت في الصالحية ومزارعها والقصبة والمزرعة والبنيسية وتقدر جميعها بحوالي (303) ألف درهم[2].

3 - إقطاعات المماليك : وكـان الفلاحـون يقومـون بزراعتـها، ويـديرها الأمراء المماليك. وكان المماليك يمنحون الإقطاعات في نيابة حمص لعدد مـن شيوخ القبائل لاستمالتهم إلى الطاعة وللكف عـن الاعتـداء علـى قوافـل الحـج والتجار، ومهاجمة الحواضر ونهب غلاتها[3]، وللاستعانة بهم في حراسة الطرق ومعاقبة قطاعها وإرسال الخيل الأصـيلة هـدايا للـسلطان في مطلـع كـل عـام، والمساهمة كقوات مساعدة في بعض التجاريد العسكرية[4] فقد أقطـع الـسلطان الظاهر بيبرس سلمية لعيسى بن مهنا سنة 658هـ / 1280م[5]، واقطـع الـسلطان المنصور قلاوون الأمير فخر الدين عثمان بن هبة سنة 679هـ / 1280م المنطقـة الممتدة من الرستن إلى الملوحة[6].

4 - أراضي الوقف : ولا يجوز بيعها، وكانت تؤجر ضمن شـروط يعينـها الواقف[7]، وفي هذا الصدد نجد عدداً مـن المـصالح الـتي وقفهـا الأمـير تنكـز الحسامي نائب دمشق المشهور على بعض المصالح في مدينة دمشق، فقد أوقف الحمام القديم بحمص على دار الحديث الـسكرية[8] عنـدما أكمـل بناءهـا سـنة

---

(1) الصفدي: الوافي 431/10

(2) ابن شاكر الكتبي: فوات الوفيات 258/1.

(3) أبو الفداء: المختصر 78/4

(4) ا.ن بوليالك: الإقطاعية في مصر وسوريا وفلسطين ولبنان، ترجمة عـاطف كـريم ط1 دار المكشوف بيروت 1948م ص 38.

(5) ابن كثير: البداية 234/13

(6) ابن الفرات: تاريخ 177/7.

(7) العلبي: دمشق بين عصر المماليك والعثمانيين - ص329-330.

(8) دار الحديث السكرية: بالقصاصين داخل باب الجابية في دمـشق.عبـد القـادر بـن أحمـد النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس 2ج حققه جعفر الحـسيني، مطبعـة الترقـي دمـشق 1948 - 1951م 74/1.

(739هـ/1339م)[1]، وأوقف عدة حوانيت بحمص على جامعه بدمشق[2] كما وقفت عدة حوانيت تجار بحمص على الخانقاة الشريفية[3].

تقد الموقوفات السابقة تحت الوقف الخيري الذي يوقف على المنشآت الدينية والعامة، ولا تتوفر معلومات تشير صراحة عن الوقفيات الذُرية التي يوقفها الشخص على ذريته من أملاك، وتعد أوقاف منجك اليوسفي وصالحة خاتون من الوقف الذري، فقد وقف الأمير منجك اليوسفي قرية حسياء إحدى قرى حمص[4] إلا أننا لم نعرف على من وقفها، ووقفت صالحة خاتون دير عطية حيث يقول محمد كرد علي في خطط الشام: "من الوقفيات الغريبة التي أطلعنا عليها حجة نقلت حوالي المائة العاشرة عن حجة كتبت عام 807هـ/ 1404م جاء فيها: "إن الست الجليلة صالحة خاتون ابنة الأمير الكبير صلاح الدين بن بهلوان بن الأمير الكبير شمس الدين الآمدي، وقفت وحبست وأبدت من صحة منها وسلامة وجواز أمرها جميع الضياع المتلاصقات المعروفات بوادي الذخائر بمحل دمشق المحروسة وتعرف إحداهن بالبويضا والثانية بالريصا والثالثة بالحميرا، والرابعة بدير عطية، والخامسة بالحمراء"[5].

على أن هناك منشآت دينية في حمص وقفت عليها مصالح من خارج حمص، فقد وقف السلطان الظاهر بيبرس بعد أن فتح صفد قرية فرعم على قبر خالد بن الوليد بحمص[6].

---

(1) ابن كثير: البداية 195/14.

(2) الصفدي: أعيان 227/1.

(3) النعيمي: الدارس 163/2، 164.

الخانقاه الشريفي: تقع شرقي دار الحديث الأشرقية وملاصقة للمدرسة الطومانية شرقي باب قلعة دمشق وغربي العادلية الصفرى.النعيمي: الدارس 163/2.

(4) ابن الجيعان: القول المستظرف ص 79.

(5) كرد علي: خطط الشام 95/5، زكريا: جولة أثرية ص 276.

(6) شافع بن علي بن عباس: حسن المناقب السرية المنتزعة من السيرة الظاهرية حققه عبد العزيز الخويطر، الرياض 1976م، ص 111. ابن سباط: صدق الأخبار 454/1.

5 - **أراضي البدو** : وهي ليست ملكاً لهم، ولم تستطع يد السلطان الوصول إليها.

وقد جرى مسحاً للأراضي الزراعية خلال العصر المملوكي مرتين:

الأول: سنة (697هـ/1298م) وهو المعروف بالروك الحسامي.

والثانية: سنة (715هـ/1315م) وعرف بالروك الناصري[1]. فقد مُنح الأمير سيف الدين بهادر آص[2] من أراضي نيابة حمص قبل الروك (الروك الناصري سنة 713هـ/1313م) الأراضي في وادي نهر العاصي إضافة إلى أرض المزارات في مدينة حمص[3].

والروك : اصطلاح عُرف في القرون الوسطى معناه عملية المسح وتقسيم الأراضي ودراسة خصبها وإمكانياتها الزراعية[4].

أما السبب في ذلك من أجل تمكين الدولة من فرض الضرائب المناسبة والعادلة. ولم يكن هذا الاصطلاح حديثاً على الدولة المملوكية، فقد استخدمه صلاح الدين الأيوبي وذلك سنة (577هـ/1181م)، وسنة (581هـ/1185م). وكانت القاعدة عند المماليك أن تُرَاك الأرض كل ثلاثين عاماً بسبب التغيرات التي تطرأ على الأرض أو السكان أو الدولة، وكانت هذه المدة تزيد أو تنقص وفقاً لحاجة الدولة[5]. ونتيجة لعملية الروك التي أجريت سنة (715هـ/1315م) أن زادت مقاطعات نيابة الشام إلى مائتي مقاطعة[6].

---

(1) الزيدي: العصر المملوكي- ص232.

(2) المقريزي: السلوك 104/2، 105، 118

(3) الصفدي: الوافي 297/10، 298.

(4) مكي: (لبنان من الفتح العربي إلى الفتح العثماني) دار النهار - الطبعة الرابعة - بيروت - 1991 ص243.

(5) حسن: دراسات في تاريخ المماليك - ص434.

(6) مكي: المرجع السابق - ص95-96.

لم يكن باستطاعة الفلاح التهرب من الزراعة والعمل في الأرض السلطانية وأراضي الإقطاعات، ولم يكن قادراً على التهرب من زراعة الأرض، أو إهمالها وتزرع الأرض بعد هطول مطر الخريف الذي يسمى "الوسمي" بالزراعات الشتوية التي كان من أهمها: القمح والشعير، والشوفان، والعدس، والكرسنة، والجلبان، والفول، والبازلاء[1].

وفي كثير منالأحيان كانت الإقطاعات تُسترجع من زعماء القبائل بسبب خروجهم عن الطاعة، وتوزَع على أمراء العرب الذين كانوا لا يزالون على الطاعة ففي أعقاب القضاء على حركة سنقر الأشقر سنة 679هـ/1280م عزل السلطان قلاوون عيسى بن مهنا عن إمرة العرب وأخذ إقطاعه وأعطاه للأمراء عثمان بن مانع بن هبة، ومحمد بن أبي بكر، ودراج بن الطاهر[2]، وفي سنة 720هـ/1320م أمر السلطان الناصر محمد بقطع أخباز آل عيسى وطردهم لخروجهم عن الطاعة فقُطعت أخبازهم ورحلوا عن سلمية[3] واستمر خروج الأمير مهنا حتى سنة 734هـ/ 1334م حيث أعيدت له الإمرة والإقطاعات[4]، وفي سنة 793هـ/1391م استرد السلطان برقوق إقطاع نعير بن حيار بسبب مشاركته في حركة منطاش[5]، وفي سنة 746هـ/1345م أعيد إقطاع فياض بن مهنا إليه واستعيد ما كان بأيدي البدو الكثير من الإقطاعات[6].

وفي بعض الأحيان اتخذت موقفاً إيجابياً، مثل الظاهر بيبرس، الذي استخدم العنف ضد العربان. وقام بحملات تأديبية لردعهم عن تكرار الأعمال

---

(1) (البدري): عبد الله محمد (نزهة الأنام في محاسن الشام) دار الرائد العربي – الطبعة الأولى – بيروت – 1980 – ص227-258.

(2) ابن الفرات: تاريخ 177/7

(3) أبو الفداء: المختصر 88/4، 89، مكاحلة: الزراعة ص 75.

(4) ابن الوردي: تتمة المختصر 440/2، ابن أيبك الدواداري: كنز الدرر 479/9.

(5) ابن الخطيب النصاري: الدر المنتخب 210/2.

(6) ابن الوردي: تتمة المختصر 489/2، مكاحلة: الزراعة ص 75.

العدوانية ضد الفلاحين ، لكن هذه الحملات وغيرها، لم تكن لتضع حداً نهائياً لأعمال هؤلاء، ودائماً ما كانوا ينكثون بوعودهم للسلطان بمجرد عودة الجيوش. وحاول بعض السلاطين درء خطر هؤلاء العربان من خلال إدخال عـشائرهم في إطار النظام الإقطاعي[1] وقد عانى الفلاح فيما عانـاه أيـضاً مـن هجمـات البـدو المتكررة، التي كانت تنتقل خلف المراعي من مكان إلى آخر ومـن أشـهر هـذه العشائر كان آل فضل وآل مهنا، وآل عيسى، وآل مرة، وآل علي، وكانوا دائماً ينتهزون الفرصة للتحرش بالفلاحين حيناً، والانقضاض على المحاصيل الزراعية حيناً آخر وهنا نتساءل عن موقف الدولة من هذه الهجمات[2].

أما بالنسبة لرجال الدولة من هجمات البدو فلم يتخـذوا موقفـاً ثابتـاً مـن إضرارهم بالفلاحين فكان موقفهم سلبياً هذه الهجمات أثناء الفـتن والمنازعـات الداخلية والغزو الخارجي، ولذلك لكسب البدو[3].

وأحياناً اتخذت موقفاً إيجابياً، مثل الظاهر بيبرس، الذي استخدم العنـف ضد العربان.وقام بحملات تأديبية لردعهم عن تكـرار الأعمـال العدوانيـة ضـد الفلاحين، لكن هذه الحمـلات وغيرهـا، لم تكـن لتـضع حـداً نهائيـاً لأعمـال هؤلاء، ودائماً ما كانوا ينكثون بوعودهم للسلطان بمجرد عودة الجيوش.وحاول بعض السلاطين درء خطر هؤلاء العربان من خـلال إدخـال عـشائرهم في إطـار النظام الإقطاعي[4].

---

(1) للاستزادة حول أوضاع الفلاحين خلال العصر المملوكي راجع: زيتون: ملامح من تاريخ الفلاحين.

(2) (الحزوري): حسام الدين (الحركة الفكرية في نيابة دمشق في عصر المماليـك البحريـة)- الهيئة العامة السورية للكتاب- دمشق- 2009-ص57

(3) زيتون: عادل، ملامح من تاريخ الفلاحين في الوطن العربي ونـضالهم في القطـر العـربي السوري)دار البعث.دون رقم وتاريخ الطبع - ص539-540.

(4) للاستزادة حول أوضاع الفلاحين خلال العصر المملوكي راجع: زيتون: ملامح من تاريخ الفلاحين.

أهم المزروعات في نيابة حمص: عرفت نيابة حمص أنواعاً مختلفة من المحاصيل الزراعية تبعاً لاختلاف التضاريس، والتربة، والمناخ، كالحبوب، والخضروات والفواكه والزيتون، والقطن، والنخيل والتوت وغيرها.

فقد وصفت مدينة حمص بأنها ذات أشجار وبساتين دون ذكر لأنواع تلك الأشجار، فمثلاً يصفها ابن حوقل بأنها «كثيرة الزرع والضرع وأكثر زروعها رساتيق»[1]، وتوصف أيضاً أن لها مياهاً وزروعاً كثيرة[2] وأن بساتينها توجد على ضفاف نهر العاصي[3]، وأن زروعها تكتفي باليسير من السقي[4].

أما ابن بطوطة فيصف أشجارها بأنها مورقة وأشجارها متدفقة[5]. وقد ورد ذكر لأشجارها عند بعض مؤرخي الفترة بصورة عرضية فذكر كل من المقريزي، وابن الصيرفي أن الرياح الشديدة التي تعرضت لها مدينة حمص سنة (841هـ/1437م) قد أتلفت أعداداً كثيرة من الأشجار ما لا يدخل تحت الحصر[6].

ويؤكد كثرة هذه الأشجار ابن إياس فيذكر في حوادث سنة (765هـ/1364م) أن الجراد قد أتلف الكثير من الزروع والأشجار في حمص[7] كما وصفت أيضاً كل من تدمر[8] وسلمية[9] والقريتين[10] والقصير[11] بكثرة الأشجار والبساتين.

---

(1) ابن حوقل: صورة الأرض ص 162، 163، ويصفها بمثل هذه الصفة أيضاً الأصطخري: المسالك والممالك ص 46.

(2) الأصطخري: المسالك والممالك ص 46.

(3) الإدريسي: نزهة المشتاق 1/374، 375، ابن جبير: رحلة ابن جبير ص 208،

(4) الإدريسي: نزهة المشتاق 1/375.

(5) ابن بطوطة: تحفة النظار ص 86.

(6) المقريزي: السلوك 4/1028، ابن الصيرفي: نزهة النفوس 3/401.

(7) ابن إياس: بدائع الزهور ج1 ق2 ص 13.

(8) ابن فضل الله العمري: مسالك الأبصار ص 191، ابن كثير: البداية 14/316، 317.

(9) أبو الفداء: تقويم ص 244، 245، القلقشندي: صبح الأعشى 4/118.

(10) ياقوت الحموي: المشترك ص 344.

(11) المقريزي: السلوك 4/80، 81.

وبالنسبة للزراعات فكان القمح والشعير في مقدمة الزراعات: فقد عرفت زراعة القمح والشعير في بلاد الشام منذ أقدم العصور وكانت تزرع في شتى أنحائها وخاصة القمح الذي يشغل نصف أراضيها الصالحة للزراعة[1] ولقد انتشرت زراعتهما في كل من مدينة حمص[2] وسلمية[3].

ومن المحاصيل الهامة كان البقول: وتشمل العدس، الحمص، الكرسنة، والفول، وهي من المحاصيل القديمة في الشام وتزرع في شتى البلاد الشامية[4].

ولابد من الإشارة إلى وجود زراعة الرز: حيث أمدتنا المصادر التاريخية بمعلومات متناثرة تفيد بزراعة الرز بشكل محدود في نيابة حمص وذلك حينما أمر الملك المجاهد شيركوه بزراعته في حوض نهر العاصي[5].

ويعد محصول القطن من المحاصيل الواسعة الانتشار نيابة حمص المحروسة حيث تمت زراعته سلمية والسبب في ذلك بسبب توافر قنوات المياه فيها من العوامل التي شجعت على زراعته[6].

وصف الادريسي زراعة حمص بقوله:"كانت في مدة الإسلام من أكثر البلاد كروماً فتلف أكثرها، وثراها طيبٌ للزراعات واقتناء الغلات، وهواؤها أعدل هواءٍ يكون بمدن الشام "[7].

---

(1) أحمد بن أعثم الكوفي: كتاب الفتوح مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية حيدر أباد - الهند 1968 - 1969م 177/1.

(2) محمد المكي: تاريخ حمص ص 3، 24.

(3) ابن الوردي: تتمة ةالمختصر 495/2، أمين: سلمية ص 230.

(4) محمد المكي: تاريخ حمص ص 24، حسين: الحياة الزراعية ص 108.

(5) ابن نظيف: التاريخ المنصوري ص 220 - 221.

(6) ابن الوردي: تتمة المختصر 495/2.

(7) الإدريسي، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، ،ج2،ص133-134

وكان محصول الزيتون له نصيب من الزراعة في أراضي نيابة حمص، فقد زرع في مدينة تدمر التي وصفت بأنها من المناطق التي تنتج الزيتون ويعد زيتها من أحسن الزيوت[1]، فكان استخراج زيت الزيتون وصناعة الصابون من الصناعات المشهورة في نيابة حمص[2]. وقد نشأت هذه الصناعة بسبب توفر محصول الزيتون في مناطق مختلفة من المدينة، وتصدرها للخارج ونستدل على ذلك مما رواه البلازري أن حمص عام (250هـ/ 864م)كان بها مكان لتخزين الزيت الذي يرد إليها من الساحل[3].و أفاد ياقوت الحموي "بزراعة زيتونها الذي انتشر خارج حمص ووصل إلى فلسطين حيث قال:" وزيتون فلسطين من غرسهم".

وليس لدينا معلومات عن وجود معاصر للزيتون، إلا أن توفر مادة الزيت وأخذ الدولة ضرائب عليها الأمر الذي دفع السلطان جقمق سنة 844هـ/ 1440م إلى إبطال هذه الضرائب (الظلامة)[4] يدل على وجود معاصر لعصر الزيتون.

وعن الأشجار المثمرة: فكانت نيابة حمص مشهورة بزراعة العنب والتوت، وقد كان العنب يزرع بشكل كثيف في مدينة حمص وعلى ضفاف نهر العاصي تحديداً[5]، وفي قراها من مثل سلمية وجَدَر ومَقَد[6]، ووصف الإدريسي مدينة حمص بالكرمة: "بأنها من أكثر البلاد كروماً، وأن كرومها قد أصابها التلف إبان الحروب الصليبية"[7].

---

(1) ابن سعيد: بسط الأرض ص 88، 89.القلقشندي: صبح الأعشى 118/4

(2) الإصطخري: مسالك الممالك ص159.

(3) الإصطخري: المصدر السابق ص61.

(4) كرد علي: خطط الشام 69/5.

(5) ابن السباهي: أوضح المسالك ورقة 45 أ.

(6) ياقوت الحموي: معجم البلدان 113/2، 165/5.

(7) الإدريسي: نزهة المشتاق 374/1، 375.

ويدل ذكر خمرة حمص وجَدَر ومَقَد منذ عهد بعيد على كثرة الكـروم في هذه الأماكن، فقد قال الأخطل يصف حمص وجَدَر:

كأنني شارب يوم أستبدُ بهم من قرقف ضمِنَتْهَا حمص أو جدر[1]

ولكثرة زراعـة كـروم العنـب في حمـص وصـفت معاصـرها بأنهـا مليئـة بالأعناب[2] كما اشتهرت مدينة حمص بزراعة شجرة التوت من أجل تربيـة دودة القزّ، ويوجد أنواع مختلفة من الفواكه[3].

وبالنسبة للخضروات: عرفت زراعة القثاء بـالقرب مـن سـلمية[4] وزراعـة البطيخ والخيار في مدينة حمص[5]. أما بالنسبة لزراعة النخيل فيكثر زراعته بجوار مدينة حمص وفي ولاية تدمر[6].

أما فيما يخص الأحراج والمراعي: تتركز الأحـراج والمراعـي في نيابـة حمص في الجهات والمناطق الجبلية وخاصة في جبـال اللكـام وفي الأوديـة وعلى ضفاف نهر العاصي لتوفر المناخ الملائم لنموها، ومن هذه الأشـجار: الخروب، السماق، العرعر، الحور، البلوط، الصنوبر، السنديان، الـبطم، والغار[7] كما يوجد في سلمية الصفصاف والقصب، وتنمو على ضفاف المياه الجارية[8].

---

(1) ياقوت الحموي: معجم البلدان 3/113، 5/165.

(2) ابن سعيد: كتاب الجغرافيا تحقيق إسماعيل العـربي، ط1 منـشورات المكتـب التجـاري بيروت 1970م ص 153.

(3) محمد المكي: تاريخ حمص ص 156، 166.

(4) ابن الوردي: تتمة المختصر 2/495.

(5) ابن صصرى: الدرة المضيئة ص 227.

(6) أبو الفداء: تقويم ص 88، 89

(7) حسين: الحياة الزراعية ص 117

(8) أمين: سلمية ص 329.

كما اجتذبت ورودها الطبيعية انتباه بعض المؤلفين إلى حد استوجب الإشادة من قبلهم كابن فضل الله العمري الذي يقول: « في زمن الربيع تلبس به ظواهرها من حلل الربيع الموسقة بالأزهار ما مد النظر وترنو بأحداق النرجس والإقحوان »[1].

ثانياً : الثروة الحيوانية :

تعد مدينة حمص غنية بثرواتها الحيوانية وهى إحدى دعامات الاقتصاد في هذه المدينة، حيث كانت تربية الماشية من مظاهر الإنتاج الاقتصادي لدى القبائل البدوية وعدد من سكان القرى وقد اهتم البدو وسكان الريف بتربية الأغنام وعاشوا على منتجاتها من الألبان والأصواف واللحوم ومن الحيوانات التي عاشت في نيابة حمص[2]، فقد ذكر المقريزي أنه هلك منها سنة 716هـ / 1316م أعداد كبيرة بسبب الأمطار والثلوج[3]، ولكثرة ما يربى في حمص من الماشية بلغ إنتاجها سنة 919هـ /1513م من اللبن عدة أحمال بيعت في دمشق بالرطل والقنطار[4]، وقد أقر شيركوه بن محمد بن شيركوه عام 581هـ الحمام في حمص لنقل الأخبار[5].

ونظراً لأنه كان يعيش في نيابة حمص عدد من القبائل البدوية فمن المنتظر أن تعني بتربية الإبل والغنم: الضأن والماعز، ومن الشواهد على ذلك أنه كان

---

(1) ابن فضل الله العمري: مسالك الأبصار ص 194.الطراونة: المرجع السابق ص107-108

(2) محمد المكي: تاريخ حمص ص 24.

(3) المقريزي: السلوك 160/2.

(4) شمس الدين محمد بن طولون: مفاكهة الخلان في حوادث الزمان 2 ج، حققه محمد مصطفى، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر، القاهرة 1962 - 1964م 277/1.

(5) القلقشندي: صبح الأعشى 91/4

لفضل بن عيسى أعداد كبيرة من الجمال ومن كثرتها إذا وردت على نهر الفرات يظن الإنسان أن الله قد ملأ القضاء جمالاً[1] وأنه قد نهبت جمال سيف بن فضل قرب سلمية أثناء المناوشات بينه وبين أحمد وفياض بن مهنا على أمرة العرب[2].

أما الأغنام فإن تربيتها تكثر في مدينة حمص وقارة وريف القصير وتدمر فقد اهتم آل فضل بتربية الأغنام في تدمر وعاشوا كمربي أغنام على أطراف الأراضي الزراعية[3] ومما يدل على تربية الأغنام بأعداد كبيرة في نيابة حمص أنه هلك منها سنة 716هـ / 1316م في قارة وحمص أعداد كبيرة بسبب البرد وكثرة الثلوج[4].

وتوافرت في نيابة حمص البيئة المناسبة للصيد من الطبيعة والغابات والمراعي والصحراء والجبال التي كانت بيئة مناسبة لحياة حيوانات برية مثل الغزال وحمر الوحش لذلك كان بعض السلاطين من أمثال الظاهر بيبرس والأشرف خليل، والعادل كتبغا يخرجون للتصيد في نواحيها، ففي سنة 666هـ/ 1268م تصيد الظاهر بيبرس في قرية جرود إحدى قرى حمص[5] وفي سنة 692هـ / 1293م سار السلطان الملك الأشرف خليل إلى الفرقلس ليتصيد فيها[6] وفي العام نفسه أيضاً سار إلى حمص فاقتنص من الغزال وحمار الوحش الشيء الكثير[7] وفي سنة (695هـ /1296م) تصيد السلطان الملك العادل كتبغا بجوسية[8] وبعد ذلك بعام خرج للتصيد بحمص[9].

---

(1) الصفدي: أعيان 328/2.

(2) ابن الوردي: تتمة المختصر 495/2.

(3) مكاحلة: الزراعة ص 74.

(4) المقريزي: السلوك 160/2.

(5) ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر ص 330، 333، المقريزي: السلوك 570/1.

(6) أحمد غسان: سبانو: مملكة حماة الأيوبية، دار قتيبة دمشق 1984م.

(7) الدوادار المنصوري: التحفة الملوكية ص 133.

(8) ابن الوردي: تتمة المختصر 345/2، ابن خلدون: العبر 468/5.

(9) ابن كثير: البداية 367/13.

كما كانت تربى في نيابة حمص الدواب (كالحمير والبغال). وقد اهتم سكان نيابة حمص بتربية الأسماك إذ كانوا ينقلون السمك من نهر الفرات إلى بحيرة حمص(قطينة) حتى يتكاثر فيها ثم يُصطاد منها ومن نهر العاصي[1].

ثالثاً - الصناعة:

لا توجد معلومات متخصصة تتحدث لنا عن التطور الصناعي الذي شهدته نيابة حمص خلال العصر المملوكي بشكل كامل، إلا إشارات متفرقة في كتب المؤرخين والرحالة، يمكن من خلالها رصد بعض الصناعات التي كانت قائمة في بلاد الشام.

وخضعت الصناعة لتنظيم دقيق وصارم من قبل رئيسها الذي كان يسمى بـ "المعلم"، فقد كان يشرف على العاملين في الصناعة، ويحدد لهم أصولها وقواعدها وأخلاقياتها وفق نظام دقيق ومعروف، لاستمراره في العصر العثماني الذي صار فيه اسم المعلم "شيخ الكار"[2].

وقد شهدت المحاكم الشرعية على العقود الموقعة بين الأهل الذين يودون تعليم أبنائهم صنعة معينة والمعلم حيث يؤجر الصبية مقابل طعامهم وشرابهم، وقد سجلت هذه العقود في المحاكم الشرعية لمنع تلاعب أي الفريقين أو نكوله عن التنفيذ[3].

ويمكننا اعتبار الصناعة في العصر المملوكي حصيلة التطور والرعاية في العصر الأيوبي، فقد ازدهرت نتيجة كثرة الثروة وهذا انعكس فيما خلفه العصر

---

(1) النويري: نهاية الأرب 263/8، ابن فضل الله العمري: مسالك الأبصار ص 194

(2) العلبي: دمشق بين عصر المماليك والعثمانيين - ص237.

(3) مركز الوثائق التاريخية بدمشق - وثيقة باسم (مشوش حلب) الورقة 20- وفيها وثيقة تأجير صبي لتعلم صنعة "الدهانة".

من مصنوعات راقية بلغت شاواً بعيداً في الإتقان والدقة[1] وخضعت هذه الصناعة في المدن الشامية إلى تنظيم دقيق من قبل رئيسها الذي يسمى (المعلم) أو شيخ الحرفة، إذ خضع الصناع وأصحاب الحرف إلى نظام النقابات فكان أفراد كل حرفة يكونون نقابة خاصة بهم لهم نظام ثابت يحدد عددهم ومعاملاتهم فيما بينهم من ناحية وبين السلطة والمجتمع من ناحية أخرى، وكان رئيس الصنعة غالباً ما يعين من قبل القضاة بناء على توصية السلاطين، لذلك فأنهم أسهموا في استقرار أسعار كل حرفة وفي الدفاع عنها[2].

واختلفت الصناعات من مدينة إلى أخرى وذلك حسب حاصلاتهم الزراعية لأن أغلب صناعاتها هو قائم على الزراعة، فزراعة الزيتون مثلاً قامت عليها صناعة الزيت[3] لذلك نجد أهل حمص قد اعتنوا بالصناعة عناية كبيرة على اعتبار أن زراعتهم واسعة جداً، ولعل شهرتها في صناعة المنسوجات القطنية والحريرية ذات الأنواع الجيدة، وهي تتلو الإسكندرية فيما يعمل فيها من القماش الفائق على اختلاف الأنواع وحسن الأوضاع لولا قلة ماءه وفحولة جسمه مع أنه يبلغ الغاية في الثمن وإن لم تلحق إسكندرية مصر فأنها تفوق صنعاء اليمن[4].

وهذه شهادة من موسوعي معاصر لتلك الحقبة، أي أنه جعل حمص بالمرتبة الثانية بعد الإسكندرية بينما كانت اليمن في المرتبة الثالثة في تصنيف الصناعات ولعل ما يؤيد ذلك القول هو وصف القلقشندي لها بقوله: "وقماشها يقارب قماش الإسكندرية في الجودة والحسن"[5].

---

(1) ضومط، انطوان خليل، الدولة المملوكية التاريخ السياسي والعسكري والاقتصادي، دار الحداثة، ط1 (بيروت 1980م)، ص 147.

(2) ابن بطوطة، رحلة ابن بطوطة، ص 66.

(3) العمري، مسالك الأبصار، ص 195.

(4) القلقشندي: صبح الأعشى، ج4، ص 113.

(5) القلقشندي: المصدر نفسه 4/ 113.

واشتهرت حمص بعملية نسج الصوف الأبيض مع الحرير مما أكسبها شهرة فائقة وذاع صيته في بلدان أوربا[1]. وكذلك الحال عرفت نيابة حمص بشهرتها في صناعة طواحين الحبوب، إذ تم إنشاؤها على نهر العاصي وتعمل بواسطة المياه ولعل أهمها طواحين السبعة والحصوبة والميماس[2].

ولكن تلك الصناعات انتابها الضعف والتراجع بسبب الحركة التجارية التي شهدتها أوربا في ميدان الصناعة (أواخر الدولة المملوكية) إذ تم استعمال الدواليب (النواعير)، وتأمين المواد الأولية لصناعاتهم وذلك بإحكامهم على الحركة التجارية مع الشرق بالرغم من التصدي البابوي لهم[3].

كذلك استغل الأوروبيون الأزمات الاقتصادية في المشرق الإسلامي فأغرقوا الأسواق المملوكية بمنتجاتهم الصناعية وبأسعار زاحمت تلك السلع الملحية، فضلاً عن أنهم قايضوا قسماً كبيراً من السلع الأوربية بالبهارات[4]، ولعل خاتمة التراجع في الصناعة ما تم ملاحظته عن السلاطين المتأخرين الذين تدخلوا في الأعمال الاقتصادية وتبنيهم العمل كمسئولين فيها، الأمر الذي أجبر أرباب الصناعة إلى ترك العمل فيها.

أ- صناعة المنسوجات :

وجل اعتماد هذه الصناعة على الحرير الطبيعي[5]، ومن الصناعات الحريرية التي صنعت في هذا العصر: (البروكار والدامسكو وأنواعه عديدة:

---

(1) مصطفى، شاكر المدن في الإسلام حتى العصر العثماني، ط 1 ذات السلاسل للطباعة والنشر والتوزيع (الكويت 1988م) ـ ج2، ص 491.

(2) عبد الحق، مدينة حمص، ص 33.

(3) زيتون، العلاقات الاقتصادية، ص 199.

(4) ضومط الدولة المملوكية، ص 175.

(5) كيال: فنون وصناعات دمشقية - ص368.

الأطلـــس[1]، والـــسابري[2]، والمفـــوف[3]، والمـــسهم[4]، والمعجـــر[5]، والمهلهل[6]، والمطير[7]، والمسير[8]).

نظراً لاهتمام سكان نيابة حمص بتربية دودة القز في ذلك الوقت فقد نالت مدينة شهرة كـبيرة بـصناعة المنـسوجات الحريريـة[9] واشـتهرت أيـضاً بـصناعة المنسوجات الصوفية التي تعتمد على الأصواف التي توفرها قطعـان الماشـية في المنطقة[10]. وقد بلغت هذه الصناعة درجة رفيعـة أيـام المماليـك حيـث كانـت المنسوجات الحمصية تصدر إلى أوربا عن طريق ميناء طرابلس[11].

ومما يدل على جودتها وألوانها الزاهية وصف ابـن فـضل الله العمـري لها: "وحمص تتلو الإسكندرية فيمـا يعمـل فيهـا مـن القمـاش الفـائق علـى اختلاف الأنواع وحسن الأوضاع، لولا قلة مائه وفحولة جسمه مع أنـه يبلـغ

---

(1) الأطلس: الثوب الخفيف.انظر (مطلـوب): أحمـد (معجـم الملابـس في لـسان العـرب) مكتبة لبنان -ط1-بيروت -1995 - ص33.

(2) السابري: وهو من الثياب الرقاق، وهو من أجود الثياب.مطلوب: المرجع السابق - ص68.

(3) المفوف: الثوب الرفيف.مطلوب: المرجع نفسه - ص119.

(4) المسهم: البُرد المخطط بصور على شكل سهام.مطلوب: المرجع نفسه - ص114

(5) المعجر: ثوب تعتجر به المرأة، أصغر من الرداء وأكبر من المقنعة، وهـو مـا ينـسج مـن الليف.مطلوب: المرجع نفسه - ص117.

(6) المهلهل: ثوب رقيق سخيف النسيج.مطلوب: المرجع نفسه - ص123.

(7) المطير: المشقق المكسر.مطلوب: المرجع نفسه - ص117.

(8) كيال: المرجع السابق - ص100.

(9) المقريزي: السلوك 1/747، 748، مكاحلة: الزراعة ص 285.

اغستون دوكوسو: تاريخ الحريـر في بـلاد الـشام، مجلـة المـشرق م15، ع 4، 1912م ص 284 - 286.

(10) كرد علي: خطط الشام 5/69.

(11) زكي النقاش: العلاقات الاجتماعية والثقافية والاقتصادية بـين العـرب والإفـرنج خـلال الحروب الصليبية، دار الكتاب اللبناني للطباعة وانشر، بيروت 1958م ص 99.

الغايـة في الـثمن، وأن لم تلحـق إسـكندرية في مـصر فإنهـا تفـوق صـنعاء الـيمن"[1]. لقـد كـان لمـرور قافلـة الحـج بحمـص دور كـبير في تنـشيط صـناعة المنـسوجات إذ كـان الحجـاج يـشترون منـها المناشـف والمناديـل المنسوجة من الحرير[2].

ولعل صناعة المنسوجات كانت تعود على أصحابها بمردود مادي مجز دفع المماليك إلى فرض بعض الـضرائب عليهـا بـدليل أن الـسلطان جقمـق أبطل الظلامات التي كانـت مفروضـة علـى صـناعة الـصوف والحريـر سـنة 844هـ/ 1440م[3].

ب - الصناعات الغذائية :

وقد نشأت هذه الصناعة بسبب توفر المحاصيل الزراعية التي تتركز حولها هذه الصناعات مثل الزيتون والتين والتمر الحبوب، فقد صدرت حمـص زيـت الزيتون للخارج ونستدل على ذلك مما رواه البلازري أن حمص عام (250هـ/ 864م)كان بها مكان لتخزين الزيت الذي يرد إليها من الساحل[4].وبالإضـافة إلى عصر العنب لصنع الدبس والنبيذ وطحن الغلال للحـصول علـى الـدقيق، فقـد كانت معاصر حمص مليئة بالأعناب ليصنع منها الدبس والنبيذ[5]، وربما وجدت معاصر العنب في كل من جَدَر ومَقَد لاشتهارها بالخمر[6] كما وجـدت معاصـر استخراج الزيت في مدينة تدمر[7].

---

(1) ابن فضل الله العمري: مسالك الأبصار ص 195. الطراونة: المرجع السابق ص 111

(2) زكريا: جولة أثرية ص 24، 25.

(3) كرد علي: خطط الشام 69/5.

(4) الإصطخرى: المصدر السابق ص61.

(5) لي سترانج: فلسطين ص 247، مكاحلة: الزراعة ص 271.

(6) ياقوت الحموي: معجم البلدان 113/2، 165/5.

(7) مكاحلة: الزراعة ص 277. الطراونة: المرجع السابق ص 112

ومن المنتظر أن يوجد فيها عدد من المطاحن، فقد أشار محمد المكي إلى عدد من المطاحن المصنوعة من الحجر والتي تدار بالماء وتقع على ضفاف نهـر العاصي وعلى مجاري المياه[1] إلا أنه لا يمكن أن نجزم بأنها جميعهاً أقيمت في العهد المملوكي والمؤكد أنه وجد على نهر العاصي طاحونة يرجع تاريخ إقامتها إلى سنة 824هـ / 1421م كما تدل النقوش العربية عليها[2].

رابعاً - التجارة :

امتازت بلاد الشام بموقع جغرافي مهم أكسبها أهمية تجارية لا سيما مدينة حمص الـتي عـرف أهلـها الحـساب منـذ القـدم والـسبب في ذلـك كمـا قالـه القلقشندي:"لأنهم كـانوا تجـاراً يحتـاجون إلى الحـساب في أربـاحهم ورؤوس أموالهم ونفقاتهم "[3].

وتـشغل التجـارة دوراً هامـاً كمـصدر مـن مـصادر الاقتـصاد لـدى الشعوب، حيث أنها الوسيلة الوحيدة لتصريف الإنتاج الزراعي والـصناعي، وهي عمليات البيع والشراء.وبيّن المـؤرخ الدمـشقي في كتابـه (الإشـارة إلى محاسن التجارة) ماهية التجارة عندما قال: "وأصل التجارة في البيع والـشراء أن يشتري من زاهد أو مضطر إلى أخـذ الـثمن ويبيـع مـن راغـب أو محتـاج إلى الشراء"[4].

وهذا يبين أن موضوع التجـارة يتوقـف علـى العـرض والطلـب، وصـفة المشتري، والمشتري منه.

---

(1) محمد المكي: تاريخ حمص ص 86، 93، 97، 168، 291.

(2) سوبر نهيم « حمص» دائرة المعارف الإسلامية 108/8.

(3) القلقشندي:صبح الأعشى، ج4، ص 113.

(4) (الدمشقي): جعفر بن علي (الإشـارة إلى محاسـن التجـارة) مطبعـة المؤيـد 1318هــ - ص45

ازدهرت التجارة في حمص عبر العصور التاريخية المختلفة لموقعها على خطوط التجارة الدولية، فوقوعها على الطريق القادم من الهند إلى الخليج العربي ثم العراق، فحلب، فحمص ومن ثم طرابلس فبيروت جعل لها التجارة المزدهرة[1]، ولكونها محطة تجارية ترتادها القوافل التجارية المارة بين أكبر سوقين تجاريين وهما دمشق وحلب[2] وقد وصفها الإدريسي بأنها: "عامرة بالناس والمسافرين يقصدونها بالامتعة والبضائع من كل فن وأسواقها قائمة"[3]. وفي العصر الأيوبي تراجعت مكانة مدينة حمص التجارية لسببين: أولهما اتجاه أنظار السلاطين الأيوبيين إلى مدينة حمص، فأخذت الأخيرة مكانها، وثانيهما: الهجمات الصليبية من حصن الأكراد القريب منها لذا فعندما زارها ابن جبير سنة 580هـ/ 1184م وصفها قائلاً: "لا رونق لأسواقها، كاسدة، لا عهد لنا بنفاقها"[4]. ولكن سرعان ما تعافت حالتها التجارية خلال العصر المملوكي ونشطت علاقاتها التجارية مع المدن الشامية الأخرى في تناول المواد التجارية، إذ أنها كانت تصدر الكروم إلى تلك المدن فضلاً عن الفواكه[5] وفي أوقات الأزمات كانت حمص هي المبادرة في إرسال الفائض منها إلى المدن الأخرى فيذكر أنه في سنة (659هـ) تم تخزين الغلال في حمص بكثرة ثم أرسلت إلى دمشق وذلك كي تصبح تقاوي للفلاحين على ما أصابهم[6].

وعندما وصل الرحالة ابن بطوطة إلى حمص وصف أسواقها بأنهت: "أسواقها فسيحة الشوارع"[7]. ولم يقتصر دور تجار نيابة حمص التجاري على

---

(1) الدوري: مقدمة في التاريخ ص 110، نعيم زكي فهمي: طرق التجارة الدولية ومحطاتها بين الشرق والغرب، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة 1973م، ص 151.

(2) هايد: التجارة ص 182، النقاش: العلاقات الاجتماعية ص 187.

(3) الإدريسي: نزهة المشتاق 374/1، الحميري: الروض المعطار ص 198.

(4) ابن جبير: رحلة ابن جبير ص 209.

(5) صبح الأعشى، ج4، ص 87.

(6) المقريزي، السلوك، ج1، ص 148.

(7) ابن بطوطة: تحفة النظار ص 86.

التجارة الداخلية ضمن حدود الدلوة المملوكية بل تجاوزه لخارج حدود الدولـة وأصبح لهم علاقات تجارية مـع التجـار الأجانـب مـن آسـيا وأوروبـا إذ كـانوا يبيعونهم الثياب والحبال لتصدر إلى الغرب[1] عن طريق ميناء طرابلس[2].

كما كانت مدينة تدمر محطة تجارية أخرى في نيابة حمص لوقوعهـا علـى الطريق التجاري ما بين الفرات ودمشق، فقد كانت القوافل التجارية ما بين الرقة والفرات من جهة ودمشق من جهة أخرى تمر فيها، لذلك وصفها ابن فـضل الله العمري بقوله: "وكان التجار منـها يـضربون في الأرض"[3]، كمـا وصـفها ابـن شاهين أن بها أسواقاً "[4].

ولكن يبقى السؤال أين كانت تتم المبادلات التجارية في غير الأسواق؟

لقد عرفت مدينة حمص ما عُرف باسم الخان وهي مراكز للتجار الغربـاء، لذلك كانت تتألف في دورها الأرضي من مخازن تتوسطها بركة ماء، وفي الدور العلوي، فكانت تحوي على غرف للإقامة ومنافع عامة[5].

ووجدت أيضاً (القيسارية): وهي بناء كبير يضم أسواقاً خاصاً بمهنة من المهن وكان التجار ينزلون مع دوابهم في أبنية مستطيلة واسعة حيث يقام حول الصحن إسطبلات ومخازن يعلوها طابق ثانٍ يحـوي غرفـاً ينفـتح علـى الفنـاء، وتتـصل ببعضها عن طريق بهو دائري[6]. وعلى هذا تكون القياسر أوسع من الخانات.

---

(1) النقاش: العلاقات الاجتماعية ص 99.

(2) فهمي: طرق التجارة ص 151.

(3) ابن فضل الله العمـري: مـسالك الأبـصار ص 191، فربيـوهي «تـدمر» دائـرة المعـارف الإسلامية 5/13.

(4) ابن شاهين: زبدة كشف ص 47.

(5) (ابن المبرد): يوسف بن عبد الهادي (الإعانـات لمعرفـة الخانـات) مخطـوط - المكتبـة الظاهرية - الورقة -1-3.

(6) (زيود): محمـد أحمـد (التـاريخ الاقتـصادي والاجتمـاعي للعـالم العـربي والإسـلامي) منشورات جامعة دمشق - الطبعة الثالثة 1994 - ص220.

وبالنسبة للمنشآت التجارية التي عرفت في مدينة حمص هي الخانات التي كانت منتشرة فيها منذ أيام صلاح الدين الأيوبي الذي قام بإنشاء عدد منها في مدينة حمص[1]. وقد ساهمت الخانات المعدة للتجار والمسافرين الموجودة على الطريق التجاري ما بين حمص ودمشق في تنشيط الحركة التجارية وخاصة الداخلية وتتوزع هذه الخانات على الطريق السابقة في كل من حسياء[2] وقارة وعلى الطريق ما بين قارة والقصير حيث وجد خان يسمى خان السلطان إضافة إلى وجود خان في كل من القصير والقطيفة[3].

ومما ساعد على انتعاش حركة التجارة في حمص تعقب السلاطين المماليك لقطاع الطرق، فقد سجن السلطان الأشرف خليل أخوة أمير العرب مهنا لتعرضهم للتجار ونهب ما معهم، واشترط على مهنا عدم إطلاق سراحهم إلا بعد إرجاع ما نهبوه من التجار[4].

فضلاً عن الثروات الاقتصادية الهامة التي مكنتها من احتلال موقع متميز في التجارة، ولعب التجار دوراً مهماً في إحياء الوضع الاقتصادي للمماليك، وقام السلاطين بحماية التجارة الداخلية والقوافل عبر الصحراء وإنشاء ديوان يشرف على دواوين التجارة في الممالك والنيابات ويسمى بديوان التجارة وله عامل يسمى عامل الصندوق[5].

---

(1) ابن جبير: رحلة ابن جبير ص 325.

(2) ابن الجيعان: القول المستظرف ص 79.

(3) عبد الغني إسماعيل النابلسي: الحقيقة والمجاز في الرحلة إلى بلاد الشام ومصر والحجاز تقديم وإعداد أحمد عبد المجيد هريدي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة بدون تاريخ 29.الطراونة: حمص في العهد المملوكي ص114

(4) العيني: عقد الجمان 3/164.

(5) لابيدوس، إيرامارفين مدن الشام في العصر المملوكي، نقله إلى العربية الدكتور سهيل زكار، دار حسان للطباعة والنشر، ط1 (دمشق 1985م)، ص 194.

واشتهرت الأسواق الشامية بتعددها واتساعها كأسواق حمص وحماة، إذ أن ابن بطوطة[1] وصف تلك الأسواق وصفاً دقيقاً منوهاً بالمزايا الاقتصادية والاجتماعية والثقافية وذكر تنوع بضائع أسواقها وما تشتهر به من الإنتاج الزراعي والصناعي لا سيما المعد منها للتصدير.

حتى أن ابن جبير[2] سار في الطريق بين حمص ودمشق ووصف الخانات هناك ونزل في خان بناه صلاح الدين الأيوبي.

كذلك وجدت خانات أخرى في قرى حمص، ففي قرية القارة يوجد خان كبير كأنه الحصن المشيد وفي وسطه صهريج كبير مملوء بالماء تسرب له تحت الأرض من عين على البعد، كذلك في قرية النبك يوجد خان وهو في غاية الوثاقة والحسن[3]. وقد أولى سلاطين المماليك عناية بالخانات سواء التي شيدت قبلهم أو التي شيدوها بأنفسهم حتى أن خان تنكز جدد في عهدهم وبإشراف نائب حمص على اعتبار أن الخان يقه في المدينة[4].

الطرق التجارية :

هناك عدة طرق تجارية تربط مدينة حمص بالمدن الشامية الأخرى ومن هذه الطرق: طريق حمص – دمشق من حمص إلى جوسيه ستة عشر ميلاً ثم إلى قارة ثلاثون ميلاً ثم إلى النبك أثنا عشر ميلاً ثم إلى القطيفة عشرون ميلاً ثم إلى دمشق أربعة وعشرون ميلاً[5].

---

(1) ابن بطوطة، رحلة ابن بطوطة، ص 138.

(2) ابن جبير: رحلة ابن جبير ص 325.

(3) ابن بطوطة، رحلة ابن بطوطة، ص 139.

(4) الكتبي، محمد بن شاكر بن أحمد (ت 764هـ) فوات الوفيات، تحقيق إحسان عباس، دار صادر (بيروت 1973م)، جذ، ص 258.

(5) ابن خرداذبة، المالك والمملوك، ص 98.

طريق من الرقة إلى حمص ودمشق على الرصافة:

من الرقة إلى الرصافة أربعة وعشرون ميلاً ثم إلى الزراعة أربعون ميلاً ثم إلى القسطل ستة وثلاثون ميلاً ثم إلى سلمية ثلاثون ميلاً ثم إلى حمص أربعة وعشرين ميلاً ثم إلى شمسين ثمانية عشر ميلاً ثم إلى قارة اثنان وعشرين ميلاً ثم إلى النبك أثنا عشر ميلاً ثم إلى القطيفة عشرون ميلاً ثم إلى دمشق أربعة وعشرون ميلاً[1] من حمص إلى حماة مرحلة ثم إلى شيزر مرحلة ثم إلى كفر طاب مرحلة ثم إلى قنسرين مرحلة ثم إلى حلب مرحلة[2].

طرق المواصلات البرية: طريق دمشق - حمص - طرابلس يبدأ هذا الطريق من دمشق إلى الزبداني - بعلبك - الغسولة - حمص - ومن الغسولة أيضاً إلى قدس - أقمر - العرقا - طرابلس[3].

طرق الحمام الزاجل:

دمشق - بعلبك - قارة - حمص - حمادة - المعرة - خان تومان - حلب -البيرة - قلعة الروم[4].

وبالنسبة للموازين فأن رطلها أزيد من الرطل الدمشقي ولا تعرف الغرائر وإنما المكاكيك[5]، وتختلف زيادة بعضها على بعض منها ما هو معتدل الغرارة مكوكان ونصف[6].

---

(1) المصدر نفسه، ص 99.

(2) المقدسي، أحسن التقاسيم، ج1، ص 71.

(3) ابن شاهين، غرس الدين بن خليل (ت873هـ) زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك، تصحيح بولس راوايس، المطبعة الجمهورية (باريس 1892م)، ص 120.

(4) العمري، التعريف، ص 197.

(5) المكوك يعد مقدمة لتقدير القفيز، وهو يعادل (7) وبيات والويبه تعادل (22) مدا.ينظر: هامش، فالتر: المكاييل والأوزان الإسلامية، ترجمة كامل العسلي (عمان 1970م)، ص 67.

(6) العمري، مسالك الأبصار ص 82.

ويذكر ابن بسام[1] أن رطل حمص يساوي (794) درهم وأوقيتها (79) درهم وحبة وثلث حبة.

وفي ختام فقرة الأحوال الاقتصادية لمدينة حمص لابد من إلقاء نظرة ختامية عن بعض ما قيل في هذه المدينة الجميلة.

فهذا ابن جبير[2] قال عنها: "هي فسيحة الساحة مستطيلة المساحة نزهة لعين مبصرها من النظافة والملاحة موضوعة في بسيط من الأرض عريض مداه لا يخترقه النسيم بمسراه، يكاد البصر يقف دون منتهاه أفيح أغبر، لا ماء ولا شجر ولا ظل ولا ثمر فهي تشتكي ظمأها وتستسقي على البعد ماءها فيجلب لها من نهيرها العاصي وهو منها بنحو مسافة الميل وعليه طرّة بساتين تجتلي العين خضرتها وتستغرب نضرتها".

ووصفها ابن الوردي[3] قائلاً: "مدينة حسنة في مستوى الأرض حصينة مقصودة من سائر النواحي، وأهلها في خصب ورغد عيش".

وأخيراً وصف ابن بطوطة[4] "وهي مدينة مليحة أرجاؤها مونقة وأشجارها مورقة وأنهارها متدفقة وأسواقها فسيحة الشوارع، وجامعها متميز بالحس الجامع، وفي وسطه ماء، وأهل حمص عرب لهم فضل وكرم".

---

(1) ابن بسام: محمد بن أحمد (ت في أواخر القرن السادس الهجري) نهاية الرتبة في طلب الحسبة، تحقيق محمد حسام السامرائي (بغداد 1968م)، ص 185.

(2) الرحلة، ص 323.

(3) ابن الوردي، سراج الدين عمر بن مظفر (ت 749هـ) خريدة العجائب وفريدة الغرائب (القاهرة 1923م)، ج1، ص 28.

(4) رحلة ابن بطوطة، ص 28.

خامساً : النقود

بعد الحديث عن التجارة والأسواق، لا بد أن نتعرف على الوسيلة التي كانت تتم بواسطتها المبادلات التجارية ألا وهي النقود. والسؤال الذي يطرح نفسه هل ضرب المماليك نقوداً خاصة بهم أم استعملوا ما كان سائداً قبلهم؟

إن النقود التي تم التعامل بها في بداية العصر المملوكي كانت تعرف باسم الدراهم، وكانت معروفة بالدراهم (الكاملية) - نسبة إلى الملك الكامل الأيوبي بن الملك العادل حيث ضربها سنة 622هـ/1225م وهي مستديرة الشكل، ثلثاها فضة والثلث الباقي نحاس.استعملها بنو أيوب كما استعملها بعدهم المماليك[1] وذلك "من قبيل التفاخر بانتمائهم إليهم"[2]، وبها يتم البيع ويؤخذ بها خراج الأرض وأجرة المساكن[3].

وعندما تولى الملك الظاهر بيبرس البندقداري سنة 658هـ/1260م ضرب الدراهم الظاهرية نسبة له، وجعل (رنكهـ)[4] على الدرهم، مع الإبقاء على الدراهم الكاملية إلى جانبها في التداول ببلاد الشام ومصر.وكانت الدراهم الظاهرية تحوي على 70% فضة و30% نحاس.وقد استمرت هذه الدراهم إلى

---

(1) (المقريزي): أحمد بن علي (إغاثة الأمة بكشف الغمة) تح: جمال الدين الشيال - مطبعة لجنة التأليف - القاهرة 1957 - ص64.

(2) الشهابي: نقود الشام - ص117.

(3) المقريزي: المصدر السابق ص65 / الشهابي: نقود الشام - ص117 / العلبي: المرجع السابق - ص243.

(4) الرنك: هو الرمز الذي يتخذه السلطان شعاراً له، وهي كلمة فارسية، ورنك بيبرس كان (البَبَر) وهو نوع من السباع يشبه النمر، واستخدمه بيبرس لأن اسمه مشتق منه، وترمز للقوة. (الشهابي): قتيبة (زخارف العمارة الإسلامية في دمشق) وزارة الثقافة - دمشق - 1996 - ص152.

نهاية الدولة المملوكية الأولى، حيث حلت محلها النقـود الحمويـة[1]، ويعـادل الدرهم الفضي ثمان عشرة خروبة، وتعادل الخروبة ثلاث قمحات[2].

وبهذا يكون وزن الدرهم (54) حبة قمح، ولو حسبنا الـ (54) حبـة قمـح بناءاً على ما أورده هنتس حول وزن المثقال[3] يظهر لدينا أن وزن الدرهم يعادل (2.41) غرام تقريباً، أما الدينار الذهبي يعادل ثلاثين درهماً نقداً[4].

وعلى وجه العموم، فقد كانـت الفـضة متـوفرة بكميـات جيـدة في دولـة المماليك.وقد استقلت دمشق عن القاهرة بضرب أنواع معينة من الدراهم، حيث ضربت فيها أرباع الدراهم[5].

وتعادل الفلوس بالدراهم أيضاً بحيث يساوي كل (48) فلـساً درهمـاً واحـداً نقداً[6] أما من جهة وزن الفلوس فيعـادل كـل فلـس منـها مثقـالاً واحـداً[7]، وقـد استعملت الفلوس لشراء البضائع التي يقل البيع فيهـا عـن الـدراهم، وقـد أوضـح المقريزي أنه: "لا يشترى بها - يقصد الفلوس - مـن الأمـور الجليلـة، وإنمـا هـي لنفقات البيوت ولأغراض ما يحتاج إليه من الخضر والبقول وما نحوها"[8] . وتتفاوت قيمة الصنجة[9] بين مصر والشام، فتنقص كل مائة مثقال شامي مثقال وربع بمصر[10].

---

(1) (المقريزي): أحمد بن علي (النقود القديمة والإسلامية) مطبعة الجوائـب - القـسطنطينية 1880 ص15.

(2) المقريزي: إغاثة الأمة - ص66.

(3) يذكر هنتس أن وزن المثقال يعادل 85 حبة قمح.وهذه تعادل 4.46 غرام.

(هنتس): فالتر (المكاييل والأوزان الإسلامية وما يعادلها في النظـام المتـري) ترجمـة: كامـل العسلي - عمان - 1975 - ص89.

(4) المقريزي: المصدر السابق - ص70.

(5) العلبي: دمشق بين عصر المماليك والعثمانيين - ص244.

(6) القلقشندي: صبح الأعشى - ج3 ص439.

(7) المقريزي: المصدر السابق - ص65.

(8) المقريزي: المصدر نفسه - ص70.

(9) الصنجة: تعادل درهم وحبتي خروب / القلقشندي: المصدر السابق ج3 ص437.

(10) المقريزي: المصدر نفسه - ص65.

وقد تعرضت الدنانير والدراهم والفلوس لتلاعب السلاطين بهدف الربح، فكانت معرضة للتبديل، وفي جميع الأحوال كان يُرغم التجار والأهالي على التعامل بها وفق القيمة التي تحددها الحكومة، مما يحدث اضطراب في الأسواق والمعاملات[1].

وأما العامل الاقتصادي المتمثل في "زيف العملة" فقد سببت قلق ومعاناة مادية للعامة، حيث لم يكن هناك معيار نقدي ثابت، مما عرّض العملة في العصر المملوكي لحالة من الاضطرابات أدّت إلى زعزعة الحياة الاقتصادية، فتسارع الحكام إلى ضرب النقود بشكل متسارع ومبالغ فيه من ناحية، كما تلاعبوا بكمية المعدن الثمين المستخدم فيها من ناحية أخرى[2]، وقد ضربوا عملات جديدة تسببت في غلاء الأسعار وسوء الأحوال الاقتصادية[3]. وبالرغم من أن السلطة المملوكية لم تأت بعملات نقدية خاصة بهم في كثير من الأحيان وإنما ورثوا جميع ذلك بمسمّياتها التي كانت عليها، وظلت هذه الفئات كما هي دون تبديل أو تغيير، لكن هذه السلطة كانت تتعرّض لتزييف في الوزن والعيار بشكل مخلّ نتيجة للسياسة السيئة التي انتهجها بعض سلاطين المماليك السيئة[4].

---

(1) عاشور: العصر المماليكي - ص307.

(2) هيام صالح يحيى أبو الفرج: مجتمع دمشق ودوره السياسي في عصر الدولة المملوكية الثانية (784هـ -923هـ/1382م-1517م)، رسالة ماجستير غير منشورة في التاريخ الإسلامي، إشراف: د. محمد المنسي محمود عاصي، كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، قسم الدراسات العليا التاريخية والحضارية، جامعة أم القرى، مكة المكرمة، 1421هـ/2000م، ص194.

(3) المقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك، (339/3).

(4) كرم عبد الله محمد النوايسة: زيف النقود في عصر دولة المماليك البرجية (784هـ - 922هـ/1383م - 1551م)، رسالة ماجستير غير منشورة في التاريخ الإسلامي، جامعة مؤتة، الأردن، ص21.

وقد ساءت أحوال الناس بسبب كثرة الزّغل[1] في الفلوس، وهي العملة التي كان يتمّ التعامل بها بالعدد، حيث يُدفع عن كل درهم من الفضة ثمانية وأربعين فلساً من الفلوس التي تضرب بدار الضرب الرسمية، ووصل الأمر بالزّغلية أن ضربوا فلوساً خفيفة الوزن خارج دور الضرب على غرار العملة الرسمية، ومن أمثلتها العملة المعروفة بـ "القراطيس"[2] المضروبة في دمشق، وعند انتقالها إلى مصر مع التجار واختلاطها مع الفلوس الجيدة طغت الفلوس الخفيفة في الأسواق مما تسبب في إيذاء الناس بارتفاع الأسعار وإغلاق المحلات التجارية وذلك عندما نودي بأن الفلوس التي تقبل في المعاملة هي فقط الفلوس التي عليها الخاتم الرسمي للدولة من دار السّك، إلا أن ذلك لم يثن الزغلية عن عمل فلوس عليها خاتم رسمي يشبه الفلوس الصادرة عن دار الضرب[3].

سادساً: الموازين والمكاييل والمقاييس:

كان الدرهم هو أصغر وحدة للوزن في بلاد الشام في عصر المماليك وهنا يجب أن نفرق بين هذا الدرهم، والدرهم الفضي المستعمل في النقد، حيث لا يجمع بينهما إلا الاسم، وإن كان الأصل واحد[4].

وبعده تأتي الأوقية وتعادل خمسين درهماً، أي ما يعادل 60 غراماً، أما الرطل، فقد كان يزن اثنتي عشرة أوقية أي: حوالي 1888 غراماً. ومن حيث

---

(1) الزّغل: الغشّ، وفي النقود تُطلق غالباً على الفلوس المضروبة من النحاس انظر: السيوطي: حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة، ص202

(2) القراطيس: هي نوع من الفلوس النحاسية أو دراهم ملفوفة على شكل أصبع تعامل بها أهل الشام. انظر: النويري: نهاية الأرب في فنون الأدب، (332/32). المقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك، (439/3).

(3) النوايسة: زيف النقود في عصر دولة المماليك البرجية، ص42.

(4) الموسوعة الإسلامية الفرنسية - مادة درهم ج1 ص1006، ومادة حبة ج2 ص179 - ومادة رطل ج3 ص1208.

القنطار الشامي، فكان يزن مائة رطل أي حوالي 189كغ، أما وحدة الكيل الرئيسية، فكانت (الغرارة) وهي تساوي: حوالي 208.8 كغ[1] وبالنسبة للمقاييس، فقد كان الذراع وحدة للقماش، وهو في دمشق يزيد بمقدار 12/1 من ذراع القاهرة.أما الأرض، فهي أيضاً بالذراع، ولكن ذراعها يساوي ثلاثة أشبار[2].

وقد استخدمت في نيابة حمص الأوزان والمكاييل التي كانت مستخدمة في بلاد الشام مع فارق بسيط في حمص.

بالنسبة للأوزان كانت وحدة الوزن المعروفة في بلاد الشام هي الدرهم ومضاعفاته كالأوقية والرطل والقنطار، فقد كان الدرهم يعادل (60) حبة شعير ويعادل في النظام المتري 3.0898 غم3[3] والأوقية الدمشقية تعادل (50) درهماً والرطل (12) أوقية، فيكون الرطل بذلك ستمائة (600) درهم، ويتألف القنطار من (100) رطل[4].

ولابد من الإشارة إلى أن أوزان نيابة حمص تختلف عن أوزان نيابة دمشق وذلك أن رطلها أكثر زيادة من الدمشقي، إذ يعادل (864) درهم، وأوقيتها تعادل (72) درهماً[5]، وذكر ابن بسام أن أوقيتها تعادل (67) درهماً[6].في حين كان الدرهم هو أصغر وحدة للوزن في دمشق وهنا يجب أن نفرق بين هذا الدرهم، والدرهم الفضي المستعمل في النقد، حيث لا يجمع بينهما إلا الاسم،

---

(1) العلبي: دمشق بين عصر المماليك والعثمانيين - ص241.

(2) القلقشندي: صبح الأعشى- ج4 ص182.

(3) فالتر هنتس: ص 11.

(4) ابن فضل الله العمري: مسالك الأبصار ص 82، هنتس: المكاييل ص 20، 22.

(5) عبد الرحمن بن نصر الشيزري: كتاب نهاية الرتبة في طلب الحسبة نشره السيد الباز العريني بإشراف محمد مصطفي زيادة، كطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر القاهرة 1946م ص 16.

(6) ابن بسام المحتسب: نهاية الرتبة في طلب الحسبة، تحقيق حسام الدين السامرائي، مطبعة المعارف، بغداد 1968م ص 185، 186.

وإن كان الأصل واحد[1]. وبعده تأتي الأوقية وتعادل خمسين درهماً، أي ما يعادل 60 غراماً، أما الرطل، فقد كان يزن اثنتي عشرة أوقية أي: حوالي 1888 غراماً. ومن حيث القنطار الشامي، فكان يزن مائة رطل أي: حوالي 189كغ ، أما وحدة الكيل الرئيسية، فكانت (الغرارة) وهي تساوي: حوالي 208.8 كغ[2].

أما بالنسبة للمكاييل، فقد كانت نيابة حمص تستخدم مشتقات القرارة الدمشقية ولا تستخدم الغرارة[3] فقد استخدمت القفيز الذي يساوي (8) مكاكيك ويبلغ مقداره إثنى عشر مداً ويعادل (151) كيلو جرام[4].

والمكاكيك في نيابة حمص وحماة تختلف عن بعضها البعض فمنها ما هو معتدل الغرارة "مكوكان ونصف وما بين ذلك تقريباً"[5] ويبلغ وزن المكوك (17) كغم وربما استعمل كرديف للكيل، وكان المكوك يتألف من ثلاث كيالج، فيكون وزن الكيلجة (6.5) كغم، والكيلجة تتألف من صاع ونصف، فيكون وزن الصاع (8.3) كغم تقريباً[6].

أما فيما يخص المقاييس فقد اشتملت على الفدان والقصبة والذراع، وكان الفدان يعادل 6368 م2 والقصبة 99.3 م أما الذراع يعادل نحو 3.50 سم، وهي نفس المقاييس المستعملة في بلاد الشام[7]. وبالنسبة لمقاييس القماش فقد كانت وحدته هي الذراع، وهو في دمشق يزيد بمقدار 12/1 من ذراع القاهرة. أما الأرض، فهي أيضاً بالذراع، ولكن ذراعها يساوي ثلاثة أشبار[8].

---

(1) الموسوعة الإسلامية الفرنسية - مادة درهم ج1 ص1006، ومادة حبة ج2 ص179 - ومادة رطل ج3 ص1208.

(2) العلبي: دمشق بين عصر المماليك والعثمانيين - ص241.

(3) ابن فضل الله العمري: مسالك الأبصار ص 82.

(4) الشيزري: نهاية الرتبة ص 17.

(5) ابن فضل الله العمري: مسالك الأبصار ص 82.

(6) هنتس: المكاييل ص 63، 64

(7) هنتس: المكاييل ص 98.الطراونة: حمص في العهد المملوكي ص116

(8) القلقشندي: صبح الأعشى- ج4 ص182.

سابعاً: الضرائب:

كان النظام الاقتصادي السائد في بلاد الشام يرتكز على فرض الضرائب على اختلاف أنواعها، وأبرز هذه الضرائب "الخراج والعشر" الذي يعتبر من الموارد الشرعية كالزكاة والجزية، وهو ضريبة سنوية تفرض على الأرض الزراعية يدفعها الفلاح لصاحب الإقطاع ليتم دفعها إلى خزانة الدولة[1]، وهو من أهم موارد الدولة في جباياتها، ويختلف حسب عاملين هما: خصوبة الأرض وزيادة المحصول ونقصانه[2]، وهو على قسمين: خراج الزراعة وخراج الراتب[3] ؛ فخراج الزراعة وهو مقدار معين من المال أو الغلة يفرض على الأرض ومحاصيلها وينقسم بدوره إلى قسمين: القسم الأول خراج غلة ويكون حسب طبيعة الأرض الزراعية، وتكون من ثلاث إلى ستّ أرادب[4] عن كل فدان[5]، والقسم الثاني خراج نقد ويكون مبلغ معين من المال يؤخذ على الأرض ويكون سداده جملة أو على أقساط حسب رغبة المستفيد من الأرض، وأما خراج الراتب فهو خراج البساتين

---

(1) النويري: نهاية الأرب في فنون الأدب، (245/8). إسماعيل البيومي الشربيني: النظم المالية في مصر والشام زمن سلاطين المماليك، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ط1، 1998م، ص156.

(2) سعيد عاشور: العصر المماليكي في مصر والشام، ص310.

(3) النويري: نهاية الأرب في فنون الأدب، (444/8).

(4) الأردب: مكيال كبير لأهل مصر يساوي 24 صاعاً بصاع النّبي ﷺ، أو 64 منّاً بمنّ أهلمصر، وهو كذلك ست ويبات. الزبيدي: تاج العروس من جواهر القاموس، (493/2)، مادة "ردب". الزيات وآخرون: المعجم الوسيط، (13/1).

(5) الفدان: مقدار من الأرض الزراعية تختلف مساحته في البلاد العربية، ومساحته في مصر 4200 م2. الزيات وآخرون: المعجم الوسيط، (766/2).

والسواقي ويُحصّل نقداً، وعلى المنتفع أن يدفع قيمة الخراج في حالة إنتاج أرضه أو عدم إنتاجها[1].

كذلك فإنه وُجدت أنواع أخرى من الجبايات غير الشرعية كالمكوس[2] المتنوعة ؛ منها - على سبيل المثال لا الحصر - "مُكس الغلة"[3] المفروض على الغلال وعلى المتاجرة فيها، و"مقرر السجون" وهو مبلغ يؤخذ على كل من يتم سجنه، و"مقرر الأقصاب والمعاصر"[4] المقرّر على ما يجنى من مزارع قصب السكر وما ينتج من المعاصر، ومنها "مقرر المراكب" وهو ما يؤخذ من كل مركب بتقرير معين يعرف بمقرر الحماية[5]، إلى جانب ضريبة تفرض على السفن

---

(1) نسيم زريق جمعة أبو شلوف: الأوضاع الاجتماعية في فلسطين في العهد المملوكي (648هـ - 923هـ/1250م - 1517م)، رسالة ماجستير غير منشورة في التاريخ الإسلامي، إشراف: د. رياض مصطفي شاهين، كلية الآداب، قسم التاريخ والآثار، الجامعة الإسلامية، غزة، 1430هـ/2009م، ص155.

(2) المكوس: جمع مكس ؛ وهو جُعلٌ يؤخذ على البضائع الواردة من البلاد الأخرى، وأصل الكلمة "كمرك" التركية وعربيته مكس. الزيات وآخرون: المعجم الوسيط، (134/1).

(3) مكس الغلة: ضريبة كانت تفرض على التجار بمقدار العشر عن كل ما يباع في الاسواق أو يدخل اليها، ويوخذ ثمن كل غرارة ثلاثة دراهم ونصف فضة. المقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك، (98/4). وانظر: يوسف درويش غوانمة: تاريخ نيابة بيت المقدس في العصر المملوكي، دار الحياة، الزرقاء، الأردن، (د.ط)، 1982م، ص108.

(4) إيمان أحمد مقابلة: القرية في بلاد الشام في العصر المملوكي، رسالة ماجستير غير منشورة في التاريخ الإسلامي، إشراف: د. يوسف حسن غوانمة، كلية الآداب، قسم الآثار، جامعة اليرموك، الأردن، 1998م، ص202.

(5) المقريزي: تقي الدين أحمد بن عليّ (ت845هـ/1461م): المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1997م، (164/1).

الداخلة إلى الميناء وقيمتها دوكة[1] واحدة، وبعد دفع هذه الضريبة تليها ضـريبة العبور وكانت قيمتها دوكتين لكل فرد[2].

ومن تلك الضرائب كذلك ضريبة "المراعي" وهـي تؤخـذ مقابـل رعـي المواشي من نبـات الأرض[3]، وضـريبة "الطـواحين" وتؤخـذ بحـسب عـدد الطواحين وكيفية تشغيلها، سواء كان ذلك طوال العام أو أثناء المواسم فقط ؛ فالتي تعمل طوال العام كان عليها دفع ستين أقجة[4] من إجمالي مـا تنتجـه، وأما التي لا تعمل في أيام المطر فكان عليهـا أن تـدفع ثلاثـين فقـط، بينمـا الطواحين التي تدار يدوياً فكانت معفاة من الضريبة[5]. ومـن تلـك الـضرائب كذلك ما عُرف بـ "رسم الغنم" المفروضة على الماعز والجاموس وقيمتها اثنا عشر أقجة[6].

وإلى جانب المكوس المذكورة آنفاً نجد ضرائب أخرى فُرضت على العامة

---

(1) الدوكة: مفرد دوكات ؛ وهي الدينار الإفرنتي (الإفرنجي) المنسوب إلى إمارة البندقيـة الإيطالية، وقد استمرّ التداول بها إلى سنة 829هــ/1425م حيـث حـلّ محلـها الـدينار الأشرفي الإسلامي. فاطمة محمد حسن المباركي: الأزمات الإقتصادية في الحجاز خلال العصر المملوكي (648هـ - 923هـ/1250م - 1517م)، رسالة دكتوراه غير منشورة، جامعة أم القرى، مكة، 1432هـ/2012م، ص44.

(2) النويري: نهاية الأرب في فنون الأدب، (2/450).

(3) النويري: نهاية الأرب في فنون الأدب، (8/262).

(4) أقجة AKce: كلمة تركية معناها الضارب إلى البياض، وهـي قطعـة صـغيرة مـن الفـضة ضُربت لأول مرة سنة 729هــ/1328م في عهـد الـسلطان العثمـاني أورخـان، وكانـت تستخدم في الاوساط الشعبية للدلالة على الدراهم أو النقود بشكل عام. سـهيل صـابان: المعجـم الموسـوعي للمـصطلحات العثمانيـة التاريخيـة، مكتبـة الملـك فهـد الوطنيـة، الرياض، (د.ط)، 1421هـ/2000م، ص20.

(5) المقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك، (6/248).

(6) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة في أخبار مصر والقاهرة، (7/321).

بمسميات مختلفة، مثل ضرائب المواريث الحشرية[1]، وضـرائب الجـوالي[2]، وضرائب الرّمى والطرح[3]. وما يلاحظ على هذه الضرائب أنها كانت تجمع مـن النـاس بـسبب ضـعف واضـطراب اقتـصاد الدولـة، خاصـة أن بعـض نـواب المقاطعات استغلوا سلطتهم فقاموا بجمع الضرائب من الأفراد سواءً كـان ذلـك من المال أو من الدواب[4].

ولم يستثنى من هذه الضرائب المجحفة أهل الذمة والمعاهـدون مـن النصارى الـذين يـذهبون مـن نيابـة حمـص إلى نيابـات فلـسطين لغـرض الزيارات الدينية؛ فقد ما كان يؤخذ من حجـاجهم القـادمين لزيـارة بيـت المقدس سبعة دراهم عنـد الـدخول إلى مدينـة عكـا، واثـني عـشر عنـد دخولهم بلـدة الناصـرة، وسـبعة عنـد عبـورهم الجـسور، وحيـث كـانوا يقيّدون في مدينة القدس عبر تنظيم الإجراءات مع كبير المتـرجمين لـدفع ضريبة السلطان حتى يمكنهم السفر[5].

---

(1) المواريث الحشرية: هي ما يتركـه المتـوفى الـذي لا وارث لـه أو لـه وارث لا يـستغرق ميراثه. وكان لها شادّ خاص وديوان خاص، ويتوّلاها غالباً متأسلمة أهل الذمة. انظر: ابن شاهين: زين الدين عبد الباسط بن خليل الظاهري (ت920هـ/1514م): نيـل الأمـل في ذيل الدُّول، تحقيق: د. عمر عبـد الـسلام تـدمري، المكتبـة العـصرية، بـيروت، ط1، 1422هـ/2002م 32/2، هامش (8).

(2) الجوالي: جمع الجالية ؛ وهم أهلُ الذمة الذين تحوّلوا من أرض إلى أرض ن والمقـصود هنا الجزية التي كانـت تؤخـذ مـن أهـل الذمـة. الفراهيـدي: الخليـل بـن أحمـد الأزدي (ت170هـ/786م): كتاب العين، تحقيق: د. مهدي المخزومي ود. إبراهيم الـسامرائي، دار ومكتبة الهلال، (د.ط)، (د.ت) 181/6.

(3) الرمى والطرح: أو طرح القتلى ؛ فريضة مستحدثة تفرض علـى العامـة في حـال تعـرض أحد سكان الحيّ للقتل. ابن طولون: مفاكهة الخلان في حوادث الزمان، ص164.

(4) إسماعيل البيومي: النظم المالية في مصر والشام زمن سلاطين المماليك، ص202.

(5) يوسف غوانمة: نيابة بيت المقدس في العصر المملوكي، ص105.

ولقد حاول بعض سلاطين المماليك وكبار الأمراء من النواب وغيرهم التقرب من العامة عن طريق ظهورهم بمظهر أشخاص متديّنين يرفعون الظلم عن الناس[1] ؛ فقاموا بإلغاء بعض المكوس كما فعل السلطان الناصر محمد بن قلاوون سنة 724هـ/1323م حيث أبطل المكوس والضرائب عن جميع أصناف الغلال[2]، وكان نواب الشام في عهد والده السلطان المنصور قلاوون قد فرضوا ضرائب باهضة على الفلاحين، وقد أبطله ابنه بعد الشكاوى التي رفعها هؤلاء الفلاحون إليه[3].

وفي سنة (920هـ/ 1514م) أثناء الانهيار الاقتصادي الذي رافق الانهيار السياسي لدولة المماليك وما رافق ذلك من تلاعب بالعملة وحاجة الدولة المتزايدة للمال فرض على كل فرد في جميع أنحاء بلاد الشام ومن ضمنها سكان نيابة حمص عشرون ديناراً للإنفاق على التجريدة العسكرية التي أراد قانصوه الغوري أن يناور بها أمام الأتراك العثمانيين ليظهر لهم مدى قوة السلطنة المملوكية بعد انتصار العثمانيين على الصفويين في إيران في موقعة جالديران (920هـ/ 1514م)[4].

ثامناً: المظالم الاجتماعية والاقتصادية في نيابة حمص:

عانى سكان نيابة حمص في عصر المماليك شأنهم شأن كافة نيابات الشام الكثير من المظالم والتعسف شأنهم شأن كافة نيابات الدولة المملوكية، وقام بارتكابها النائب وقد حذا الجهاز العسكري في حمص حذوه، فاعتبروا السكان مصدراً مالياً لا ينضب، وخدمة لرفاهيتهم، واعتمدوا أساليب لا يقرها الشرع الإسلامي ولا شرع آخر، وأبرز تلك الأساليب:

---

(1) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة في أخبار مصر والقاهرة، 39/9. وانظر: أنطوان ضومط: الدولة المملوكية (التاريخ السياسي والاقتصادي والعسكري)، ص103.

(2) السيوطي: حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة، ص293.

(3) المقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك 315/5.

(4) ابن إياس: بدائع الزهور 408/4.الطراونة:حمص في العهد المملوكي ص119

1 - **الرمي** : أو طرح القتلى، وهي فريضة مستحدثة تفرض على العامة في حال تعرض أحد سكان الحيّ للقتل كما قال ابن طولون في مفاكهة الخلان.

وأن تفرض على حي بأكمله مبالغ من المال دية لقتيل وجد فيها، لا يعرف قاتله، عملاً بالمذهب الحنفي[1]، بل صار النائب أو من ينوب عنه يستوفي مبالغ طائلة يدفع - إن أراد الدفع- قسماً ضئيلاً منها دية ويحتفظ بباقي المال[2].

2 - **الطرح** : وهو بيع قسري يفرضه نائب دمشق ويشمل حمص على التجار وبأسعار يرتئيها، كأن يملك سلعاً يريد التخلص منها أو أن يشتري سلعاً من الأسواق بالسعر الذي يرتئيه، ثم يعيد بيعه قسراً بثمن أغلى، أو نهب سلع يمكن أن تكون فاسدة ويلزم التجار بشرائها[3].

3 - **المصادرة**: وهي مصادرة أموال الناس دون حجة شرعية، وقد سوغها: أجازها نواب دمشق لأنفسهم.والمصادر المملوكية مليئة بأسباب المصادرات وأنواعها فصارت عادة يلجأ إليها الحاكم للحصول على المال دون مشقة[4].

4 - **المشاهرة والمجامعة** : وهي كناية عن مال شهري يفرض على الأسواق لصالح السلطان أو نائب دمشق، فيعمد التجار إلى رفع أسعار سلعهم من أجل تسديد المتوجب عليهم، وكانوا يستغلون هذا الأمر لزيادة الأسعار أكثر مما تقتضيه المشاهرة، وهكذا وقع سكان حمص ضحية للتجار والحكام معاً[5].

---

(1) ابن طولون: مفاكهة الخلان في حوادث الزمان، ص164.البصروي: المصدر السابق ص198 / نصار: العامة ص320.

(2) البصروي: المصدر السابق ص 179.

(3) البصروي: المصدر نفسه ص110.

(4) ابن طولون: مفاكهة الخلان ج1 ص213.

(5) ابن طولون: محمد بن علي (إعلام الورى بمن وليّ نائباً من الأتراك بدمشق الكبرى) تح: عبد العظيم خطاب - القاهرة - 1973 - ص187 / نصار: المرجع السابق ص326.

5 - **النهب**: الذي تعرضت له حمص في مناسبات عديدة من دون أن يلقى المنكوبون إنصافاً في أكثر الأحيان[1].

6 - **تجاوزات الأجناد**: تعرضت نيابات الشام لأنواع رهيبة من التعديات الناتجة عن ممارسة الجند الذين أقاموا فيها أو الذين قدموا إليها، وفي الحالتين سئم أهل الشام من أنواع الاعتداءات على أملاكهم وأرزاقهم ونسائهم إضافة إلى زهق الأنفس [2]. وإلى جانب المكوس المذكورة آنفاً نجد ضرائب أخرى فُرضت على العامة بمسميات مختلفة، مثل ضرائب المواريث الحشرية[3]، وضرائب الجوالي[4].

وبناء على تلك المظالم فإن أهل حمص تجاه لم يقفوا مكتوفي الأيدي هذه المظالم والتعديات والمغارم بل عملوا جاهدين إلى اتباع الوسائل الدينية في معظم الأحوال، أو الاحتجاج السلمي وهو المعروف (بالتكبير) وهو تدليل على أن الله ينصر المظلومين[5].

---

(1) البصروي: المصدر السابق ص125-176 / ابن طولون: إعلام الورى ص79-119-187-209.

(2) نصار: المرجع السابق ص327-1331.

(3) المواريث الحشرية: هي ما يتركه المتوفى الذي لا وارث له أو له وارث لا يستغرق ميراثه. وكان لها شادّ خاص وديوان خاص، ويتوّلاها غالباً متأسلمة أهل الذمة. انظر: ابن شاهين: زين الدين عبد الباسط بن خليل الظاهري (ت920هـ/1514م): نيل الأمل في ذيل الدُّول، تحقيق: د. عمر عبد السلام تدمري، المكتبة العصرية، بيروت، ط1، 1422هـ/2002م، (32/2)، هامش (8).

(4) الجوالي: جمع الجالية ؛ وهم أهلُ الذمة الذين تحوّلوا من أرض إلى أرض ن والمقصود هنا الجزية التي كانت تؤخذ من أهل الذمة، ويفترض سريان هذه الضريبة في نيابة حمص لأنها تضم فئة من أهل الذمة - النصارى واليهود -.الفراهيدي كتاب العين 181/6.

(5) ابن طولون: المصدر السابق ص96-97.

ولقد حاول بعض سلاطين المماليك وكبار الأمراء من النواب وغيرهم التقرب من العامة عن طريق ظهورهم بمظهر أشخاص متديّنين يرفعون الظلم عن الناس[1]؛ فقاموا بإلغاء بعض المكوس كما فعل السلطان الناصر محمد بن قلاوون سنة 724هـ/1323م حيث أبطل المكوس والضرائب عن جميع أصناف الغلال[2]، وكان نواب الشام في عهد والده السلطان المنصور قلاوون قد فرضوا ضرائب باهضة على الفلاحين، وقد أبطله ابنه بعد الشكاوى التي رفعها هؤلاء الفلاحون إليه[3].

تاسعاً: الأسعار:

كان الاقتصاد في بلاد الشام الركيزة الأساسية التي اعتمد عليها سلاطين المماليك ونوابهم بها في تثبيت حكمهم، ولكن بسبب الاضطرابات السياسية والاجتماعية تدهور النظام الاقتصادي وارتفعت الأسعار وتفاوتت الطبقات الاجتماعية لاسيما في عهد الدولة البرجية، ومن هذه العوامل: إهمال وسائل الري، وهبوط الإنتاج الزراعي، وانهيار النظام النقدي، والتلاعب بالعملة وتزييفها[4]، وهذا بعكس عهد الدولة البحرية حيث شهدت رواجاً اقتصادياً ظهر جليّاً في الأسواق التي كان عددها كبير وتمتلئ بالحركة والنشاط وبها الكثير من أصناف البضائع[5].

---

(1) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة في أخبار مصر والقاهرة 39/9. وانظر: أنطوان ضومط: الدولة المملوكية (التاريخ السياسي والاقتصادي والعسكري)، ص103.

(2) السيوطي: حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة، ص293.

(3) المقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك5/315

(4) قاسم عبده قاسم: أسواق مصر في عصر سلاطين المماليك، مطابع جامعة عين شمس، القاهرة، (د.ط)، 1978م، ص73.

(5) المقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك 3/496.

وكانت الأوضاع الاقتصادية السائدة في العصر المملوكي تعكس الظروف السياسية التي كانت قائمة والتي تقف وراءها بعض الفتن والمؤامرات الداخلية[1] والخارجية، وهو ما دفع بالسلطة المملوكية أمام إلحاح الحاجة إلى دعم القوة العسكرية حتى تتمّ مواجهة الأعداء، فاتجه المماليك لتقوية الجيش بشراء مماليك جدد وتربيتهم، وكانت الوسيلة لإعالة هذا الجيش هو الاعتماد في إدارة البلاد على نظام الإقطاع الحربي بتقسيم الأراضي الزراعية على أربعة وعشرين قيراطاً ؛ أربعة منها للسلطان والرواتب، وعشرة للأمراء والزيادات، وعشرة للأجناد، ثم صارت أربعة عشر للسلطان، وباقي العشرة للأمراء والإطلاقات والزيادات والأجناد، وهو ما أدّى إلى إضعاف الجيش[2]، وأسهم في انتشار الفتن والقلاقل، وانقسم المجتمع إلى طبقتين: طبقة الحكام العسكريين والذين كانوا يملكون جلّ الأراضي كإقطاعات، وطبقة أخرى مدنية اقتصر دورها على الإنتاج ودفع الضرائب[3].

وأما عامل "غلاء الأسعار" الذي أثّر سلباً في سكان نيابة حمص المملوكية فقد ارتبط ببعض المتغيرات البيئية مثل ظهور الجراد وانحباس الأمطار ونشوب الحروب الخارجية والثورات الداخلية ؛ ففي سنة (656هـ/1257م) ارتفعت الأسعار وبيع مكوك القمح بمائة درهم والشعير بستين درهم والبطيخ بثلاثين

---

(1) ومن أمثلة الاضطرابات الداخلية التي عانت منها بلاد الشام ما وقع أيام حُكم السلطان المظفر حاجي (ت814هـ/1411م) من غلاء الأسعار وتوقف أسباب الرزق وقلة الغلال وكثرة قدوم الناس من الأقاليم إلى المدن الكبيرة بحثاً عن الوظائف المختلفة، ونتيجة لذلك انتشرت عمليات السلب والنهب بحثاً عن الرزق. حياة ناصر الحجي: أحوال العامة في حكم المماليك ؛ دراسة في الجوانب السياسية والاقتصادية والاجتماعية، دار القلم، بيروت، ط1، 1994م، ص185.

(2) ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون 410/5.

(3) رشا فخري النحال: فن الرسائل في العصر المملوكي ؛ دراسة تحليلية، الجامعة الإسلامية، غزة، (د.ط)، 2013م - 2014م، ص18.

درهماً، وكان السبب في ذلك وباء انتشر في البلاد. وبعد ذلك بثلاث سنوات أصاب بلاد الشام غلاءٌ شديدٌ حيث وصلت الغرارة[1] من القمح والشعير إلى مائتين وخمسين درهماً، وكان سبب ذلك هو اقتحام المغول لمدن الشام حيث وصلوا إلى نابلس ثم غزة[2].

وفي سنة (695هـ/1295م) تسبب قلة سقوط الأمطار وجفاف الأراضي الزراعية إلى غلاء الأسعار حتى وصل سعر غرارة القمح إلى مائتين وعشرين درهماً، ومن شده القحط والجفاف في بلاد الشام وصل الحال إلى أن الدابة تسقى بدرهم شربة واحدة، ويسقى الرجل بربع درهم شربة واحده أيضاً[3].

ومن العوامل التي ساهمت في ارتفاع الأسعار خلال العصر المملوكي الكوارث الطبيعية والأوبئة التي نزلت بالمجتمع الشامي في العصر المملوكي جملة من النكبات الطبيعية والأوبئة راح ضحيتها كثير من العوام خاصة، ومن ذلك:

أ- الزلازل: حدثت في بلاد الشام كثير من الزلازل المدمرة، ومنها على سبيل المثال زلزال سنة (692هـ/1292م) واعتُبر أعنف زلزال ضرب المنطقة بسبب ما خلفه من دمار كبير في المباني ن حيث كان الأنكى في النتيجة أن كثير من تلك المراكز العمرانية التي دمرتها الزلزال أُهملت وهُجرت من السكان لعدم قدرتهم على إعادة البناء[4].

---

(1) الغرار: مكيال خاص بأهل الشام تحديداً، يقدّر بحوالي 12 كلغ أو 72 مدّاً أو سبع ويبات مصرية. وأما الغرارة المكية فتقدّر بـ 204،5 كلغ أو 265 لتراً. انظر: القلقشندي: صبح الأعشى في صناعة الإنشا، (4/281).

(2) االمقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك، (1/498).

(3) المقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك، (2/98).

(4) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، (8/36).

كما حدثت سنة (702هـ/1302م) زلازل عديدة شملت مصر وبلاد الشام وأحدثت خسائر كبيرة وصلت إلى هدم المساجد وغرق المراكب، فتمّ انتداب أمراء النيابات لإصلاح ما هدمته الزلازل[1]. وقد أدّت هذه الزلازل إلى موت أعداد كبيرة من السكان فانخفضت الكثافة السكانية في بلاد الشام[2].

ب- آفة الجراد: وكان لانتشار أسراب الجراد في بلاد الشام أثر بالغ في ارتفاع أسعار الحبوب خاصة بسبب إتلافه للزرع، وقد أفادت المصادر التاريخية أن الجراد أصاب بلاد الشام ثماني عشرة مرة؛ عشرة منها كانت في العصر المملوكي الأول (784هـ - 922هـ/1381م -1516م)، وثمانية في العصر المملوكي الثاني (784هـ - 922هـ/1381م - 1516م)[3].

ومن أمثلة ذلك ما حدث سنة (743هـ/1342م) عندما تعرضت الشام لموجة من الجراد بكميات كبيرة سدت الأفق وألحقت الدمار بالزراعة والأشجار مما تسبّب في تدهور الأحوال الاقتصادية، ومنها سنة (756هـ/1354م) عندما اكتسحت أسراب الجراد بلاد الشام وانتشرت في جميع الأنحاء وأكلت الأشجار والزروع والثمار فقضت على الأخضر واليابس[4].

---

(1) ابن حجر: الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، (406/5). وللوقوف على المزيد في هذا المجال انظر: خالد يونس الخالدي: الزلازل في بلاد الشام، من القرن الأول إلى القرن الثالث الهجري/القرن السابع إلى القرن التاسع الميلادي، مجلة الجامعة الإسلامية، مج13، العدد 1، يناير 2005م، ص87 وما بعدها.

(2) محمود عطا الله: نيابة غزة في العهد المملوكي، ص153.

(3) فيصل عبد الله بني حمد: العوامل المؤثرة في تذبذب أسعار المواد الغذائية في بلاد الشام خلال العصرين المملوكيين الأول (648هـ - 784هـ/1250م - 1381م) والثاني (784هـ - 922هـ/1381م - 1517م)، أوراق بحثية ودراسات إسلامية، عمان، الأردن، بتاريخ 2007/8/2م.

(4) الذهبي: محمد بن أحمد الدمشقي (ت748هـ/1374م): من ذيول العبر، تحقيق: صلاح الدين المنجد، مطبعة الكويت الحكومية، الكويت، (د.ط)، 2011م، (379/6).

وفي سنة (766هـ/1365م) أبادت أسراب الجراد أعداداً كثيرة من الأشجار والكروم والمزروعات الجيدة، فنتج عن ذلك ارتفاع الأسعار حيث بلغ سعر غرارة القمح بدمشق مائة وثمانين درهماً[1]. وفي سنة (803هـ/1401م) اجتاح الجراد بلاد الشام بأعداد كبيرة[2] وأكل الزروع والأشجار وتسبب في غلاء الأسعار حتى أنه بيع سنبل[3] القمح بأكثر من خمسين درهماً، ونفقت الماشية لقلة الأعشاب وعاشت بلاد الشام في ضائقة شديدة[4].

ج- الظروف المناخية: والمقصود بذلك القحط والجفاف والسيول ؛ ومن أمثلة ذلك بالنسبة للسيول ما حدث سنة (753هـ/1352م) عندما اجتاحت السيول نيابة غزة فهُدمت كثير من البيوت على السكان، وتلفت الزروع من كثرة المياه[5]. ومنها ما حدث سنة 825(هـ/1421م) حين هطلت أمطار غزيرة على بلاد الشام نتج عنها تدمير كثير من المزروعات وإلحاق أذى كبير بالمنازل والممتلكات، والغريب أنه في نفس العام أجدبت مناطق أخرى من بلاد الشام بسبب عدم سقوط الأمطار فهجرها كثير من السكان بسبب قلة الطعام والشراب[6].

وأما عن دور القحط والجفاف فقد تعرّضت له المنطقة مرات عديدة؛ فمن ذلك ما حدث في سنة (660هـ/1261م) عندما أصاب البلاد الشامية قحط

---

(1) ابن حجر: إنباء الغمر بأبناء العمر، (5/199). ولمزيد من التفصيلات انظر: هيفاء الصاعدي: الأوبئة والأمراض في العصرين الأيوبي والمملوكي في مصر والشام، ص65 وما بعدها.

(2) ابن تغري بردي: النجوم 12/200، الدويهي: تاريخ الأزمنة ص 338.

(3) السنبل: مكيال شائع الاستعمال في العصور الوسطى في بلاد الشام وتختلف مقاديره من جهة إلى أخرى فهو في حلب خمسة أمداد (63 كغم) وفي حمص أثنى عشر مداً.الشيرزي: نهاية الرتبة، ص 17.

(4) الدويهي: تاريخ الأزمنة ص 338.

(5) ابن كثير: البداية النهاية، (14/206).

(6) المقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك، (7/348).

وجفاف نتج عنه موت خلق كثير في كل أرجاء نيابتي حلب وحماة وغيرهما[1]. ومنها ما وقع سنة (895هـ/1489م) عندما أصاب قحط فلسطين خاصة، حيث مضى معظم فصل الشتاء ولم تسقط الأمطار، فصام الناس ثلاثة أيام ولجأوا إلى المسجد الأقصى للصلاة والدعاء والذكر وطلب الغيث من الله تعالى[2].

د- الأوبئة: ولعلّ أخطر الأوبئة التي أصابت مناطق عديدة من العالم الإسلامي ومن ضمنه بلاد الشام هو الطاعون المهلك الذي انتشر بين الناس سنة (749هـ/1348م)، وقد أطلقت عليه المصادر التاريخية العربية[3] عبارة "الفناء الكبير" أو"الطاعون الأعظم"، وعُرف في المصادر الأوروبية بـ "الموت الأسود back death"[4] ؛ فقد أهلك كثير من السكان والدواب وأجبر الناجين منه إلى الهجرة خارج البلاد فأصبحت المدن والقرى خالية[5]. وفي سنة (790هـ/1387م) انتشر وباء آخر للطاعون عمّ معظم أنحاء بلاد الشام، خاصة

---

(1) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، (16/33).

(2) المقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك، (4/263).

(3) ومما ذكره ابن تغري بردي قوله: "في هذه السنة وقع الطاعون العظيم الذي لم يُدرك مثله بمصروقراها بل وبغالب البلاد الشامية، إذ أن هذا الطاعون كان من أعظم الطواعين كلها وأفظعها، حيث أن هذا الطاعون خالف كل الطواعين الماضية في أمور كثيرة منها أنه وقع في الشتاء وارتفع في فصل الربيع وكانت الطواعين تقع في فصل الربيع وترتفع في أوائل الصيف. وقد توفي في هذا الطاعون خلق كثير". انظر: المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي، (7/318).

(4) وقد قضى على ربع سكان أوروبا خلال ثلاث سنوات. مجموعة مؤلفين: الموسوعة العربية العالمية، مؤسسة أعمال الموسوعة للنشر والتوزيع (شارك فيها مجموعة كبيرة من المفكرين وأهل العلم العرب والمسلمين وغيرهم) الرياض، ط2، 1419هـ/1999م، (19/211).

(5) مبارك محمد الطراونة: الأوبئة (الطواعين) وآثارها الاجتماعية في بلاد الشام في عصر المماليك الجراكسة (784 هـ - 922هـ/1382م - 1516م)، المجلة الأردنية للتاريخ والآثار، المجلد 4، العدد3، ص22.

مدن الساحل الشامي وبعض المدن الداخلية كعكا ونابلس وبيت المقدس والكرك، فبلغ عدد الموتى خمسمائة إنسان في كل يوم، ومات على إثره في غزة اثنان وعشرون ألف شخص حتى خلت البلاد تقريباً، حتى قيل أن اللّص حين يدخل البيت لسرقته فإنه لا يخرج ويموت من فوره بداخله[1]!. كما تعرّضت بلاد الشام لطاعون آخر سنة 826هـ/1422م، حيث قدّر المقريزي أعداد الموتى في اليوم الواحد بحوالي مائة إنسان، وذهب ضحيته في مدينة دمشق وحدها أكثر من 115 ألف شخص معظمهم كانوا من الأطفال والنساء[2]. وفي سنة 837هـ/1434م عاود الوباء بلاد الشام واستمر السكان يعانون من نتائجه السيئة حتى سنة 841هـ/1437م، حيث اشتدّ تأثيره وعظُم حيث ابتدأ من حلب ثم انتقل إلى حماة ثم حمص ومنه انتشر إلى مدينة دمشق وطرابلس والرملة وغزة، وذهب ضحيته عدد كبير من البشر والدواب[3]، وفي سنة 833هـ / 1430م ارتفعت الأسعار في حمص[4] ولكن نسبة ذلك غير واضحة.

هـ- العوامل البشرية: ومن ذلك تعرض بلاد الشام وخاصة الأجزاء الشمالية منها للهجمات المغولية أثر واضح في ارتفاع الأسعار بشكل ملحوظ وذلك في الأعوام 658هـ/ 1260م[5]، 659هـ/ 1261م[6]، و699هـ/ 1300م[7]. وكذلك كان لهجرة أعداد كبيرة من المصريين في بلادهم بسبب غلاء الأسعار

---

(1) ابن حجر: إنباء الغمر بأبناء العمر، 2/463.

(2) المقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك، 7/78.

(3) ابن الصيرفي: عليّ بن داود الجوهري (ت900هـ/1494م): نزهة النفوس والأبدان في تواريخ الأزمان، تحقيق: حسن حبشي، دار الكتب، القاهرة، ط1، 1970م، 3/395، 399.

(4) المقريزي: السلوك 4/836، ابن الصيرفي: نزهة النفوس 3/179

(5) ابن تغري بردي: النجوم 7/82.

(6) الصقاعي: تالي ص 91.

(7) المقريزي: السلوك 1/885، ابن تغري بردي: النجوم 8/104.

دوراً بارزاً في ارتفاع الأسعار في بلاد الشام عامة سنة (855هـ/ 1451م) فقـدتم بيع غرارة القمح بستمائة درهم فضة وشمل الغلاء سـائر المـأكولات في نيابـات الشام ومن ضمنها نيابة حمص المحروسة[1].

وقد غيّرت هذه الأوبئة النسيج الاجتماعي للتركيبة السكانية بحمص بسبب من مات فيه من الأطفال والبنات والإماء حـتى كـادت البيـوت تخلـو منـهنّ في جميع بلاد الشام[2].

وعلى العموم فإن انتشار الأوبئة وتتـابع وقوعهـا في فتـرات متقاربـة كـان يرافقه دوماً غلاء في الأسعار وندرة في الـسلع وتعطّـل في الأسـواق[3]، بـسبب الخلل الذي أصاب البنية السكانية لبلاد الشام، فانعكست آثارها علـى مختلـف ميادين الحياة الاجتماعية والاقتصادية والثقافية والعلمية[4].

أما بالنسبة للأسعار المتداولة في نيابة حمص، فمثلاً بلغ سـعر 100 كغـم من القمح في النصف الثاني من القرن الثالث عـشر 1،07 دينـار وانخفـضت في النصف الأول من القرن الرابع عشر المـيلادي إلى 0،85 دينـار، وبلـغ حـوالي 0،74 دينار في النصف الأول من القرن الخامس عشر الميلادي، أما سعر الخبز فقد وصل خلال النصف الأول من القرن الثامن إلى 0،03 و- 0،023 بينما كان في نهاية القرن السابع الهجري / الثالث عشر المـيلادي نحـو 0،0041 وارتفـع

---

(1)324 السخاوي: التبر المسبوك ص 347.

(2) المقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك، (7/93).(الزهراني):سـعدية (الفئـات الـشّعبيّة في بلاد الشام خـلال العـصر المملـوكي658هــ - 923هــ/1260م - 1516م دراسـة تاريخية حضارية) إشراف عبد الله سعيد الغامدي- جامعة أم القرى- 2017-ص55-58

(3) يوسف درويش غوانمة:الطاعون والجفاف وأثرهما على البيئـة في جنـوب الـشام(الأردن وفلـسطين) في العـصر المملـوكي، مجلـة علـوم فـصلية، العـدد 13- 14، دمـشق، 1983م، ص75.

(4) الطراونة: الأوبئة ص53.

متوسط سعر رطل لحم الضأن إلى 0،3 - 0،4 دينار في بداية القرن التاسع عشر الهجري / الخامس عشر الميلادي بعد أن كان 0،25 - 0،30 دينار في النصف الأول من القرن الثامن الهجري / الرابع عشر الميلادي[1].

وبيعت غرارة القمح سنة (790هـ/1388م) بحوالي اثنى عشر ديناراً[2]، وفي سنة (798هـ/ 1296م) بيع رطل اللحم في حمص بأربعة دراهم ونصف وارتفعت أسعار الفواكه وأصبحت كل السلع غالية لثمن وعاش الناس شدة عظيمة[3]، وفي سنة(799هـ/1397م) بيعت غرارة القمح بثلاثمائة درهم لذلك أكل الناس الشعير وبيعت عشرة أرطال طحين الشعير بأكثر من خمسة عشر درهماً[4].

****

(1) الطراونة: مملكة صفد ص 188، 189.

(2) ابن حجر: أنباء 2/283.

(3) ابن صصرى: الدرة المضيئة ص 227.

(4) ابن صصرى: الدرة المضيئة ص 200، 201.الطراونة: حمص ص121

التركيبة السكانية والمجتمع

الوضع السكاني في نيابة حمص :

لم يتحرر المؤرخون الذين عاشوا في مصر وبلاد الشام، في عصر المماليك في كتاباتهم من تقاليد المدرسة التأريخية العربية الإسلامية، سواء من حيث المنهج أم من حيث الأهداف، ذلك أن هؤلاء المؤرخين يعنون في كتاباتهم بأخبار السلاطين والملوك والأمراء والأعيان، وسجلوا كل ما يتعلق بهذه القوى المسيطرة على شؤون المجتمع والمتحكمة في مقدرات البلاد، في حين أغفلوا كل ما يتعلق بحياة الطبقات الأخرى وشؤونها.

ويمكننا ملاحظة ذلك من أسماء الكتب التاريخية في عصر المماليك مثل "الروض الزاهر في سيرة السلطان الملك الظاهر "لابن شداد" و"الجوهر الثمين في سيرة الملوك والسلاطين" لابن دقماق، و"النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة" لابن تغري بردي، و"السلوك لمعرفة دول الملوك" للمقريزي.

وهنا نتساءل: ما هو شأن الأمة العربية والعالم الإسلامي؟ ولاسيما أن المنطقة التي تحرّك عليها المماليك هي أرض عربية وأمصار عربية. فمن الذي كان يقوم بالإنتاج الزراعي والحرفي والمهني والعمراني والخدمات؟ ومن الذي قام بالإنتاجات العلمية والفلسفية والمعرفية؟ أو ليس سكان البلاد هم الذين شكّلوا مادة حضارية وإشعاعية سطعت لبضعة قرون في الأرض العربية وفي البلاد المفتوحة.

ومن هنا يجب إعطاء الدراسات الاجتماعية والفكرية الماضية أهمية خاصة، لإعادة تركيب الماضي بكل أبعاده، بما في ذلك التداخل بين السياسة

والاجتماع والاقتصاد." لأن الزمان يكتسب فعاليته ويمر بتحولات طويلة أو متقطعة، أو يستمر تراتيباً، ومن خلال الفعاليات البشرية، ومما يعانيه الإنسان في مجتمعه وبيئته[1]"

ولابد في دراسة التاريخ الاجتماعي من تحديد الفئات الاجتماعية من حيث مستوياتها وتحديد الظواهر الاجتماعية التي تخضع لها، ولابد من إلقاء نظرة على بنية العلاقة بين الحكام وفئات الشعب لما لذلك من أثر مهم في الدينامية الاجتماعية.

كان المجتمع الملوكي (فئوياً)، وكانت هذه الفئات متفاوتة من حيث الدخل والطمأنينة، والاستقرار واشتغال المناصب الحكومية والدينية والاقتصادية والاجتماعية.

وعلى هذا قسّم المقريزي المجتمع المملوكي، بوجه عام، إلى سبع فئات:

❋ - أرباب الدولة.

❋ - مياسير الناس من التجار والفقهاء والمحدثين.

❋ - متوسطو الحال من التجار والباعة وأصحاب المعاش والسوقة.

❋ - الفلاحون من أهل الزراعة.

❋ - سكان الأرياف والقرى.

❋ - أرباب الصناعات والحرف البسيطة.

❋ - المعدمون[2].

---

(1) (شرف): جان (الإيديولوجية) منشورات الجامعة اللبنانية، بيروت - 1966 - ص 100.

(2) (المقريزي): تقي الدين أحمد (إعانة الأمة بكشف الغمة) تح: محمد مصطفي زيارة، جمال الدين الشيال - القاهرة - 1940- ص 72- 73.

هذا التوزيع العام الذي أورده المقريزي أخذه بدوره عن العمري، ويشمل المجتمع المملوكي كله، أما في المدن ولاسيما نيابة دمشق، فيمكن اعتماد تفريع آخر ينبثق من توزيع المقريزي يأخذ بالاعتبار خصوصية المدينة والتجانس الاجتماعي الأكثر شمولاً.

ويمكننا تقسيم سكان بلاد الشام في العصر المملوكي إلى أربعة أقسام هي:

1 - الطبقة العسكرية الحاكمة.

2 - الأعيان.

3 - العامة.

4 - الزعر[1].

ومن العجيب ما رأيناه من التشنيعات التي رواها ابن حوقل والدمشقي والحموي[2]، ووصفهم لأهل حمص بقلة العقل والتفاهة حتى يضرب بحماقتهم المثل ولكن هذه التشنيعات لا ندها في باقي المصادر[3]، وأجمعت المصادر

(1) الزعر: الزعر في الشام هم الحرافيش نفسهم في مصر، وكان الزعر من أهل صلابة وجاه وزعارة، ويشكلون القوة الرئيسية في البلاد الشامية، وكان الزعر عصابات منظمة وواعية لذاتها من الشباب، وربما لم يكونوا متزوجين، حيث احتفظوا بزي مميز لشعرهم عُرِفَ باسم (قرعاني) وارتدوا أثواباً خاصة أكتافهم كشكل من أشكال البزات العسكرية. وكانوا هم العمود الفقري للمقاومة الشعبية ضد الضرائب وشغلوا دور القياديين في إغلاق وسدّ الشوارع ومحاربة الجنود المماليك.وقد حرص النواب دوماً على عدم مواجهة الزعران مُتحِدين، وعلى إبقاء قدر معين من الخلاف بينهم، وفي نفس الوقت كان الزعر يؤثرون في قوة النائب نفسه، فلذلك حرص النواب على إبقاء نوع من المودة معهم.
للمزيد من المعلومات عن الزعر راجع: (لابيدوس) ايرامارفين:مدن الشام في الصر المملوكي - دار حسان - دمشق - ط1-1985- ص 238- 250 العلبي: دمشق بين عصر المماليك والعثمانيين-ص 234 وما بعدها

2)) ابن حوقل: صورة الأرض، ص176، الحموي: معجم البلدان، 302/2.

(3) ابن جبير: الرحلة، ص237، الحميري: الروض المعطار، ص198.

على أن أهل حمص كانوا يتميزون برجاحة العقل وحسن الإقدام في الحروب فلهم تاريخ طويل يصعب معه أن تستطيع القوى الفرنجية الاستيلاء على حمص خلال هجماتهم على بلاد الشام لشدة أهلها واستبسالهم في الدفاع عن مدنيتهم كما أن الرحالة والجغرافيين الذين زاروا المدينة خلال القرنين الخامس والسادس الهجريين قد أشاروا إلى أن موقع حمص التجاري قد جعل أهلها يبتدعون الحساب لأنهم كانوا تجاراً يحتاجون إليه في أرباحهم ورؤوس أموالهم ونفقاتهم فكيف يكون فيهم هذه الصفات.

ويبدو أن ما ذكرته هذه المصادر عن حمص يرجع إلى بعض الغرائب التي اتصفت بها أهل حمص مثل ما ذكر من أنها لا تدخلها حية أو عقرب وإذا اغتسل أحد بماء حمص لا يقرب منه عقرب[1]، وهذا دليل واضح يبين لنا ما كانت عليه المدينة من عناية إلهية منحها الله لأهل هذه البلد أو ربما أن تربتها بها ما يمنع دخول العقارب إليها وهذه أيضاً هبة من الله سواء أكان ذلك في الشعب أم في التربة فإذا كان الله قد حبا المدينة فكيف يصبح أهلها بلهاء ولا يدرون ما يفعلون وزادت المصادر تشنيعاً بأهل حمص قائلة بأنهم كانوا أشد الناس على سيدنا على بن معاوية[2]، ولكن أثبتت الدراسات التاريخية أن القلة القليلة منهم كانوا شيعة يدينون بالمذهب النصيري ثم الإمامية.

وهناك أدلة تاريخية على أن معظم أهل حمص كانوا يدينون بالسنة منها:" أن أسد الدين شيركوه عندما دخل حمص عام (564هـ/ 1168م) لم يجد في المدينة من يخالفه بل رحبوا به لشدة تمسكهم وحبهم للسنة"، ولعل ما ذهب إليه هؤلاء المؤرخون راجع إلى وقوع حمص بين بلاد مختلفة، فيدخلها أخلاط الناس ويمتزجون بأهلها كما شهدت تقلبات عديدة فكثيراً ما غزتها الدول فملكها ابن عباس وفتحها أحمد بن طولون ثم الإخشيد ثم بنو حمدان ثم بكجور

---

(1) القزويني: أثار البلاد وأخبار العباد، ص184.

(2)ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج2، ص203، القزويني: آثار البلاد وأخبار العباد، ص184.

وأطاعت الفاطميين ثم صارت مدة تحت حكم الصليبيين دون أن يملكوها ملكاً ثابتاً ثم ملكها نور الدين محمود والأمير شيركوه ثم صلاح الدين والأيوبيون(1).

ليس من السهل علينا تحديد عناصر السكان التي وجدت في حمص، فقد توافدت عليها العديد من الشعوب والقبائل سواء كانت عربية أو غير ذلك، ومرد ذلك إلى أن موقع المدينة جعلها في صلات بين بلاد الشام ووسط وجنوب الجزيرة العربية(2).

1- العرب. 2- التركمان. 3- الأجناس الأخرى.

كان النسيج السكاني لأهل حمص خليطاً من العرب من طيء(3)، وكنده وحمير وكلب وهمذان وغيرهم من بطون اليمن(4)، وكانت قبيلة كلب تسكن الرستن(5)، وكذلك قبيلة بنو خالد(6)، والعكيدات والحسنة في أرجاء حمص(7)، أما بنو قضاعة سليم وبنو هاشم فكانوا يسكنون سلمية(8)، وكذلك بنو هندي الذين لمع نجمهم في منتصف القرن الخامس الهجري إلى أن صاروا رؤساء للمدينة عام 451هـ/ 1059م(9)، وبنو فضل الذين ينسبون إلى الفضل بن ربيعة

---

(1) لويس شيخو: محاضرة في تاريخ حمص، ص 732.

(2)نقلاً عن محمد محمد مرسى الشيخ: الإمارات العربية في بلاد الشام، ص14.

(2) بيشوف: تحف الأنباء، ص19.

(3) اليعقوبى: البلدان، ص110.

(4) ابن العديم: بغية الطلب، ج1، ص561.

(5) يرجع تسميتهم إلى خالد بن الوليد من بنى مخزوم من العدنانية. العمرى: مسالك الأبصار، ص116، القلقشندى صبح الأعشى، ج3، ص214، أحمد وصفي زكريا: جولة أثرية في بعض البلاد الشامية، ص203.

(6) مكرد على: خطط الشام، ج6، ص216، أحمد رمضان: المجتمع الإسلامي: ص217.

(7) ابن العديم: بغية الطلب، ج1، ص61، الاصطخري: مسالك الممالك، ج19، ص31.

(8) الصفدي: الوافي بالوفيات، ج19، ص31.

والذين تشعبوا بعد ذلك إلى شعب عديـدة ثم امتزجـت بهـم بعـض القبائـل في حمص مثل قبيلة بني خالد[1].

وإلى جانب العرب عاشـت في حمـص ومناطقهـا جماعـات أخـرى مـن الفرس والأكراد والأرمن ويـذكر الـبلاذري أن معاويـة قـد نقـل فـرس بعلبـك وحمص وأنطاكية إلى سواحل الأردن وصور وعكا ونقل أساورة البصرة والكوفة وفرس بعلبك إلى أنطاكية[2]، وكانت هذه القبائل تقـوم بمهـام كـبيرة في جميـع النواحي الحربية والاقتصادية وغيرها من المجالات، فمنهم الفلاحون والحرفيون والصناع وأرباب التجارة ومنهم العـسكريون الـذين شـاركوا في الحـرب وقـت الخطر وعاشت هذه القبائل في حمص وامتزج بعضها ببعض[3]، وبعضها الآخر فر نتيجة لتعرضها لكثير من التخريب والـسلب والنـهب والمـصادرات وفـرض الضرائب والحصارات من الروم والصليبيين وهـو مـا كـان لـه تـأثير كـبير علـى حياتهم الاجتماعية واستقرارهم ولكنهم على الرغم من ذلك لم يستكينوا للغـزاة ولم يقبلوا بوجودهم.

ومن خلال ما تقدم يعد العرب المسلمون العنصر الغالب على سكان نيابة حمص، وقد اشتملت النيابة إضافة إليهم أقليات دينية وعرقية وتبعاً لذلك يمكن تقسيم السكان فيحمص إلى:

أولاً : من الناحية الدينية :

يتوزع السكان في نيابة حمص على الديانات الكتابيـة الـثلاث: الإسـلام، والنصرانية، واليهودية.

---

(9) القلقشندى: صبح الأعشى، ج3، ص204.

(1) البلازرى: فتوح البلدان، ص52.

(3) القلقشندى: صبح الأعشى، ج3، ص203.

1 - المسلمون:

كان علماء الدين المسلمون صمام أمان في المجتمع الإسلامي، لأنهم احتلوا المنزلة الأرفع فيه، وظل الناس ينظرون إليهم بإكبار حتى وقتنا الحاضر. وقد تسرب إلى علماء الدين الفساد، وجَروا وراء مصالحهم الذاتية، بخضوعهم لرغبات الطبقة العسكرية وتنفيذهم مآربها على حساب الشعب

ويشكل المسلمون السُنة غالبية السكان في نيابة حمص، ويتوزعون في حواضرها وقراها وبواديها[1] ولا تتوافر الإشارات التي تبين بأن هذه المنطقة أو تلك مأهولة من أتباعا المذهب السني، ربما لأنهم كانوا يمثلون غالبية السكان ومما يدل على ذلك تعيين قضاة للقضاء من المذاهب السنية الأربعة الشافعي، والمالكي، والحنبلي، والحنفي. وتشير المعلومات التاريخية إلى أن وجود اليعة بحمص كان قليلاً جداً حيث سكتت عن ذكرهم ولم تتم الإشارة لهو سوى في خبرين هما:

1- وفاة أحد مشايخ الشيعة وهو الشيخ مخلص الدين المبارك الغساني الحمصي سنة 658هـ/ 1260 م بجبل لبنان بعد هروبه من حمص في العام نفسه خوفاً من المغول[2].

2- وفاة الشيخ المبارك محمد الملقب ابن مقبل[3].

---

(1) حسين أحمد سعيد الخصاونة: طبقات المجتمع في بلاد الشام في العصر المملوكي، رسالة ماجستير غير منشورة، اليرموك 1992م ص 1، زكريا: عشائر الشام ص 200.

(2)مخلص الدين المبارك بن يحيى بن معقل الغساني الحمصي: من غلاة الشيعة، توفي سنة 658هـ/ 1260م.اليونيني: ذيل 385/1، الصفدي: الوافي 383/4.

(3) ابن مقبل الحمصي: محمد بن مبارك بن مقبل بن الحسن الأديب الثائر، ولد سنة 607هـ/ 1210م، وتوفي سنة 670هـ/ 1272م.الصفدي: الوافي 383/4.

2 - النصارى:

إن الكنيسة المسحية هرمية، تتدرج الرتب فيها من أعلى إلى أسفل على النحو الآتي:

1- البطريرك: وهو صاحب أعلى سلطة، يأتمر بأمره أصحاب الرتب الأخرى وعامة النصارى، وهو المسؤول عن رعاياه في نيابة دمشق وحمص التي تتبع لها في عصر المماليك أمام النائب[1].

2 - الأسقف: ويأتي بعد البطريرك.

3 - المطران: وهو المسؤول عن النصارى في ناحية جغرافية معينة ومحدودة، ويمارس فيها سلطة قضائية.

4 - الكهنة: الذين رتبهم القلقشندي كالآتي: القسيس، والجاثليق، والشماس[2].

إن هذا الترتيب الكنسي ينطبق على طائفتي اليعاقبة[3] والملكيين[4] معاً.

ويبقى السؤال: هل كان هؤلاء فئة متميزة عن السكان؟

تصعب الإجابة على ذلك نظراً لقلة المعلومات التي وفرتها لنا المصادر التي اطلعنا عليها، والمرجح - بما أن النصارى كانوا يعيشون في أحيائهم

---

(1) الخالدي: المصدر السابق ص275 / القلقشندي: المصدر السابق ج2 ص473.

(2) القلقشندي: صبح الأعشى - ج5 - ص473-474.

(3) اليعاقبة: أصحاب يعقوب، قالوا بالأقانيم الثلاثة. ومنهم من قال: إن المسيح هو الله ومنهم من قال: انقلبت الكلمة لحماً ودماً فصار الإله هو المسيح. (الشهرستاني): محمد عبد الكريم (الملل والنحل) تح: جميل صدقي العطار - دار الفكر - بيروت - الطبعة الأولى - 2005 ص182-183.

(4) الملكيين: هم أصحاب ملكا الذي ظهر بأرض الروم، ومعظم الروم ملكانيين. وقالوا: إن الكلمة مازجت جسد المسيح كما يمازج الماء الخمر أو اللبن. الشهرستاني: المصدر السابق - ص179-181.

الخاصة، ويتمتعون بنظمهم الخاصة أيضاً - أنهم فئة اجتماعية متميزة ببعض وجوهها عن الفئات الاجتماعية الإسلامية، وقد شاركوا المسلمين الدمشقيين احتفالاتهم وأعيادهم، كما شاركهم المسلمون احتفالاتهم[1]. وقد عبر أحد المؤرخين المعاصرين عن ذلك بقوله:(قلما مضى شهر من شهور السنة طوال عصر المماليك دون أن تشهد البلاد عيداً دينياً.... واشترك في إحيائها المسلمون والنصارى من أهل البلد)[2].

وطلب منهم ارتداء اللون الأزرق للظهور بهيئة مميزة عن باقي فئات الشعب بشكل ملزم، ومارسوا حريتهم الدينية والاحتفال بأعيادهم، وبناء دور معابدهم، وترميمها، ومشاركتهم بالحياة الاقتصادية والعلمية، وكان واجبهم تجاه الدولة هو الطاعة ودفع الجزية مقابل المحافظة عليهم وعلى أولادهم وأعمالهم من قبل الدولة[3].

ويتوزع النصارى في نيابة حمص في مدينة حمص نفسها وقريتي قارة والقريتين، فقد ذكر الرحالة الروسي (قاسيلي) أثناء مروره بمدينة حمص في الفترة الواقعة ما بين سنة 1465 - 1466م أن عدد المسيحيين فيها أكثر من عدد العرب[4] ولعله لم يجانب الصواب فيما ذكره فكل المصادر تشير إلى الغالبية العظمى للسكان في نيابة حمص هم من العرب المسلمين، أما القريتين فقد كان كافة سكانها من النصارى كما ذكر ياقوت الحموي[5]،ثم استوطنها التركمان فيما بعد[6]،

---

(1) ضومط: دمشق الشام ص407.

(2) (زيتون): عادل (تاريخ المماليك) - جامعة دمشق - 1992 - ص145.

(3) (الشلي): فيصل(الأوضاع الإدارية في بلاد الشام خلال الفترة المملوكية الثانية) رسالة دكتوراه غير منشورة - جامعة دمشق - قسم التاريخ - 2006- ص134.

(4) ب.م.دانتسيغ: الرحالة الروس في الشرق الأوسط: ترجمة وتعليق معروف خزنة دار، دار الرشيد للنشر، بغداد 1981م ص 37، 38.

(5) ياقوت الحموي: معجم البلدان 326/4، ياقوت الحموي: المشترك ص 344.

(6) المقريزي: السلوك 931/1.

وقد كان جميع سكان قارة من النصارى كما ذكر ابـن جـبير أثنـاء مـروره بهـا سـنة (580هـ/1184م)[1].

وقد أفادت بعض المصادر التاريخية إلى قيام قسم منهم بالتجسس والعمل لصالح الصليبيين، وخطف من يتمكنون خطفـه مـن أبنـاء المـسلمين وبيعـه إلى الصليبيين في عكـار، لـذلك أمـر الظـاهر بيـبرس عـساكره العائـدة مـن سـيس سنة(664هـ/1266م) بنهبها وقتل رجالها وسبي النساء والأطفال[2]، وبلغ عـدد الذين سباهم ألف نسمة أصبحوا فيما بعد أجناداً وأمراء[3] وجعـل الظـاهر كافـة سكانها من المسلمين[4]. ومن المعلومات التي عثرنا عليها بين طيـات المـصادر بخصوص نصارى حمص في العصر المملوكي الحادثة التي رواها الصفدي عـن عيسى بن موسى المعروف بابن الزبطر، بكسر الـزاي والبـاء الموحـدة وسـكون الطاء المهملة وبعدها راء." كان نصرانياً مستوفياً بحمص، وقع منه تعرض بكلام قبيح لا يليق ذكره في حق سيدنا رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَـلَّمَ، فقـام النـاس عليه فسعى في الباطن، وسكنت القضية. ثم إن أهل حمص قـاموا عليـه وأثبتـوا شهادة استرعاها اثنان لآخرين عليه، فثبت ذلك على قاضي حمص، فـادعى أن معه نصيحة، فحمل إلى دمشق، فكتب قاضي حمص إلى قاضي قارا بأمره، فلما وصل إلى قارا أسلم وأراد من قاضي قارا أن يحكم بإسلام فـامتنع، فحـضر إلى دمشق وتظاهر بالإسلام فما قبل منه، وفوض شيخنا قاضي القـضاة تقـي الـدين السبكي الحكم فيه إلى قاضي القضاة جمال الدين المـرداوي الحنبلـي، فحكـم

---

(1) ابن جبير: رحلة ابن جبير ص 209.

(2) الدوادار المنصوري: التحفة الملوكية ص 58، أبـو الفـداء: المختـصر 4/4: الـذهبي: العـبر 309/3، ابن خلدون: العبر 445/5، القلقشندي: صـبح الأعـشى 117/4، العـيني: عقـد الجمان 425/1، ابن تغري بردي: النجوم 126/7.الطراونة: حمص ص125

(3) الدويهي: تاريخ الأزمنة ص 249

(4) أحمد بن يوسف القرماني: أخبار الـدول وآثـار الأول في التـاريخ 3 ج دراسـة وتحقيـق فهمي سعد، وأحمد حطيط ط1 عالم الكتب بيروت 1992م 444/3

بسفك دمه.وضربت رقبته في سوق الخيل بعد عصر الاثنين خامس شوال سنة إحدى وخمسين وسبع مئة بحضور القضاة الأربعة"[1]. ولعلها الحادثة الوحيدة التي وقعت من نصارى حمص خلال هذا العصر.

كما يوجد في نيابة حمص عدد من الأديرة مثل دير بعلبة ودير ميماس، ودير المُغان[(2)]، ودير مسحل[(3)]، ودير إسحاق[(4)] الذي دمرته الرياح الشديدة سنة (719هـ/1319م) وحملت الرهبان، وجميع موجودات الدير من القمح والشعير وغيرها وكتب ذلك في محضر شرعي إلى السلطان محمد بن قلاوون[(5)]. وكثيراً ما كان يُلزم نصارى الدولة المملوكية بالتميّز في لبسهم عن لباس المسلمين وفي عدم ركوبهم الخيل والبغال أو الدخول إلى الحمّام إلا والأجراس معلقة في أعناقهم[(6)].

3 - اليهود:

لم يشكل اليهود نسبة كبيرة من سكان نيابة حمص المملوكية، وكان عددهم محدود جداً بالنسبة لعدد سكان النيابة خلال العصر المملوكي، وأشارت المصادر التاريخية إلى أن مقراتهم كانت موجودة في كل من مدينة حمص وتدمر والقريتين، ونظراً لقلة عددهم ونشاطهم في نيابة حمص غفلت المصادر التاريخية وسكتت عن ذكرهم باستثناء الإشارة التي أوردها الرحالة اليهودي بنيامين التطيلي الذي ذكر في رحلته سنة (569هـ/1174م) أنه:" يسكن في تدمر ألفا يهودي، وفي مدينة حمص عشرون يهودياً، وفي القريتين يهودي واحد"[(7)]،

---

(1) الصفدي: أعيان العصر 3/724-725

(2) دير المُغان: يقع في خربة بني السميط.ياقوت الحموي: معجم البلدان 2/538

(3) دير مسحل: يقع بين حمص وبعلبك.البغدادي: مراصد 2/577.

(4) دير إسحاق: يقع بين حمص وسلمية.ياقوت الحموي: معجم البلدان 2/498

(5) شيخ ربوة: نخبة ص 85.

(6) ابن كثير: البداية والنهاية، 14/305. المقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك4/311

(7) بنيامين التطيلي: رحلة ص 118، 119.

وأضاف أن نشاطهم الاقتصادي كان في صناعة المنسوجات والصباغة، إضافة إلى عملهم بالتجارة[1]. وفي أوقات الشدائد كان المسلمون وأهل الذمة كثيراً ما يتكاتفون لمواجهتها ؛ فعندما حلّ الطاعون الأسود الشهير ببلاد الشام - ومعظم أرجاء العالم القديم - سنة (749هـ/1348م) أمر نائب الشام أن يخرج جميع أهل دمشق للعبادة والتضرع لله تعالى لرفع البلاء، "فخرج مع المسلمن اليهود بتوراتهم والنصارى بأناجيلهم ومعهم النساء والولدان، وجميعهم باكون متضرعون إلى الله بكتبه وأنبيائه"[2].

سكن النصارى واليهود في أحياء منفصلة خاصة بهم ولكنها متاخمة للشوارع الإسلامية، ورغم الاختلاف بين الأشخاص في الانتماء الديني إلا أنه لم يكن هناك عزلة بين هذه الأقليات والجماعات الإسلامية[3] فقد كان موقف الإسلام من أهل الذمة وراء هذا الجو الاجتماعي الذي سادته تروح التسامح[4].

ووردت إشارات ومعلومات تاريخية تفيد بأنه قد كان المسلمون يشاركون المسيحيين أثناء الاحتفال ببعض أعيادهم، وعليه فإن السلمون وأهل الذمة عاشوا في بلاد الشام خلال هذه العصر المملوكي عيشة طبيعية في كنف الإسلام، متمتّعين بمستوى عال من التسامح الديني والأخوّة الانسانية، فهم كانوا كجزء يرتبط ارتباطاً بالكل الشامي، فلم يكن هناك أي انعزال بين الجماعات الشامية ككيان عام[5]، وذكر أحد مؤرخي العصر معلومة مهمة تؤكد هذه الناحية بقوله: "في عيد الفسح (الفصح) يحتفل أهل حماة مدة ستة أيام أولها يوم الخميس الكبير وهو خميس العهد آخرها يوم الثلاثاء ثالث (الفصح) تنتعش

(1) العيني: السيف المهند ص 148، بنيامين التطيلي: رحلة ص 118، 119.

(2) ابن بطوطة: رحلة ابن بطوطة ص114.

(3) إيرا لابدوس: مدن إسلامية ص 147

(4) فايزة عبد الرحمن حجازي: أهل الذمة في بلاد الشام في العصرين الأيوبي والمملوكي رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة اليرموك 1992م ص 141

(5)لابيدوس: مدن الشام في العصر المملوكي، ص147.

فيه النساء ويلبسن الكساوي الفاخرة ويصنعن البيض بألوان ويعملون أقراص الكعك، والمسلمون محتفلون أكثر من النصارى... ويرد إلى حماة من حمص جماعات للمشاركة في هذا الاحتفال"[(1)].

ثانياً: من الناحية العرقية:

أ - الأتراك والجراكسة:

وكانت محصورة بالأمراء المماليك، وهم من طبقة المماليك وكانت الوظائف التابعة لهذه الطبقة وهي ما تعرف باسم (الوظائف العسكرية أو وظائف أرباب السيوف) محتكرة من قبلهم، وخاصة بهم، ولا يجوز لأهل البلاد الدخول في السلك العسكري أو أن يكون من أرباب السيوف، ولهؤلاء الأمراء وظائف عديدة ويشكلون الطبقة الحاكمة في النيابة، وهم يتكونون من النواب والجنود والكتبة والموظفين من أرباب السيوف وعائلاتهم وهم الفئة المسيطرة التي تتولى إدارة النيابة وحكمها وقد سبق الحديث عن هذه الفئة بشكل مفصل لدى الحديث عن الوظائف الإدارية في نيابة حمص[(2)].

ب - العرب:

ويعد وجود العرب في بلاد الشام قديم حيث وردت أول إشارة صريحة بوجود قبيلة عربية في بلاد الشام في الربع الأول من الألف الأول قبل الميلاد(854 ق م في الحوليات الآشورية التي تحدثت عن: "**ألف راكب جمل من العرب**" يتزعمهم رجل اسمه (جنديبو العربي)، عندما دخلوا في حلف عسكري ضد الآشوريين الذين غزوا بلاد الشام في عهد الملك (شلمنصّر الثالث 858-854 ق م)[(3)]سبق وأشرنا إلى أن النسيج السكاني لأهل حمص خليطاً من

---

(1) شيخ الربوة: نخبة ص 280

(2) لابدوس: مدن إسلامية ص 90، 147، الطراونة: مملكة صفد ص 148.

(3) (عاقل):نبيه-تاريخ العرب القديم وعصر الرسول-ط2-دار الفكر- دمشق-1972- ص52-54

العرب من طيء[1]، وكنده وحمير وكلب وهمذان وغيرهم من بطون اليمن[2]، وكانت قبيلة كلب تسكن الرستن[3]، وكذلك قبيلة بنو خالد[4]، والعكيدات والحسنة في أرجاء حمص[5]، أما بنو قضاعة سليم وبنو هاشم فكانوا يسكنون سلمية[6]، وكذلك بنو هندي الذين لمع نجمهم في منتصف القرن الخامس الهجري إلى أن صاروا رؤساء للمدينة عام (451هـ/1059م)[7]، وبنو فضل الذين ينسبون إلى الفضل بن ربيعة والذين تشعبوا بعد ذلك إلى شعب عديدة ثم امتزجت بهم بعض القبائل في حمص مثل قبيلة بني خالد[8]. وتذكر المصادر التاريخية:" أن أهل حمص جميعاً يمنيون"[9].

ولم يتوقف العنصر العربي عن سكن حمص حتى العصر المملوكي[10]، كما أشار الرحالة ابن بطوطة عندما زار مدينة حمص أن:" أهل حمص عرب"[11]، ويعد الوجود العربي في بلاد الشام ذو جذور تاريخية قديمة تعود إلى أوائل الألف الأول قبل الميلاد وازداد منذ القرن الثالث الميلادي فصاعداً،

---

(3) بيشوف: تحف الأنباء، ص19.

(4) اليعقوبي: البلدان، ص110.

(4) ابن العديم: بغية الطلب، ج1، ص561.

(5) يرجع تسميتهم إلى خالد بن الوليد من بنى مخزوم من العدنانية. العمرى: مسالك الأبصار، ص116، القلقشندى صبح الأعشى، ج3، ص214، أحمد وصفي زكريا: جولة أثرية في بعض البلاد الشامية، ص203.

(6) كرد على: خطط الشام، ج6، ص216، أحمد رمضان: المجتمع الإسلامي: ص217.

(7) ابن العديم: بغية الطلب، ج1، ص61، الاصطخري: مسالك الممالك، ج19، ص31.

(1) الصفدي: الوافي بالوفيات، ج19، ص31.

(2) القلقشندى: صبح الأعشى، ج3، ص204.

(9) اليعقوبي: البلدان ص 81.

(10) الحياري: الإمارة الطانية ص28 - 35.

(11) ابن بطوطة: تحفة النظار ص 86.

وكانت أراضي النيابة أحدى مواطن القبائل العربية، ففي فترة ما قبل الإسلام استوطنت قبيلة كلب تدمر[1].

وفيما يلي ذكر للقبائل العربية التي سكنت حمص وباديتها خلال عصر سلاطين المماليك:

(1) قبيلة آل فضل: وهم من ربيعة الأكثر انتشاراً وعدداً مقارنة بغيرهم من القبائل وتمتد منازلهم من حمص إلى قلعة جعبر إلى الرحبة، أي أنهم انتشروا ما بين الشام والعراق على جانبي نهر الفرات، وبسبب اتساع نفوذهم وكثرة عددهم وهيبتهم وصفوا بأنهم ملوك العرب بالشام[2]، وقد بلغ عدد أفرادها في القرن8هـ/14م (14ألف) نسمة، وقد شغلت هذه القبيلة دوراً هاماً خلال العصر المملوكي من خلال كونهم صمام أمان لأطراف النيابة، وحُماة طريق الحج، ومن خلال اشتراكهم في التمردات التي قامت ضد السلطنة المملوكية، وكذلك الحال جهودهم في قمع حركات التمرد ذاتها[3]. ولا سيما تمرد علم الدين سنجر، وسنقر الأشقر[4].

(2) بنو خالد: ويطلق عليهم عرب حمص[5] وهم بطن من مخزوم من قريش من العدنانية، ويدعون النسب إلى خالد بن الوليد. وكانت قبيلة بني مخزوم عشيرة خالد بن الوليد مسؤولة عن تجهيز الجيوش وقيادة الفرسان والتجهيز للحرب في الجاهلية. لذلك كان على القبيلة أن تشرف على تربية الخيل وتدريبها وإعداد العدة

---

(1) عبد العزيز الدوري: العرب والأرض في بلاد الشام في صدر الإسلام، المؤتمر الدولي العرب والأرض ص25

(2) العمري: التعري بالمصطلح الشريف-ص288،284،279. القلقشندي: نهاية الأرب ص110

(3) ابن شاهين: زبدة كشف ص 105، 106.

(4) المحيميد:دور إمارة آل فضل السياسي في بلاد الشام إبان العصر المملوكي ص460-470

(5) القلقشندي: نهاية الأرب ص242

للغزو، فقد كان الوليد كثير المال حتى أنه لم يذكر هناك عمل لخالد يقوم به قبل إسلامه، وقد أتاح هذا الانصراف إلى هوايته المفضلة وهي ممارسة الفروسية وركوب الخيل، والتدريب على استخدام السيف والرمح والقوس[1].

(3) بنو بهراء: هم بنو بهراء بن عمرو بن الحافي بن قضاعة بطن من قضاعة من القحطانية، والنسب إليها بهراني، كانت منازلهم الجزيرة العربية، وعندما هاجروا إلى الشام استقر أكثرهم في حمص[2] وخاصة في الرستن[3].

(4) بنو عمار: وهم من القبائل الكلبية اليمنية الذين نزل بعضهم مدينتي تدمر وحمص[4].

(5) الشقران: من غسان القحطانية، وهم بنو شقران بن عمرو بن صريم بن حارثة بن عدي بن عمرو بن مازن بن الأزد، ويوجد بحمص جماعة منهم[5].

(6) بنو كلب: بطن من قضاعة وهو بنو كلب بن وَبرة من قضاعة ومنازلهم تدمر وسلمية وحمص[6] ومن كلب عامر بن عوف خرج عشرون بطناً أولها كلب

---

(1) القلقشندي: صبح الأعشى 222/4، (أمين): أحمد (فجر الإسلام) الهيئة المصرية العامة للكتاب ـ القاهرة ـ بلا تاريخ ـ ص17/ الزركلي: الأعلام ج2 ص300. للمزيد حول بني خالد راجع (ابن الحنبلي): محمد بن ابراهيم (ت971هـ/1563م) (إخبار المستفيد بأخبار خالد بن الوليد) تح: حسام الدين الحزوري- دار نور حوران-دمشق ط1-2020 ص45-46

(2) البلاذري: البلدان ص324.مصطفي مراد الدباغ: القبائل العربية وسلائلها في بلادنا فلسطين، المؤسسة العربية للدراسات والنشر.أحمد لطفي السيد: قبائل العرب 15/1

(3) اليعقوبي: البلدان ص 81.

(4) كرد علي: خطط الشام 65/1-66

(5) الدباغ: القبائل العربية ص 166، عمر رضا كحالة: معجم قبائل العرب القديمة والحديثة 4 ج ط5، مؤسسة الرسالة، بيروت 1985م 600/2.

(6) (السويدي): محمد أمين البغدادي: (سبائك الذهب في معرفة قبائل العرب)، دار الكتب العلمية، بيروت 1986م ص 95، زكريا: عشائر الشام ص 78.

كنانة وهي قبيلة كبيرة موطنها بأرض حمص والرستن إلى أفامية وما بجوارها إلى جبل بهرا، أما منازل كلب عـامر فهـي مـن المنـاظر في طـرف البريـة إلى أرض دمشق والقريتين والغنتر وضمير وما والاها[1].

(7) بنو كلاب: بطن من عامر بن صعصعة كانوا يسكنون الربذة وفـدك ثم انتقلوا واستقروا في مدن الشام[2]، وكانوا يسكنون في أرض النيابـة شمـال ثنيـة العقاب فيما يعرف ببلد حمص[3].

(8) بنو أسلم: ينسبون إلى أسلم بن قصي بن حارثة بن عمـرو مـن جـذام من القحطانية، كانت منازلهم بلاد غزة وسكن منهم جماعة في تدمر والمناظر[4].

(9) الجراجمة: قوم من النصارى كانوا يعيـشون في الجرجومـة في جبـال الأمانوس،في سنة (72هـ/691م) أرسل الخليفة عبد الملـك بـن مـروان القائـد سـحيم بـن المهـاجر فقـضى علـى تجمعهـم بـسبب مـساندتهم للامبراطـور جستنيان،فتفرق الجراجمة في قرى حمص ودمشق.[5]

(10) بنو بكر بن وائل: بطن من كندة من القحطانية وهم بنو ثعلبة بن عقبة بن السكون بن أشرس بن كندة ويوجد في حمص وبلادها قوم منهم[6].

(11) بنو غسان: من الأزد من القحطانية وهم بنو جفنة والحارث وسمـوا بغسان لماء اسمه غسان بن زبيد وربع في اليمن نزلوا عليه، هاجروا من اليمن في أواخر القرن الثالث الميلادي واستقرت جماعة منهم في حمص وتدمر[7].

---

(1) ابن العديم: بغية الطلب 1/561، القلقشندي: قلائد ص 46 - 48.الطراونة: حمص ص129.

(2) القلقشندي: نهاية الأرب ص 365.

(3) القلقشندي: قلائد ص 46-47

(4) ابن العديم: بغية الطلب 1/561، 562.

(5) (خماش):نجدة(الجراجمة) الموسوعة العربية مج7/523

(6) القلقشندي: نهاية الأرب ص 170، القلقشندي: قلائد ص 131.

(7) القلقشندي: نهاية الأرب ص 348، القلقشندي: قلائد 97، القلقشندي: صبح الأعـشى 1/371، الدباغ: القبائل العربية ص 152.

(12) عُقبة: من قبيلة تغلب ويوجد نفر منهم في القريتين[1].

(13) غزية: بنو غزية بن أفلت بن ثُعل بن عمر بن سلامان بن ثُعل بن عمرو بن الغوث بن طيء ومن بطونهم البطنيين[2].

(14) سليح: نسبة إلى عمرو وبنيه بطن من قضاعة نزلوا أرض الشام واستقر قسم منهم بأرض حمص[3].

ج - الأكراد والتركمان:

أول من أتى بالكرد إلى حمص هو عاملها شبل الدولة نصر بن مرداس سنة (424هـ) لقرب موطنهم الأصلي من بلاد الشام قد سهل دخلوهم إليها إضافة إلى أن الموجة التركمانية قد جاءت معها بأعداد كبيرة من الأكراد لبلاد الشام وأسكنهم حصن الصفح، ليحفظوه ويحفظوا الطريق بين حمص وطرابلس، فسمي الحصن منذ ذلك الوقت بحصن الأكراد، وبقوا فيه إلى أن جاء الصليبيون وسيطروا عليه فتشتتوا واستقر قسم منهم في حمص[4]. ويعد بنو شيركوه من أشهر أسرهم التي ساهمت في تاريخ حمص ولعبت هذه الأسرة دوراً كبيراً في الأحداث التاريخية للمدينة.

ومن أشهرهم الملك الأشرف أبو الفتح مظفر الدين موسى ابن الملك المنصور إبراهيم ابن الملك المجاهد أسد الدين شيركوه الكردي الدويني الأيوبي، صاحب حمص وتلّ باشر والرحبة وتدمر[5].

---

(1) القلقشندي: نهاية الأرب ص 176، 177 القلقشندي: صبح الأعشى 91/1.

(2)القلقشندي: صبح الأعشى 275/1.

(3) السويدي: سبائك الذهب ص 74، الطراونة: حمص ص129-130

(4) زكريا: عشائر الشام 657/2

(5)أبو الفداء: المختصر في أخبار البشر، ص461. قطب الدين اليونيني: ذيل مرآة الزمان، 275/1

أما التركمان فقد كان أول رصد لهم في بلاد الشام سنة(435هـ/1063) وذلك في تحرك للتركمان في شمالي بلاد الشام، ومن دون أن تفصل المصادر التاريخية في أسباب هذا الدخول[1]، وسكنوا في الأجزاء الشمالية من بلاد الشام في المنطقة الممتدة جنوبي المعرة وحماة إلى مدينة حمص، وقد ساعدهم على استيطان هذه المنطقة حالة التمزق السياسي والانهاك الاقتصادي للدولة الفاطمية، وانشغال بيزنطة بحروبها الداخلية من جهة أخرى[2].

وكانت هذه القبائل تقوم بمهام كبيرة في جميع النواحي الحربية حيث استفادت دولة سلاطين المماليك من خدمات وجهود الأكراد والتركمان في الجيوش المملوكية في مختلف أنحاء بلاد الشام[3]. وكذلك استفادت من خدماتهم الاقتصادية فمنهم الفلاحون والحرفيون والصناع وأرباب التجارة ومنهم العسكريون الذين شاركوا في الحروب وقت الخطر، وعاشت هذه القبائل في حمص وامتزج بعضها ببعض[4].

تمركز سكن الأكراد والتركمان في نيابة حمص في كل من مدينة حمص والقريتين ونستدل على ذلك أنه أثناء الاجتياح المغولي لبلاد الشام سنة (702هـ/1303م) "توجهت طائفة منهم إلى القريتين وتمكنت من إلحاق الضرر بالتركمان الموجودين في القريتين، وسبوا من نسائهم وأولادهم نحو ستة آلاف أسير"[5].

وكذلك الحال تخبرنا المصادر التاريخية على وجود التركمان في نيابة حمص عندما تعرضت إحدى قرى حمص للسيول سنة (716هـ/1316م) "قد أهلكت هذه القرية وجرفت عدة بيوت للتركمان والأكراد وغرق منهم

---

(1) ابن الأثير: الكامل 9/381-383

(2) مصطفى: دخول الترك ص 384.

(3) لابيدوس: مدن إسلامية ص 148.

(4) القلقشندي: صبح الأعشى 3/203.

(5) ابن تغري بردي: النجوم 8/124 - 130

عدد كبير[1]. ويشير أحد الباحثين إلى أن هذه القرية هي القريتين ولعله جانب الصواب في اعتناقه لهذا الرأي بسبب وقوع القريتين في بادية الشام التي تتعرض للسيول بشكل دائم.

ثالثاً : من حيث نمط المعيشة :

1 - الحضر: وهم سكان المدن والقرى وقد كانوا يشتغلون بالفلاحة والتجارة والحرف المحلية التقليدية[2].

2 - البدو: عاش في نيابة حمص عدد من القبائل البدوية وعلى رأسهم قبيلة آل فضل أمراء العرب في بادية الشام[3] وقد كان لهم دور فاعل في تاريخ النيابة في العصر المملوكي كما عاش في أراضي النيابة عدد من العشائر البدوية الأخرى والتي كان معظمهم من أحلاف آل فضل.

لقد تعرضت هذه الفئات الاجتماعية خلال العصر المملوكي للظلم والقسوة والمصادرة والتنكيل والتعذيب على يد بعض أفراد السلطة المملوكية، الذين بالغوا في الاساءة إلى عامة الناس فظهرت طبقة من الفئات الشعبية التي عُرفت باسم (الزعرو الحرافيش) والتي تحولت إلى مصدر قلق في زعزعة نظام الحكم في هذه الدولة[4]، وهذا ما عبّر عنه ابن خلدون بقوله: "إن الملك إذا كان قاهراً باطشاً بالعقوبات، منقباً عن عورات الناس وتعديد ذنوبهم، شملهم الخوف والذل ولاذوا منه بالكذب والمكر والخديعة، فتخلّقوا بها وفسدت بصائرهم وأخلاقهم، وربما خذلوه في مواطن الحروب والمدافعات، ففسدت الحماية بفساد النيابات وربما أجمعوا على قتله (أي الحاكم)، لذلك تفسد الدولة...، وإذا كان (الحاكم)

---

(1) المقريزي 160/2.

(2) لابيدوس: مدن إسلامية ص 147، 148.

(3) لابيدوس: مدن إسلامية ص 147، 148.

(4) يوسف درويش غوانمة: دمشق في عصر دولة المماليك الثانية، دار الفكر ناشرون وموزعون، عمان، ط1، 2005م، ص105.

رقيقاً بهم (الرعية) متجاوزاً عن سيئاتهم، استمالوا إليه ولاذوا به وأُشربوا محبته، واستماتوا دونه في محاربه أعدائه، فاستقام الأمن من كل جانب"[1].

والمتأمل في التاريخ المملوكي يرى ذلك بوضوح ؛ فالثقة بين الحاكم وأعوانه شابها كثير من الاضطراب وعدم الثقة ؛ فالسلطان كان أول اهتمامه عندما يصل إلى الحكم الانتقام من الخصوم بأبشع وسائل التعذيب، فتقسوا القلوب وتتفنّن النفوس في إيقاع العقوبة وتنفيذها بطرق بشعة، والتي كانت في أغلب الأحيان ليس من أجل تحقيق العدالة والحق وإنما لإرهاب الشعب وإشغاله[2]. وكانت من أبرز تلك العقوبات وأقساها: "التّوسيط" ؛ وهو قطع الشيء نصفين[3]، وهو نوع من القتل بضرب المحكوم عليه بالسيف بقوة تحت السرّة لقسم الجسم إلى نصفين[4].

وكانت السلطة تلجأ إلى هذا الأسلوب في إعدام أعداد كبيرة من السجناء الذين يقبض عليهم بعد إخماد فتنة أو محاولة قطع الطريق من طرف الزعر أو العربان[5]. وممّن وُسّط من أفراد الطبقة الشعبية ذلك الفقير الصوفي الذي أعدم بهذه الطريقة سنة 702هـ/1302م، وكان هذا الرجل معروفاً بالشرّ والفضول وقام بتزوير كتاب يتهم به شيخ الإسلام ابن تيمية والقاضي شمس الدين ابن الحريري[6] وجماعة من الأمراء والخواص بأنهم يناصحون المغول ويكاتبونهم[7].

---

(1) ابن خلدون: كتاب العبر، (185/1).

(2)عاشور: المجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك، ص111.

(3) الرازي: مختار الصحاح، ص338.

(4) ابن كثير: البداية والنهاية، (238/14). المقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك، (404/1).

(5) المقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك، (686/2).

(6) هو قاضي القضاة شمس الدين ابن الحريري أبو عبد الله محمد بن صفي الدين أبي عمرو عثمان بن أبي الحسن عبد الوهاب الأنصاري الحنفي الدمشقي. سمع الحديث واشتغل، وكان فقيهاً جيداً، درّس بمدارس كثيرة بدمشق، ثم ولي قضاء دمشق ثم رئاسة القضاء بالقاهرة واستمر بها مدة طويلة محفوظ العرض لا يقبل من أحد هدية ولا تأخذه في الحكم لومة لائم. توفي في جمادى الآخرة سنة 737هـ/1336م وله من العُمر 84 سنة. انظر ترجمته في: ابن كثير: البداية والنهاية، (162/14). ابن العماد: شذرات الذهب 88/6..

(7) ابن كثير: البداية والنهاية، (220/14).

ومن تلك العقوبات كذلك "التّسمير"، وهو نوعٌ من الصلب على صليب من الخشب أو على أداة تسمى التّسمير[1]، وتدق أطراف المحكوم عليه بالمسامير إلى الخشب، فيبقى المسمر ساعات أو أيام حتى يموت، وهو ما يُسمّى بتسمير الهلاك[2]، وقد يفكّ منه التسمير ويعفي عنه ويسمى حينئذ بتسمير التعزيز والتأديب[3]، وقد كان التسمير من وسائل التعذيب الشائعة في العصر المملوكي ولم تسلم منه حتى النساء[4]. ومن الأمثلة على مثل هذه العقوبة أن السلطان الناصر محمد بن قلاوون (ت741هـ/1340م) أمر بتسمير أحد المحتالين الذي صنع ملحمة وخدع بها أحد مماليك الناصر وأوهمه أنه سيصبح ملكاً، فسُمّر المحتال وأرسل على جمل إلى دمشق ثم جالوا به المنطقة حتى وصلوا إلى نهر الفرات فألقوه فيه[5].

ومن العقوبات "التّشهير" وهو في اللغة إذاعة السوء[6]، وأما في المصطلح المملوكي فهو الطواف بالمحكوم عليه في الشوارع راكباً على الجمل أو حمار والمناداة عليه بما يكره من عيوب ونقائص، وفي نهاية المطاف يضرب وسط الناس بالسياط عقاباً له على ذنبه[7]. ومن أمثلة ذلك ما حدث سنة

---

(1) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة في أخبار ملوك مصر والقاهرة 184/11

(2) محمد أحمد دهمان: معجم الألفاظ التاريخية في العصر المملوكي، دار الفكر المعاصر، بيروت، ط1، 1990م، ص45.

(3) عبد الرؤوف جبر القططي: السجون في مصر وبلاد الشام في الدولتين الأيوبية والمملوكية 676هـ - 923هـ/1171م - 1517م، رسالة ماجستير في التاريخ، إشراف: د. رياض مصطفى شاهين، الجامعة الإسلامية، غزة، 1433هـ/2012م، ص141.

(4) القططي:المرجع نفسه، ص142.

(5) ابن حجر: الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، (154/2).

(6) الزيات وآخرون: المعجم الوسيط، (149/1).

(7) ابن دقماق: إبراهيم بن محمد القاهري (ت809هـ/1406م): الجوهر الثمين في سير الملوك والسلاطين، تحقيق: محمد كمال الدين عليّ، دار عالم الكتب، بيروت، ط1، 1985م، ص198. وانظر: يوسف غوانمة: دمشق في عصر دولة المماليك الثانية، ص106.

698هـ/1298م حيث شُهِّر برجل من دمشق تعاون مع المغول وصار يدلّهم على الطرقات[1]. وكان العوام يتعرضون للمشّهر بهم ويهينـونهم، وربمـا يـضربونهم بالأحذية ويسمعونهم ما يكرهون[2].

وإلى جانب ما ذُكر، كان هناك أنوع أخرى من طرق التعـذيب الـذي كـان يمارسه الحكام المماليك ؛ منها العَصْر[3] والتّكحيل[4] والتّسميل[5] وقلـع العـين والتّسعيط[6]، إلى جانب الضرب على أجزاء من الجـسم باسـتخدام المقرعـة أو العصا أو الدرّة[7]، وغيرها من وسائل التعذيب[8] القاسية التي مارسـتها الـسلطة المملوكية والتي تقشعر لوصفها الأبدان، وهي وسائل ليس لها أي مسوغ شرعي

---

(1) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة في أخبار ملوك مصر والقاهرة، (354/4).

(2) المقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك، (215/2).

(3) والآلة المستخدمة فيه تسمى معصرة، وهي مكونة من خشبيتين مربوطتين ببعضها يوضـع بينهما المذنب أو رأسه أو رجلاه أو عقباه (يداهـ) ثم تشدّ الخشبتان شدّاً وثيقاً، وغالباً ما يؤدي ذلك إلى كسر العظم المعصور بـين الخـشبتين. سـعود محمـد العـصفور: وسـائل التعذيب في العصر المملوكي، مكتبة ابن قتيبة، 1420هـ، ص87.

(4) التكحيل: هو كيّ مواضع الكحل - وهي فوق منابت الأشعار - بمرود ونحوه بعد تصليبه بالنار. محمد دهمان: معجم الألفاظ التاريخية في العصر المملوكي، ص48.

(5) التسميل: هو فقع العين بمسمار أو حديدة محماة، وقد يكون بالـشوك أيـضاً. انظـر: ابـن منظور: لسان العرب345/11 مادة "سمل".

(6) التّسعيط: هو إدخال الدواء أو الماء والخـل والجير في أنـف المـذنب. الفـيروز آبـادي: محمد بن يعقوب الشيرازي (ت817هـ/1415م): القاموس المحيط، مؤسسة الرّسـالة، مكتب تحقيق التراث، بيروت، ط2، 1407هـ/1987م، ص377.

(7) (السخاوي): محمد بن عبد الرحمن المصري (ت902هـ/1496م): التـبر المـسبوك في ذيل السلوك، مكتبة الكليات الأزهرية، القاهرة، (د.ط)، (د.ت)، ص350.

(8) للمزيد من المعلومات حول هذا الموضوع انظـر: سـعود بـن محمـد العـصفور: وسـائل التعذيب في العصر المملوك، ص62 - 95. عبد الـرؤوف القططـي: الـسجون في مـصر وبلاد الشام في الدولتين الأيوبية والمملوكية، ص133- 156.

في الشريعة الإسلامية، بل تنافي تعاليم الدين الإسلامي وتهدر الكرامة الإنسانية، لأن النبيّ ﷺ نهى عن التعذيب بقوله: "إن الله يعذّب الذين يعذّبون الناس في الدنيا"[1].

وساهم سكان حمص في الدفاع عن مدينتهم ضد الأخطار التي وقعت بهم ومن ذلك نذكر تصديهم للمغول ؛ فعندما تعرضت حلب كأول مدينة شامية واجهت العاصفة المغولية بعدما أصدر هولاكو أمره لقواته سنة 657هـ/1259م بعبور الفرات ومهاجمة بلاد الشام، فعندما وصل الخبر إلى المدينة خرج عسكر المسلمين ومعهم جمع غفير من العوام والسواقة[2]، ورغم هذا الحشد الشعبي للتصدي لهذا الهجوم إلا أن مدينة حلب سقطت في أيدي الأعداء ثم جاء دور مدينة دمشق التي قام حاكمها الملك الناصر صلاح الدين الثاني[3] (ت658هـ/1259م) بمحاولة جمع مزيد من القوات، فانضم إليه أعداد كبيرة من المتطوعة والغرباء[4]، وزاد عدد الذين شاركوا في الدفاع عن المنطقة الشامية أمام الزحف المغولي ثم تراجعوا إلى حمص سنة 660هـ/1262م عن مائتي فارس بعائلتهم[5]، وقد قُتل خلال هذا التراجع عدداً كبيراً من السوقة

(1) الحديث أخرجه مسلم في صحيحه، في كتاب البرّ والصلة والآداب، باب: الوعيد الشديد لمن عذب الناس بغير حق، حديث رقم 2613.
(2) ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر، ص93.
(3) هو الملك الناصر أبو المظفر صلاح الدين يوسف ابن الملك العزيز محمد بن الملك الظاهر غازي ابن الملك الفاتح صلاح الدين الكردي الدويني الأيوبي، المعروف بصلاح الدين الثاني، صاحب دمشق وحلب. كان ملكاً كريماً كثير المعروف، حسن الأخلاق، مُحبّباً إلى الرعية، يؤثر العدل ويكره الظلم. قتله هولاكو بتبريز - مع جملة من الأمراء والأعيان ممن كان معه - وذلك في شوال سنة 658هـ/1259م وكان له من العُمر 32 سنة. انظر ترجمته في: قطب الدين اليونيني: ذيل مرآة الزمان، 231/1. ابن كثير: البداية والنهاية، 209/13.
(4) ابن كثير: البداية والنهاية، 211/13.
(5) ابن واصل: مفرج الكروب، 406/2.

والعوام[1]، ورابطت بمدينة حمص قوة عسكرية من الحرافيش من أجل الدفاع عنها، وحتى حينما همّت مجموعة من الجيش المغولي بالدخول إلى مدينة حمص قام العوام والسواقة بالاشتباك معهم في قتال عنيف، إلا أن الأمر انتهى بهزيمة العوام وقتل كثير منهم[2].

وفيما يلي جدول يعرّف بأهم الفئات الشعبية الشامية في العصر المملوكي[3] :

الرقم	الفئة	تعريفها
1	الزّعار	فئة شعبية تجوس الأزقة بلا عمل وتنصرف إلى العبث واللهو وقطع الطرقات في الأماكن المهجورة.
2	الحرافيش	فئة شعبية تعتبر من أحطّ الطبقات قدراً، وكانوا يلجؤون إلى السلب والنهب كلما تعطّلت مصادر رزقهم بسبب الفتن.
3	المتلصّصون	أو الحرامية أو المناسر؛ وهم فئة شعبية تستهدف الأمراء والتجار والحوانيت والأسواق وتظهر أثناء ذلك بعض مظاهر الرجولة.
4	الزّناطرة	فئة شعبية من السكان يعيشون داخل ولكنهم يشتهرون بحبّ الاضطراب والهيجان وافتعال المشاكل.
5	العيّارون	وهي فئة شعبية واسعة يدخل في مسمّاها الرعاع والأوباش والسوقة، ولكن اختصت بنوع من اللصوص الذين يستهدفون أخذ أموال الأغنياء لتوزيعها على الفقراء.

❊ ❊ ❊

(1) النويري: نهاية الأرب في فنون الأدب، 34/31.
(2) قطب الدين اليونيني: ذيل مرآة زمان، 93/4.
(3) الزهراني: الفئات الشعبية-ص187.

الحركة العلمية والنشاط الثقافي في نيابة حمص

لقد سار سلاطين المماليك وأمراؤهم ونوابهم على نهج الأيوبيين في إنشاء المدارس وكذلك في جعل هذه المدارس متخصّصة في المذاهب الأربعة جميعها أو بعضها[1]، وكان لهذا المسار أثره في ازدهار الحركة العلمية في بلاد الشام ازدهاراً كبيراً خلال هذه الحقبة[2]، ولعل أبرز الأسباب في هذا الازدهار العلمي هو ما أصاب العالم الإسلامي من حوادث سياسية ونكبات دامية أدّت إلى تدمير وتخريب البلاد الإسلامية فأصبح العلماء وطلاب العلم يتّجهون إلى مصر وبلاد الشام، وأسهموا في دعم الإنتاج العلمي والأدبي وتعويض الأمة الإسلامية عما أصابها من تدهور سياسي على أيدي المغول والصليبيين وغيرهم[3].

وقد أكّد الرحالة ابن جبير مناسبة البيئة المشرقية بمصرها وشامها لطلب العلم وحثّ على الهجرة في سبيل ذلك فقال: "...، فمن شاء الفلاح من ناشئة مغربنا فليرحل إلى هذه البلاد ويتغرب في طلب العلم فيجد الأمور المعينات كثيرة؛ فأولها فراغ البال من أمر المعيشة - وهو أكبر الأعوان وأهمها - فإذا كانت الهمة فقد وجد السبيل إلى الاجتهاد ولا عذر للمقصر الآمن، فهذا المشرق بابه مفتوح لذلك، فادخل أيها المجتهد بسلام وتغنم الفراغ والانفراد قبل علق الأهل والأولاد"[4].وقد سَعَدتْ حمص في عصر المماليك سعادة كبيرة مثل سعادتها في عصر الأيوبيين

---

(1) جلال يوسف العطاري: حركة التأليف العلمي في مصر والشام في العصر المملوكي الأول، دار الفكر، عمان، (د.ط)، 2010م، ص17.

(2) مناهل فخر الدين فليح: التعليم في ظل دولة المماليك (648هـ - 923هـ)، مجلة آداب الرافدين، الموصل، مارس، 1979م، ص389.

(3) مفيد الزيدي: موسوعة التاريخ الإسلامي - العصر المملوكي، ص 256.

(4) ابن جبير: رحلته المعروفة بـالتذكرة بالأخبار عن اتّفاقات الأسفار، ص258.

بكثرة الأبنية التي خصصت كمناهل للعلم، وقد تنوّعت دور العلم في نيابة حمص خلال هذه الحقبة بين المدارس والخوانق والزوايا والأربطة والتُّرب المنتشرة في المدن والبلدات، فضلاً عن بيوت العلماء، وقد تمتعت حمص خلال العصر المملوكي بحلقة زاهية من حلقات عصرها، تمثلت في تأسيس وبناء المناهل العلمية آنفة الذكر وإجراء الأرزاق والمعاليم على مدرسيها وطلاّبها والقائمين عليها.حيث شهدت نيابة حمص في العهد المملوكي نشاطاً علمياً تمثل في:

أولاً: - المراكز التعليمية:

1 - المدارس:

ازدهرت حمص في عهد الأيوبيين ازدهاراً كبيراً كونها كانت إمارة أولاد أسد الدين شيركوه، وكثرت فيها المدارس لنشر الثقافة العربية الإسلامية وما يتصل بها من علوم، وأسّسَّ هذه المدارس ملوك بني أيوب وأمراؤهم وولاتهم، وأزواجهم، وبناتهم، وأخواتهم من الأميرات والخواتين، والنساء العالمات، وعلماؤهم، وقضاتهم، وموسوروهم، وتجارهم.[1]

وفي بعض الأحيان بنيت المدارس من أجل إمام كبير ذي شهرة علمية عظيمة، من ذلك لما ملك نور الدين محمود بن زنكي حلب سنة (541 - 569هـ/1146- 1173م) أوقف مسجد السراجين فيها مدرسة للحنفية واستدعى لها من دمشق برهان الدين أبا العباس علي بن الحسن البلخي فولاّه تدريسها، وفوّض نور الدين أمر الربط والزوايا والأوقاف بدمشق وحمص وحلب إلى أبي الفتح شيخ الشيوخ عمر بن علي بن حمويه[2].

---

(1) شمسياني: المرجع السابق ص33.

(2) (الذهبي) شمس الدين محمد بن أحمد (العبر في خبر من غبر) تح: صلاح الدين المنجد - مطبعة حكومة الكويت - ط2 - 1966 - ج4 ص232./ النعيمي: المصدر السابق - ج3 ص151-156 / ابن العماد: المصدر السابق - ج4 259.

ولما جاء عصر المماليك ورثوا الأيوبيين في نظامهم التعليمي، وسارت المدارس في عصرهم بخطى سريعة نحو التقدم، وتعددت اهتماماتها، وازدادت أعدادها وذلك لأسباب أهمها:

1- الرعاية التي قدّمها سلاطين المماليك لتلك المدارس.

2- مساهمة السلاطين وكبار الشخصيات في إنشاء وتمويل المدارس

3- ذكاء وإقدام سكان بلاد الشام وإقبالهم على العلم، ونستنتج ذلك من خلال قول ابن خلدون: "وأما المشرق، فلم ينقطع سند التعليم فيه، بل أسواقه نافعة، وبحوره زاخرة، لاتصال العمران الموفور، وإن كانت الأمصار العظمية التي كانت معادن العلم قد خربت، مثل بغداد والبصرة والكوفة، إلاّ أن الله - تعالى - قد أدال منها بأمصار أعظم من تلك وانتقل العلم منها إلى عراق العجم بخراسان وما وراء النهر من المشرق، ثم إلى القاهرة وما إليها من المغرب، فلم تزل موفورة وعمرانها متصلاً، وسند التعليم بها قائماً.فأهل المشرق على الجملة أرسخ في صناعة تعلّم العلم، بل وفي سائر الصنائع، حتى يظن كثير من رحّالة أهل المغرب إلى المشرق في طلب العلم أن عقولهم على الجملة أكمل من عقول أهل المغرب، وأنهم أشد نباهة وأعظم كيساً بفطرتهم الأولى".[1]

4- توفير الدولة الأمور المعاشية للعلماء، مما دفع بالعملية التعليمية نحو التقدم والتنافس في هذا المجال، الأمر الذي تطلب بناء مدارس ولم يخفِ ابن جبير دهشته من توفر سبيل العيش للعلماء الأمر الذي دفعه لمخاطبة المغاربة قائلاً: "فمن شاء الفلاح من نشأة مغربنا، فليرحل إلى هذه البلاد، ويتغرّب في طلب العلم، فيجد الأمور المعينات كثيرة، فأولها فراغ البال من أمر المعيشة، وهو أكبر الأعوان وأهمها"[2].

---

(1) ابن خلدون: المقدمة - ج3 ص1022.

(2) ابن جبير: الرحلة ص227.

وهكذا نجد أن سلاطين المماليك وأمراءهم اهتموا بإنشاء المدارس اهتماماً عظيماً، حتى إن أحد المؤرخين المعاصرين جعلها رمزاً ومظهراً من مظاهر السلطة حيث قال:" أصبح من المعتاد طوال عصرهم، أن يكون من آثار السلطان مدرسة أو أكثر. وينطبق هذا القول على معظم سلاطين المماليك، كما لو كانت هذه المدارس من مظاهر السلطة وشعارها".[1]

لم تحظَ حمص بنفس النصيب من المدارس التي حظيت بها مدن الشام الكبرى كدمشق وحلب وحماة والقدس وغزة، ونستيطع تأكيد ما ذهبنا إليه من خلال ما صرَّح به ابن جبير والحميري عندما ذكرا:" أن فيها مدرسة واحدة"، وما أيده العلامة كرد علي بقوله:" وليس بحمص مدارس قديمة "[2]، ونجد أمراً من السلطان نور الدين محمود بإنشاء مدرسة في حمص للإمام شرف الدين بن أبي عصرون[3] عرفت بالعصرونية[4] ولعلها هي التي أشار إليها ابن جبير عندما مَرَّ بحمص سنة(580هـ/1184م) وذكر:" أن بها مدرسة واحدة"، ويغلب علينا الظن بأن هذه المدرسة هي المدرسة العصرونية لاقتراب المدة الزمنية بين تأسيس المدرسة وزيارة ابن جبير لحمص. في حين أن ابن فضل الله العمري ذكر أنه:" في المدينة مدارس ومساجد كثيرة"[5].

---

(1) (عبد العاطي): عبد الغني (التعليم في مصر زمن الأيوبين والمماليك) دار المعارف - ط1- القاهرة - 1984 ص169.

(2) ابن جبير: رحلة ابن جبير ص 209.الحميري: الروض المعطار ص197-199. كرد علي 127/6

(3) (النعيمي): عبد القادر (ت927هـ) (الدارس في تاريخ المدارس-تح:عمار النهار- الهيئة العامة السورية للكتاب-دمشق-ط1-2014-ص83.صادق أحمد داود جودة: المدارس العصرونية في بلاد الشام ط 1 مؤسسة الرسالة بيروت 1986م ص 185،

(4) النعيمي: الدارس ص82.جودة: المدارس العصرونية ص 185.

(5) العمري: مسالك الأبصار ص232

وذكر القلقشندي إن في مدينة حمص مدرسة كان يطلق عليها في عصره اسم المدرسة (**الشهيدية النورية**) ومن ذلك" ما رسم من تعيين فلان في تدريس المدرسة النورية بحمص المحروسة على عادته وإفادته بالمعلوم المقرر له بمجلس الحكم"[1]. وفيها مكاتب أو كتاتيب تحفيظ القرآن الكريم وتدريس الخط والحساب فهي بدورها من أهمّ مراكز التعليم الشعبية، حيث خُصّص كثير منها لإقراء أيتام المسلمين خاصة[2]، فكانت توفّر لهم كتب العلم والقوت والكسوة دون مقابل[3].ومن الذين درّسوا فيها:

1- أبو البركات محمد بن أقضى القضاة خالد بن مالك بن الإمام العالم القدوة شرف الدين بن أنس السبكي الشافعي المدرس في المدرسة النورية بحمص المحروسة ذلك في تاريخ تاسع عشر رجب الفرد سنة (782هـ/1382م)[4].

2- وكذلك أمدتنا المصادر التاريخية باسم مدرس ثاني في هذه المدرسة هو عمر بن محمد بن عبد الحاكم بن عبد الرزاق، الشيخ الإمام العلامة قاضي القضاة زين الدين أبو حفص الذي:" حضر إلى دمشق في أواخر أيام الأمير سيف الدين تنكز رحمه الله تعالى ففاوضه قاضي القضاة تقي الدين السبكي رحمه الله تعالى فيه وعرفه مقداره، فقال له :لا تقطع به، فولاه تدريس المدرسة النورية بحمص، فأقام بها مدة إلى أن ورد الأمير سيف الدين آقبغا عبد الواحد، فتعصب عليه عنده حاكمها القاضي شهاب الدين البارزي، فتركها وتوجه إلى القاهرة"[5].

---

(1) القلقشندي: صبح الأعشى 377/12.

(2) المقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك، (309/2).

(3) حياة الحجي: أحوال العامة في حكم المماليك، ص187.

(4) (ابن الرسام): أحمد بن أبي بكر بن علي بن إسماعيل الحموي (ت 844هـ)) كتاب الأربعين من الأحاديث النبوية عن أربعين من مشايخ الإسلام مروية(مخطوط في المكتبة الظاهرية- دمشق-الورقة 13

(5) الصفدي: أعيان العصر 157/3

3- قطب الدين محمد بن عبد المحسن بن حمدان السبكي الشافعي قاضي حمص. مولده سنة ست وثمانين وستمائة. وسمع الحديث في سنة أربع وسبعمائة. وبعدها سمع بالقاهرة من الشيخ وكان قد حضر إلى الشام في سنة سبع وأربعين وسبعمائة، فولاه الشيخ الإمام قضاء حمص، وتدريس النورية، والمجاهدية، والخطابة بها، فاستمر بها نائباً عن الشيخ الإمام، ثم عن ولده سيدنا قاضي القضاة شيخ الإسلام تاج الدين أيده الله، وهكذا إلى سنة (762هـ) فنقله سيدنا قاضي القضاة تاج الدين باختياره إلى قضاء بعلبك، وتدريس النورية بها، فأقام بها على ذلك نحو شهرين، ثم أعيد إلى حمص على عادته المتقدمة فأقام بها إلى صفر من هذه السنة (ت764هـ)[1].

وحصلنا على إشارة لوجود مدرسة أخرى في حمص بناها المجاهد شيركوه بن محمد أطلق عليها اسم (**المدرسة المجاهدية**) وعلمنا من الذين درّسوا فيها قطب الدين محمد بن عبد المحسن بن حمدان السبكي الشافعي قاضي حمص[2]، غير أننا لم نتمكن من معرفة أي شيء عن هذه المدرسة سوى أن أبا محمد بن محمد الأنصاري المتوفى سنة 724هـ/ 1324م قد درَّس فيها.

وكذلك وجدت مدرسة أخرى في حصن الأكراد أطقلنا عليها تجوزاً اسم (**المدرسة الأرغونية**) نسبة إلى مؤسسها (أرغون الصغير الكاملي ت758هـ/1356م) حيث لم يرد لها تسمية في المصادر، وقد خصص لها نص قرية أعناز وجميع الطاحون المعروف بطاحون أعناز[3] وثلاثة أخماس قرية مزرعة الجندلية[4].

---

(1) الذهبي: العبر 4/201

(2) الذهبي: العبر 4/201. ابن نظيف: التاريخ المنصوري ص 221، 222.

(3) أعناز: بلد بين حمص والساحل،الحموي: معجم البلدان 1/222. وهي ما تزال حتى يومنا هذا تحمل الاسم نفسه

(4) (الخطيب): محمد عثمان (الأوقاف الإسلامية في فلسطين في العصر المملوكي) دار الكتاب الثقافي- ص47-48

بالإضافة إلى ذلك وجدت مدرسة أخرى في حصن الأكراد هي **(المدرسة البكتمرية)** بناها بكتمر بن عبد الحر الأشرف سنة(719هـ/1319م)[1].

وكانت مقرّات التعليم إما في بيت المعلم الذي يقوم بتعليم الصبية، أو في سقيفة حول المسجد[2]، أوفي الأسواق العامة بجانب الدكاكين[3]، غير أن بعضها كان ملحقاً بالمدارس أوالخوانق وهذا لضمان استمرارها والإنفاق على شؤونها من خلال الأوقاف[4]، ومن الذين تولوا التدريس في المدرسة النورية بحمص ابن الدهان أبو الفرج عبد الله بن أسعد بن عيسى بن علي الموصلي ثم الحمصي[5]، والقاضي زين الدين عمر البلقيائي، ومحمد بن عبد المحسن بن حمدان السبكي[6].

وزودتنا المصادر التاريخية بأسماء عدد من المدرسين في الذين درّسوا في حمص المحروسة دون تحديد اسم المدرسة باستثناء اسم من درّس في جامع حمص (الجامع النوري) نذكر منهم:

---

(1) كرد علي: خطط الشام 127/6-128.الشرعة: المجتمع الشامي ص113

(2)شنطاوي: التربية والتعليم ص50.

(3) (المقابلة):معن عليّ أحمد: (المؤسسات الاجتماعية والثقافية في بلاد الشام في العصر المملوكي)،رسالة ماجستير غير منشورة، إشراف: د.نعمان جبران،جامعة اليرموك،1412هـ/1992م ص27.

(4) جلال العطاري: حركة التأليف العلمي في مصر والشام في العصر المملوكي الأول، ص27

(5) ابن الدهان الحمصي: تنقل فيما بين الوصل ومصر ودمشق وحمص، وتوفي في حمص سنة 581 هـ/ 1186م جمال الدين أبي الحسن علي بن يوسف القفطي: أنباة الرواة على أنباه النحاة، 4 ج تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ط 1، دار الفكر العربي القاهرة 1986م 104/2، ابن خلكان: وفيات 60/3.

(6) الأسنوي: طبقات الشافعية 294/1. ابن حجر: الدرر الكامنة 264/3.الطراونة: حمص ص135

1- الشيخ الإمام العلامة بهاء الدين بن تقي الدين أبو العباس أحمد بن الشيخ حسين أحمد الشافعي إمام جامع حمص المحروسة قرأت عليه "على جميع الأبيات البخاري رحمه الله بحق سماعه للبخاري المحدث سماعا من..... بسنده المشهور إلى البخاري، رحمه الله تعالى، وذلك بقراءة أحد العلماء عليه بحمص المحروسة بتاريخ عشر من رجب الفرد، سنة اثنتين وثمانين وسبع مئة، وكتب به بخطه، رحمه الله".

2- الشيخ علي بن علي بن حسن بن علي الحنبلي أحد السادة العدول بحمص المحروسة، وقد قرأ عليه أحد العلماء عليه "من أول كتاب عمدة الأحكام للحافظ عبد الغني المقدسي إلى كتاب الصلاة، وباب صفة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ومواضع عرضا"[1].

3- إبراهيم النقيراوي الحمصي المتوفى سنة (841هـ/1347م)[2].

4- شرف الدّين أبو البقاء محمود بن العلّامة جمال الدّين محمد بن الإمام كمال الدّين أحمد بن محمد بن أحمد المعروف بابن الشريشي الشافعي، وصفته المصادر بأن: "العلّامة الورع، بقية السّلف، مفتي المسلمين وأقدم المدرسين وأقضى القضاة، البكري الوائلي. ولد سنة(729هـ) بحمص، وأخذ العلم عن والده، والشيخ شمس الدّين بن قاضي شهبة، وأضرابهما، وقرأ في الأصول والنحو والمعاني والبيان، وشارك في ذلك كلّه، مشاركة قوية، وناب للقاضي تاج

---

(1) ابن الرسام: الأربعين من الأحاديث الورقة 13

(2) السخاوي: الضوء اللامع 1/186. **ولا بد من الإشارة إلى أن الباحث الطراونة قد وقع في وهم** عندما جعل ابن الأطاسي: أحمد بن خليل بن علي التركماني الحمصي، الذي تولى التدريس بحمص ثم النظر على مقام خالد بن الوليد، وعاد إلى حمص ثانية سنة (961هـ/ 1553م) المتوفى سنة(1004هـ/ 1596م)من المدرسين في العصر المملوكي لأنه كان في العصر العثماني. الطراونة: حمص في العهد المملوكي ص 136

الدّين في آخر عمره فمن بعده، ولازم الاشتغال والإفتاء، واشتهر بذلك، وصار هو المقصود بالفتاوى من سائر الجهات، وتخرّج به خلق كثير، وانتهت إليه وإلى رفيقه الشيخ شهاب الدّين الزّهري رئاسة الشافعية، وتصدير على الجامع، ولا يزال يضيف الطلبة"[1].

5- أَبُو بكر بن عمار الصَّالحي بن شرف بن محسن بن معن بن عمار الصَّالحي، سمع الكثير مَعَ الشَّيْخ تقيّ الدّين ابْن تَيْمِية وَالشَّيْخ جمال الدّين الْمزي على شيوخهما وَمِنْهُم أَبُو العبَّاس أَحمد بن عبد الدَّائِم وَله تعاليق ومؤلفات فِي الأصول وَغيرها وَكانَ يتكلَم على النَّاس من بعد صَلاة الْجُمُعَة إِلَى الْعَصْر من أقام فِي آخر عمره بحمص وبهَا توفّي في الثَّاني والعشرين من صفر سنة وَفَاة الشَّيخ تقيّ الدّين رحمهما الله تعالى[2].

6- الشيخ جَعْفَر الْفريَابِيّ:عبد الله بن عبد الْجَبَّار، وهو أبو القاسم الحمصي، إِمَام جَامع حمص[3].

وكانت طريقة التعيين للمدرسين في هذه المدرسة كان يجري بشكل مباشر من قبل قضاة القضاة الشافعية والحنفية بدمشق بموجب توقيع يصدره أحدهما إلى الشخص المعني[4]، ولاحظنا ذلك من خلال التوقيع الذي أصدر قاضي القضاة بدمشق تقي الدين علي السبكي بتعيين زين الدين عمر البلقيائي

---

(1) ابن العماد: شذرات الذهب 8/884-884

(2) (ابن ناصر الدين): محمد بن أبي بكر الدمشقي: (الرد الوافر من زعم بأن من سمى ابن تيمية شيخ الإسلام كافر) تح: زهير الشاويش - دار المكتب الإسلامي - ط1 - بيروت - 1973 -ص135

(3) (ابن ناصر الدين): محمد بن أبي بكر الدمشقي (توضيح المشتبه في ضبط أسماء الرواة وأنسابهم وألقابهم وكناهم)تح: محمد نعيم العرقسوسي- دار الرسالة-بيروت-1993- 177/4

(4) القلقشندي: صبح الأعشى 12/ 375.

قاضي الشافعية بحمص في هذه الوظيفة.

ونلاحظ من خلال المصادر أن هذا الأمر حدث ثانية مع القاضي الحنفي بحمص سليمان التركماني[1]. ومع القاضي الشافعي محمد بن عبد المحسن السبكي[2].

2 - الجوامع :

اتخذ التعليم في الإسلام من المسجد مركزاً له منذ إنشائه، فكان النبي (صلى الله عليه وسلم) يجلس في المسجد، ويتحلّق المسلمون من حوله متلقين العلم عنه[3]. ونهج الصحابة والتابعون نهجه، فعقدوا في المساجد مجالس العلم، سواء في المدينة أم في سائر الأمصار التي فتحوها، وأقاموا فيها الجوامع والمساجد[4]. فكان المسجد بذلك أسبق المراكز العلمية، حيث أدى هذه الوظيفة قبل ظهور المدرسة المساجد في هذه الفترة دور علم إلى جانب وظيفتها الأساسية كدور عبادة وظلّت الجوامع والمساجد فيها تؤدي وظيفتها التعليمية إلى جانب ما كان يؤدي فيها من شعائر العبادة - مع وجود المدرسة -، وقد وصف ابن الحاج في مدخله دور المسجد بوصفه مدرسة، قائلاً: "... وأفضل مواضع التدريس المسجد، لأن الجلوس للتدريس إنما فائدته أن تظهر به سنّة، أو تخمد به بدعة، أو يتعلّم به حكم من أحكام الله تعالى علينا، يحصل فيه هذا الغرض متوفراً، لأنه موضع مجتمع الناس، رفيعهم ووضيعهم، عالمهم وجاهلهم"[5].

ثم تابع قائلاً: "المدرسة لا يدخلها في الغالب إلاّ آحاد الناس بالنسبة إلى

---

(1) ابن حجر: الدرر 2/264 - 265.

(2) الحسيني: ذيل العبر 4/200، 201.

(3) (البخاري): أبو عبد الله محمد بن إسماعيل (صحيح البخاري) - عالم الكتب - ط1 - بيروت - دون تاريخ -1/39-75.

(4) (ابن الحاج): أحمد بن علي (المدخل) - دار الكتاب العربي - ط2 بيروت - 1972 - ج1 ص81.

(5) ابن الحاج: المصدر السابق 1/83.

المسجد، لأنه ليس كل الناس يقصد المدرسة، وإنما يقصد أعمهم المساجد، وليس كل الناس له رغبة في طلب العلم، وإذا كان التدريس في المدرسة امتنع توصيل العلم على من لا رغبة له فيه، والمقصود بالتدريس هو التبيين للأمة، وإرشاد الضال، وتعليمه، ودلالة الخيرات، وذلك موجود في المسجد أكثر من المدرسة ضرورة "[1].

1- <u>الجامع النوري</u>: حيث أعيد بناءه كاملاً في عهد نور الدين زنكي سنة(569هـ/1173م) بعد الزلزال الكبير عام (552هـ/1128م) وشراؤه النصف الشرقي من البيعة[2]، التي بقيت لأهل حمص المسيحيين منذ دخول العرب إليها فاشتراها من المسيحيين وضمها إلى المسجد وعمرَّه وعرف منذ ذلك الوقت باسم الجامع النوري الكبير"[3]. وذكر الرحالة ابن بطوطة جامع جمص التي زارها في (ق 7هـ /13م) خلال العصر المملوكي "جامعها - حمص - متميز بالحسن الجامع وفي وسطه بركة ماء"[4].

وجدد الملك الظاهر بيبرس بعض أقسامه سنة (671هـ / 1272م)، وتشير إلى هذا التجديد كتابة أثرية وجدت منقوشة على لوح حجري مثبت على الجدار الجنوبي المطل على باحة الجامع ونصها كما يلي: "بسم الله الرحمن الرحيم قد جدد هذا الحائط بأيام حضرة مولانا السلطان الملك الظاهر بمناظرة الحاج عبد المجيد أفندي قاضي قضاة الشام في سنة ستمائة وإحدى وسبعين للهجرة"[5]. كما عثر على عمود حجري بأرضية صحن الجامع ومحفوظ حالياً بمتحف الآثار

---

(1) ابن الحاج: المصدر نفسه - 81/1.

(2) محمود السباعي، نعيم الزهراوي، حمص ص 12.

(3) للمزيد حول الجامع النوري راجع: (الحزوري) حسام الدين (بناء الجامع النوري الكبير بحمص وخبره في كتب الرحالة والجغرافيين المسلمين)مجلة الدراسات التاريخية- موريتانيا-العدد36- 2019ص375 ومابعد.

(4) ابن بطوطة، رحلة ابن بطوطة 67/1.

(5) أحمد فايز الحمصي، روائع العمارة، ص 30. الحزروي: بناء الجامع النوري ص378

الإسلامية بدائرة الآثار بحمص تتضمن مرسوم سلطاني من الظاهر بيبرس. مما يدل على اهتمام السلطان بالجامع الكبير لكونه المسجد الجامع الوحيد بالمدينة حيث يتردد عليه جميع سكان المدينة.

2- جامع خالد بن الوليد: الجدير ذكره أن البناء الأول للجامع كان في عام (664ه-1262م)، على يد القائد الفاتح الظاهر بيبرس عندما كان ذاهباً باتجاه بلاد سيس وما حولها، ويظهر ذلك كتابات على لوحتين خشبيتين مؤرختين بشهر ذي الحجة سنة (664هـ/1266م)، وجدت الأولى على باب خشبي سجل عليه: "بسم الله......... أمر بإنشائه على حرم قرية سيف الله وصاحب رسول الله خالد بن الوليد رضي الله عنه مولانا السلطان الملك الظاهر ر كن الدنيا والدين سلطان الإسلام والمسلمين قاتل الكفرة قاهر الخوارج والمتمردين محي العدل في العالمين مالك البحرين صاحب القبلتين خادم الحرمين الشريفين وارث الملك سلطان العرب والعجم والترك اسكندر الزمان صاحب القرآن بيبرس الصالحي قسيم أمير المؤمنين أعزّ الله سلطانه عند عبوره حمص للغزاة ببلاد سيس وذلك في شهر ذي الحجة سنة أربع وستين وستماية".

أما الكتابة الثانية التي سجلت على حشوة خشبية فهي مؤلفة من خمسة أسطر نصها:

"بسم الله..... أمر بإنشائه على ضريح سيف الله وصاحب رسول الله خالد بن الوليد رضي الله عنه مولانا السلطان الملك الظاهر ر كن الدنيا والدين سلطان الإسلام والمسلمين قاتل الكفرة قاهر الخوارج والمتمردين محي العدل في العالمين مالك البحرين صاحب القبلتين خادم الحرمين الشريفين وارث الملك سلطان العرب والعجم والترك اسكندر الزمان صاحب القرآن بيبرس الصالحي قسيم أمير المؤمنين أعزّ الله سلطانه عند عبوره حمص للغزاة ببلاد سيس وذلك في شهر ذي الحجة سنة أربع وستين وستماية."هذا فضلاً عن الضريح الخشبي

الذي صنعه السلطان بيبرس والمحفوظ بالمتحف الوطني في دمشق ويرجع تاريخه إلى سنة664هـ/ 1266م[1].

وفي مقام خالد بن الوليد كتابة أثرية على لوح خشبي تذكر بانتصار آخر أحرزه المماليك على الصليبيين في عهد السلطان الملك الأشرف خليل بن السلطان سيف الدين قلاوون سنة (691هـ)[2] ويذكر جمال الدين يوسف بن تغري بردي أن:" هذا الانتصار كان سنة 690هـ لما توجه الملك الشرف بعساكره من دمشق إلى خلب، ونزل على قلعة الروم وحاصرها إلى أن افتتحها بالسيف عنوة، بعد أن خربها في يوم السبت حادي عشر شهر رجب، وأنه عاد فعمرها، وأنه احتفى بظفره هذا احتفاءً عظيماً في دمشق والقاهرة"[3].

---

(1) الحايك، شيخاني، حمص درة مدن الشام، 108-109

(2) تتألف هذه الكتابة من ثمانية أسطر مدرجة على لوح خشبي بالخط النسخي، وهي كما يلي:
"بسم الله.... جدد هذا الشباك المبارك في هذا المشهد الخالدي رضي الله عنه في أيام مولانا السلطان الأعظم الملك الأشرف العادل المجاهد المثاغر المظفر المنصور الهمام ملك الأنام صلاح الدنيا والدين سلطان الإسلام والمسلمين ناصر الملة المحمدية محي الدولة العباسية ملك البحرين صاحب القبلتين ووارث الملك سلطان العرب والعجم والترك مالك رقاب الأمم جامع فضيلتي العلم والسيف أبي الفتح خليل الله سلطانه وأفاض عليه الرعاية كافة عدله وإحسانه ابن مولانا السلطان الشهيد المنصور سيف الدنيا والدين قلاوون قدس الله روحه ونوّر ضريحه وذلك عند توجهه إلى فتح قلعة الروم سنة إحدى وتسعين وستمائة".

(3) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة.13/8. للمزيد عن المسجد وبناءه وهندسته راجع: (الحزوري) حسام الدين(جوامع وزوايا مدينة حمص القديمة أوضاعها وأوصافها المعمارية والآثارية حتى سنة 2011)-مطابع الحميضي- الرياض -2018 ص108-124.

3- جامع أبو لبادة: أنشأه (خليل بهادر)[1]، فقد جاءت تسمية المسجد بالبهادري نسبة إليه، ثم تحول اسمه إلى (أبي لبادة)[2] منذ عام 1892م، كما عرب باسم (أبو أصبع) ويرجع سبب الاسمان الأخيران إلى شكل قمة المئذنة الذي يشبه اللبادة التي يرتديها الصوفيون من فرقة المولوية[3].

4- جامع ناصر: أنشأه (ناصر الدين بن منصور بن صالح آل طليمات الحسيني)،في العصر المملوكي في القرن (7هـ/ 13م) كما جاء بالنص أعلى باب الدخول إلى المسجد في لوحة حجرية بالخط الرقعة في ثلاث أسطر، جاء في السطر الأول: (مسجد الشيخ ناصر)، السطر الثاني: (بناه ناصر الدين بن منصور بن صالح من آل طليمات الحسيني)، السطر الثالث: (القرن السابع الهجري)[4].

5- جامع القلعة: مبني في وسط قلعة حمص وفيه منبر للخطبة ويصلون فيه الجمعة في شهر رجب وشعبان ورمضان فقط لأجل التبرك بذلك الجامع القديم الذي يوجد فيه المصحف العثماني[5].

أما فيما يخص الجوامع والمساجد خارج مدينة حمص والتي تركزت في القرى والولايات التابعة لنيابة حمص المحروسة فقد أمدتنا المصادر التاريخية بوجود مسجد تدمر[6]، ومسجد قارة الذي أنشأه الظاهر بيبرس سنة (665هـ/

---

(1) البهادري: تعني البطل، و(خليل البهادر) من أصل كردي، كان مرافق لحملة أسد الدين شيركوه الثاني (الملك المجاهد) على حمص، غازي حسين آغا، نعيم زهراوي، أسر حمص 15/2، 16.، بشار ياسر، الأساليب التقليدية ص 23.

(2) مسجل أثر بموجب القرار الوزاري رقم 485 بتاريخ 1945/11/13م تقرير بتوثيق الجوامع الأثرية بحمص بعام 1998م دائرة آثار حمص عام 1998م.

(3) منذر الحايك، فيصل شيخاتي، حمص درة مدن الشام ص 122.الحزوري: جوامع وزوايا مدينة حمص ص163

(4) الحزوري: جوامع وزوايا ص 179

(5) النابلسي: الحقيقة والمجاز ص 22 - 33، 37.

(6) فربيوهي: (تدمر) دائرة المعارف الإسلامية 15/5.

1266م) بعد أن حول كنيستها إلى مسجد ورتب فيه خطيباً وقاضـياً[1]، ومـسجد القصب الذي أضاف له النائب عز الدين الحموي حماماً سنة 694هـ/ 1294م[2].

3- مباني الصوفية:

بلغ التصوف ذروته خلال العصر المملوكي، حيث قصد الناس على اختلاف مستوياتهم مزارات الأولياء والمشايخ، خاصة أصحاب العاهات[3] ومرضى الجـذام الذين تزاحموا على أبوابهم طلباً للشفاء[4]. وقد استغل بعض الأشخاص من الطبقـة الشعبية هذا الانحراف في الاعتقاد بكرامات الأولياء وقدرتهم على قضاء الحاجـات فحفروا حفرة كبيرة وزعموا أنها مقام لأحد الصحابة المعروفين بكراماتهم، وكـانوا يسمحون بزيارة هذه الحفرة مقابل مبلغ من المال، فتسابق الناس على زيارتـه حـتى أن أمّ السلطان الظاهر بيبرس نزلت لزيارته[5].

وكان أحد المنجّمين[6] من الطبقة الـشعبية يحتـال علـى النـاس - خاصـة النساء - فيما كان يصفه لهم من تمائم وتعويذات وأحراز وأحجبة، زاعمـاً أنهـا تعين الحامل على أن تضع حملها وتردّ البصر وتجعل المرأة التي ترمّلت مطمعـاً

---

(1) الذهبي: العبر 3/309.

(2) ابن كثير: البداية 13/260.

(3) كما اعتقد الناس في المجاذيب الذين يأتون أفعالاً شاذة أو غريبة كحـرق أجـسادهم وضـربها بقضيب من حديد وحمل الأفاعي (الحيات) والتي يعتبرونها من الكرامـات لأنهـم لا يتـأذون منها بحسب زعمهم. سعيد عاشور: العصر المماليكي في مصر والشام، ص260.

(4) السخاوي: التبرك المسبوك في ذيل السلوك، ص302.

(5) المقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك، (2/649).

(6) شغفت الطبقة الشعبية في العصر المملوكي بالتنجيم - خاصة النساء - إلى جانب اهتمـام السلاطين والأمراء به، وتسابق الناس إلى زيارة المنجمين كما اهتمّ بعضهم بتـأليف كتـب في علم التنجيم وعلم الرمل وفروعـه. ابـن الإخـوة: معـالم القربـة في أحكـام الحـسبة، ص276. (الجوبري) عبد الرحمن بن عمر (ت663هــ/1265م): (المختـار في كـشف الأسرار وهتك الأستار) تح: عـصام شـبارو، دار التـضامن للطباعـة والنـشر، القـاهرة، (د.ط)، 1992م، ص87.

للخاطبين[1]. ومن ذلك كذلك تنافس العوام على اقتناء ملابس الأولياء بعد وفاتهم لأخذها حرزاً[2]، وكذلك الحصول على ماء غسلهم للتبرك به[3]. وكانت للصوفية مدارس، هذه المدارس على ثلاثة أنـــواع هي:(الخوانق والرُّبط والزّوايا) ولكن يصعب تحديد الفرق بين هذه الأنواع الثلاثة، ففي بعض الأحيان نجد بعض المؤرخين يذكرونها مترادفة، وفي أحيان أخرى ترد بشكل مختلف ولكل منها معنى، وبعض المؤرخين أطلق على البناء أكثر من اسم، فعلى هذا نجد ثمة تقارباً في المعنى والوظيفة بين الخوانق والزوايا.

الخوانق: ومفردها خانقاه أو خانكاه، كلمة فارسية، تعني دار تعبد وكانت مخصصة لإيواء الصوفية والمنقطعين للدراسة وخاصة الدينية منها، حتى لا ينحرف نزلاؤها عن جادة الشرع[4]. وكانت الخوانق ترتبط بسلطة شيخ شيوخ العارفين، الذي كان يتخذ من الخانقاه السمسياطية مقرّاً له، وذكر ابن طولون أنه:"كان من هؤلاء الشيوخ من يأكل الحشيش، ومنهم من يخاف الله"[5].

ونجد من هذه المنشآت في حمص (خانقاه حمص)، حيث أفادتنا المصادر التاريخية بذكر بعض الأعلام الذين الذين تولوا مشيختها منهم أحمد بن محمد بن إسماعيل بن علي بن محسن الأسعردي ثم الصالحي (ت747هـ/1346م)[6].

---

(1) (ابن دانيال الموصلي): محمد بن دانيال الخزاعي (ت710هـ/1310م): (طيف الخيال، خيال الظل وتمثيليات ابن دانيال)، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر، القاهرة، (د.ط)، 1963م، ص85، 87.

(2) بيبرس المنصوري: زبدة الفكرة 9/475.

(3) السخاوي: التبرك المسبوك في ذيل السلوك، ص370.

(4) (فرغلي): محمد (الدليل الموجز لأهم الآثار الإسلامية والقبطية في القاهرة) الدار المصرية اللبنانية - ط1 - القاهرة - 1991 ص38.

(5) ابن طولون: شمس الدين محمد (رسائل ابن طولون) مخطوط مصور في مكتبة الأسد الوطنية - الورقة 48.

(6) ابن حجر: الدرر 1/270.

الرُّبط: فمفردها كلمة رباط: وذكر ابن منظور أنها تعني: "المواظبة على الأمر، والإقامة على جهاد العدو بالحرب، أي ملازمة ثغر العدو"[1]. وقد انتشرت الربط في العالم الإسلامي، وتعددت وظائف الربط، وأصبح الرباط بيت الصوفية ومنزلهم[2].

واعتبر احد الباحثين أنه في مصطلح أهل دمشق الرباط كالخانقاه، دار لنزول الصوفية يقيمون فيه عاكفين على العبادة[3]، ويجوز للفقهاء الإقامة في الربط وتناول معلومها، ولا يجوز للمتصوف القعود في المدارس وأخذ جرايتها[4]. وعلى ذلك يمكن أن نستنتج أن الرباط إذا وجد في مناطق الثغور فهو للجهاد والعبادة، وإن وجد في العواصم، فهو للعبادة والعزلة، وهو بذلك لا يختلف عن الخانقاه إلا بالاسم. والرباط للرجال والنساء، حيث عرفت دمشق في عصر المماليك (ثلاثة عشر) رباطاً تقريباً[5].

أما مصطلح **الزاويا** ففيه اختلاف وبحاجة إلى توضيح.فقد أوضح كل من المقريزي والسيوطي أن الزاوية كلمة تطلق على كل مسجد صغير فيه أحد الرجال المشهورين بالتقوى والصلاح والعبادة، يقوم بوظيفة الوعظ والإرشاد لمن يتردد عليه، ولا يوجد فيه منبر أو مئذنة، وقد يوجد فيه محراب[6].

---

(1) ابن منظور: لسان العرب ج7 ص213.

(2) المقريزي: أحمد بن علي (الخطط المقريزية) تح: محمد زينهم، مديحة الشرقاوي - مكتبة مدبولي - ط1 - 1997 312/3.

(3) دهمان: معجم الألفاظ - ص81.

(4)سبط ابن العجمي: أحمد بن إبراهيم (كنوز الذهب في تاريخ حلب) - تح: شوقي شعث، فالح بكور - دار القلم العربي - ط1 - حلب - 1996 ج1 ص384.

(5) العلبي: خطط دمشق ص390.

(6) المقريزي: الخطط 312/3. (السيوطي): جلال الدين عبد الرحمن (حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة) تح: محمد أبو الفضل: إبراهيم - المكتبة العصرية - ط1 - صيدا - 2004 -198/2. (ابن أبي حجلة): أحمد(سكردان السلطان) تح: علي عمر- مكتبة الخانجي - ط1 - القاهرة - 2001 ص58.

ووجد في مدينة حمص ثلاث منها وهي: زاوية بناها الظاهر بيبرس للشيخ خضر المشهور بشيخ الملك الظاهر[1] وزاوية مبنية على قبر خالد بن الوليد[2].

بينما ذكر المستشرق بروفنسال: "إن كلمة زاوية، كانت تطلق على صومعة الراهب المسيحي، ثم أطلقت على المسجد الصغير أو المصلّى، حيث يتحلق المريدون حول شيخهم إن كان حياً، أو حول قبره إن كان ميتاً" بينما شبه المستشرق دوماس الزاوية بالدير في العصور الوسطى، وأنها مدرسة دينية ودار للضيافة المجانية[3].

وكما هو الحال قائماً في شيوخ الخوانق والربط، فإن شيوخ الزوايا منهم من يعبد الله ويقيم شعائر الإسلام كاملة، ويلزم أتباعه بذلك، ويزهد عن الدنيا ومغرياتها، ومنهم من كان يخالف الشرع ويزعم أن الناس لا يدركون مغزى أعماله، وقد يسقط التكاليف عن نفسه، ويختلي بالمردان والنسوة ويترك النظافة والاغتسال وحلق الشعر.[4]

وانتقد أحد الفقهاء وهو إبراهيم بن نصر الشافعي، شيخ إحدى الزوايا ومريديه، بعد إقامة حلقة ذكر وسماع لهم، قائلاً:

متى سمع الناس في دينهم بأن الغُنا سُنَّةٌ تُتَّبَعْ

وأن يأكل المرء أكل البعير ويرقص في الجمع حتى يقعْ

---

(1) خضر بن أبي بكر بن موسى المهراني العدوي أخبر الظاهر بسلطنته قبل حدوثها بنى له الملك الظاهر بيبرس عدداً من الزوايا في حمص والقدس وبعلبك وتوفي سنة 676هـ/ 1277م.ابن شاكر الكتبي: فوات الوفيات 1/404، 405، ابن الفرات: تاريخ 102/7.

(2) ابن بطوطة: رحلة ابن بطوطة ص 86.

(3) الموسوعة الإسلامية: مؤسسة أعمال الموسوعة - الرياض - ط1 - مادة زاوية - ص218.

(4) العلبي: المرجع السابق ص391.

وقالوا: سكرنا بحبّ الإلهوما أسكرَ القومَ إلاّ القِصع

كذاك الحمير إذا أخصبت يهيجها ريّهـا والشَّبع[1]

ومما يؤسف له هو تجني أحد الباحثين في عصرنا الحالي الذي شبه الـربط بالمستعمرات الصهيونية في فلسطين[2]. ولا بد من الإشارة إلى أن الربـاط شـغل دوراً مهماً في التاريخ الإسلامي في المغرب العربي وليبيا خاصة[3].

ووجد في حمص التكية المولوية التي أنشأها أحمد بن إسماعيل الكوجكي سنة 841هـ/ 1437م وتشير إلى ذلك كتابتان بالخط الثلث والنسخي[4] ويعلو بناء التكية قبة وتضم ضريحاً منسوباً لعبد الرحمن بن عوف وبقرية ضريحان لـرجلين من مشايخ التكية المولوية.هدمت بلدية حمص هذه التكية لـشق أحـد الـشوارع مكانها ووجد على أحد أحجارها التي أرسلت إلى المتحف الوطني بدمشق.

أ- بين هذه الأحجار لوح مؤلف من قطعتين كتب عليه بالخط الثالث سـطرين نصهما «أنشأ هذه التربة المباركة العبد الفقير الحقير الذليل الراجي عفـو ربـه القـدير أحمد بن إسماعيل الكوجكي غفر الله له ولوالديه ولجميع المسلمين ولمن ترحم عنه ودعا له بالمغفرة آمين بتاريخ شهر الله المحرم سنة إحدى وأربعين وثمانمائة».

ب - لوح ثاني مؤلف من قطعة واحدة كتب عليه بـالخط النـسخي مـايلي على أربعةأسطر: "بسم الله الرحمن الرحيم أنشأ هذا السبيل العبـد الفقـير إلى الله تعالى الراجي عفو ربه وغفرانه إلى الله تعالى أحمد بن إسماعيل الكوجكي بتاريخ شهر رمضان سنة ثلاثين وثمانمائة"[5].

---

(1) ابن خلكان: وفيات الأعيان ج1/38.

(2) جيدة: المدارس ونظام التعليم - ص64.

(3) لمزيد من المعلومات حول الرباط في التاريخ الإسلامي راجع: (أحمـد): علـي (أعمـال الرباط والمثاغرة في التاريخ العربي الإسلامي) مجلة دراسات تاريخية - العددان / 72 - 73 / آذار - حزيران - 2001 ص113 وما بعد.

(4) عبد الحق: بحث موجز ص 33، 34.

(5) عبد الحق: بحث موجز ص 34. الطراونة: حمص ص139

البيمارَستانات :

اليمارستان بفتح الراء وسكون السين - كلمة فارسية مركبة من كلمتين بيمار بمعنى مريض أو عليل أو مصاب وستان بمعنى مكان أو دار أو بيت فهي إذا "دار المرضى" ثم اختصرت في الاستعمال فصارت مارستان[1].

كان البيمارستان في العصر المملوكي عموماً يؤدي رسالة علمية بالإضافة إلى علاج المرضى، إذ كان في الوقت نفسه مركزاً لتعليم الطب وتدريسه. ولم تمدنا المصادر التاريخية عن وجود بيمارستانات بحمص بصورة واضحة ونجد ذلك في سؤال الرحالة ابن جبير أثناء مروره بحمص مستفسراَ عن وجود بيمارستان فيها حيث قال: "وسألنا أحد الأشياخ في هذه البلدة هل فيها مارستان على رسم مدن هذه الجهات؟ فقال وقد أنكر ذلك: حمص كلها مارستان، وكفاك تبيناً شهادة أهلها فيها"[2]، وهنا المعلومة قد تحمل في طياتها التهكم والتقليل من شأن أهل حمص وقد يفهم منها وجود البيمارستانات. ويفيدنا المؤرخ ابن نظيف بوجود بيمارستان بحمص قبيل العصر المملوكي يعود للعصر الأيوبي بناه المجاهد شيركوه بن محمد أثناء فترة حكمه لها (582-637هـ/1186- 1240م) ويضيف أنه: "زوده بما يحتاج إليه من أدوية ووقف عليه ما يسد احتياجاته"[3]، وأغلب الظن أنه بقي قائماً في العهد المملوكي بسبب قرب المدة الزمنية التي ترك فيها الملك المجاهد الحكم وبين قيام الدولة المملوكية.

وكذلك وجد في نيابة حمص بيمارستان (حصن الأكراد) أنشأه نائب حمص الأمير سيف الدين بكتمر (جُكتمر) العلائي المنصوري سنة (719هـ/1319م) في حصن الأكراد، ووجد مكتوبا على عتبة باب هذا المكان

---

(1) (عيسى): أحمد (تاريخ البيمارستانات في الإسلام) د.ر.ط.ص4

(2) ابن جبير: رحلة ابن جبير ص87

(3) ابن نظيف: التاريخ المنصوري ص 209.

ما يأتي:" بسم الله الرحمن الرحيم أنشأ هذا البيمارستان المبارك العبد الفقير إلى الله تعالى بكتمر بن عبد الله الأشرفي نائب السلطنة المعظمة بحصن الأكراد أثابه الله تعالى وأوقفه على مرضى المسلمين المقيمين والواردين وذلك في شهور سنة (719هـ)"[1].

ثانياً: الحركة العلمية والتعليمية في نيابة حمص:

إن وجود عدد كبير من دور العلم في حمص من مساجد وجوامع وزوايا وخوانق أقيمت في العصر المملوكي الأول على وجود نشاط ثقافي واسع، شمل مختلف الجوانب العلمية آنذاك، ويظهر أن طالب العلم في ذلك العصر كان يلم بأهم جوانب المعرفة، المشتملة على علوم الدين بفروعها المختلفة من فقه وحديث وقرآن وتفسير وتجويد، وعلوم اللغة العربية من نحو وصرف وبلاغة والشعر والنثر، والعلوم العقلية من رياضيات وفلك وطب، التي يبدو أن الالتفات إليها كان ضئيلاً بالمقارنة مع العلوم الدينية.فقد نشطت الحركة الثقافية في هذا العصر نشاطاً ملحوظاً، ويمكن أن نعده عصر خصب ثقافي، ونضج فكري، وغزارة في التأليف والتصنيف. ولكن الغريب حقاً، أن تبقى الدراسات الأدبية حوله نذرة، والمؤسف أن تهمل آثاره المخطوطة، إذ لا يزال معظمها في زوايا النسيان ينتظر الحانية التي تنفض عنه الغبار المتراكم عبر السنين.

وفي هذا العصر ظهر التخصص في التأليف عند الكتّاب، ومرد ذلك إلى النضج الكبير والتعمق في الأبحاث، الأمر الذي دفع "السيوطي" صاحب "حسن المحاضرة" إلى تصنيف العلماء ضمن زمر خاصة بحسب العلوم التي يغلب عليها التأليف حيث ذكر (فقهاء المذاهب الأربعة، والمحدثين، ونقاد الحديث، وأئمة القراءات، وأئمة اللغة والنحو والصرف، وأرباب المعقولات، وأشهر المؤرخين، والأدباء،...) وكان النشاط العلمي في نيابة حمص المملوكية شأن

---

(1) (عبد الهادي): شريف (نيابة طرابلس في عصر سلاطين المماليك)-دار التعليم الجامعي -ص155. عيسى: تاريخ البيمارستانات ص 248

النشاط العلمي في باقي نيابات ومراكز السلطنة المملوكية قائماً على تدريس القرآن الكريم وعلومه من قراءات وتفسير وحديث وفقه، وعلوم اللغة كالنحو والصرف والكتابة والبلاغة، إضافة إلى السير والتراجم والحساب.

لم يكتفي طلبة العلم بالتحصيل العلمي في مدينتهم بل دفعهم شغفهم وحبهم للعلم للرحلة في طلب العلم من المراكز العلمية المشهورة آنذاك وخاصة القاهرة ودمشق للاتصال بعلمائها والأخذ عنهم وسماعهم ولشغل مناصب القضاء والإفتاء والتدريس ومن هؤلاء نذكر:

1- عثمان بن إبراهيم بن أبي علي الحمصي المقرئ الصالح أبو عمرو الصالحي النساج، إمام مسجد القرشيين. سمع حضوراً نصف البخاري الأخير من ابن الزبيدي، وسمع من ابن اللتي، يكتب الحمصي المصري، فذهب سماعه. وكان قد سمع كثيراً من الحافظ الضياء، وسمع منه الواني، والمقاتلي، والعلامة قاضي القضاة تقي الدين السبكي، والمحب، وجماعة. وتوفي رحمه الله تعالى سنة (ت710هـ/ 1310م)، وعاش ثلاثاً وثمانين سنة[1].

2- بدر الدين الصائغ الحسن بن عَليّ بن مَسعُود بن أبي الطّيب الحِمصِي ابن الصَّائِغ بدر الدّين مدرس الصارمية ومستوفي الأوقاف،(مات في سابع عشر ذي القعدة 771هـ/1370م)[2].

3- إِسْمَاعِيل بن عَليّ بن معالي الْحِمصِي الحزام أَبُو الْفِدَاء سمع من أبي الْعَبَّاس بن الشّحْنَة صَحِيح البُخَارِيّ وحدّث سمع مِنْهُ الياسوفي وَحدث عَنهُ أَبُو حَامِد بن ظهيرة بِالإِجَازَةِ فِي مُعْجَمه وَمَات فِي حُدُود السّبْعين[3].

---

(1) الصفدي: أعيان العصر 211/4.(تقي الدين الفاسي): محمد بن أحمد بن علي (ذيل التقييد في رواة السنن والأسانيد) تح: كمال يوسف الحوت-دار الكتب العلمية -بيروت-1990-175/2

(2) ابن حجر: الدرر 134/2.

(3) ابن حجر: الدرر 445/1

4- بــدر الــدين الحــسن بــن علــي بــن موســى الحمــصي الحنفــي (ت779هـ/1377م)[1].

5- أحْمد بن مُحَمَّد بن أَحْمـد بـن أبي طَـاهِر الْحِمـصِي الْمَعْـرُوف بِـابْن الصَّيْرَفِي سمع من ابْن الشّحْنَة من البُخَارِيّ وَحدث سمع مِنْهُ ابْن ظهيرة[2].

6- يوسف بن عمر بن علي بن عبد الرحمن الغفاري الحمصي المتوفى في النصف الثاني من القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي[3].

7- سويد بن محمد سويد الحمصي المتوفى في القرن الثـامن الهجـري / الرابع عشر الميلادي[4].

8- في صحيح البخاري "إلى آخر الـصحيح.ومـات في عـشر الثمـانين أو التسعين وسبعمائة[5].

9- مُحَمَّد بن مُحَمَّد بن نَاصِر بن أبي الْفَـضل الْفَـراء الْحِمـصِي المعـروف بابن رياح، ويعرف أيضا بالقيّم وبالفقيـه نزيـل حلـب الـشهير بِـابْن ريَـاح ولـد بحمص سنة سِتّ وَسَبْعمائة سمع الصَّحِيح من أبي الْعَبَّاس ابْن الـشحنة وَحـدث سمع مِنْهُ الشَّيْخ برهَان الـدّين الْمُحـدث بحمـص وَمَـات فِـي لَيْلَـة الْجُمُعَـة 19 جُمَادَى الآخِرَة سنة (784هـ/1382م)[6].

---

(1) ابن حجر: الدرر 1/249.

(2) التقي الفاسي: ذيل التقييد 1/69

(3) ابن حجر: الدرر 5/242، 245.

(4) ابن حجر: الدرر 2/276.

(5) الذهبي: تذكرة الحفاظ 4/1488، الذهبي:معجم الـذهبي 1/ 273. ابـن تغـري بـردي: النجوم الزاهرة 8/193، ابن العماد:شذرات الذهب 5/449، الدليل الـشافي 1/323، الصفدي: الوافي بالوفيات 15/479

(6) ابن حجر: الدرر 5/511-512. السخاوي: إنباء الغمر 2/119

10- قَاضِي الْقُضَاة بدر الدّين ابو عبد الله مُحَمَّد بن عبد الله بن أَحْمد الهكاري الصلتي الشَّافِعِي الامام الْعَالم الْعَلامَة الْفَاضِل قَاضِي حمص اشْتغل بالقدس الشريف وكتب وَقَرَأَ وَولي قَضَاء الصَّلْت وَلم يزل ينْتَقل فِي قَضَاء الْبر وَولي قَضَاء الْقُدس وبلد سيدنَا الْخَلِيل عَلَيْهِ الصَّلَاة وَالسَّلَام ونابلس وَآخر مَا ولي حمص وَبهَا توفّي فِي رَجَب سنة(ت786هـ/1384م) وَلم يبلغ الْخمسين سنة اختصر ميدان الفرسان فِي ثَلَاث مجلدات[1].

11- محمد بن محمد بن علي الأنصاري أمين الدين الحمصي الحنفي (ت800هـ/1398م)[2].

12- عمر بن محمد الزين الحمصي ثم الدمشقي (ت803هـ/1401م).

13- أحمد بن محمد بن علي الشهاب أبي العباس الأنصاري الخزرجي الحمصي (ت816هـ/1413م)[3].

14- محمد بن خالد بن موسى، الحمصي القاضي شمس الدين المعروف بابن زهرة - بفتح الزاي - الحمصي الحنبلي،، وهو أول حنبلي ولي قضاء حمص، وكان أبوه خالد شافعياً فيقال إن شخصاً رأى النبي صلى الله عليه وسلم فقال له :إن خالداً ولد له ولد حنبلي! فاتفق أنه كان ولد له هذا فشغله لما كبر بمذهب الحنبلية، وقرأ على بدر الدين بن اشناب ببعلبك وعلى الشيخ شرف الدين ابن قاضي الجيل وزين الدين بن رجب بدمشق، وولي قضاء حمص مات في سنة (830هـ/1426م)[4].

---

(1) العليمي: الأنس الجليل 126/2

(2) السخاوي: الضوء اللامع 111/1.

(3) السخاوي: الضوء اللامع 155/2.

(4) السخاوي: إنباء الغمر بأبناء العمر 94/3.السخاوي: الضوء اللامع2/178

15- ابنُ البدرِ محمد بن إبراهيم بن أيوب الحمصي ابن العُصَيَّاتي. أظنُّه محمد الذي أجاز لي في سنة ثمان وخمسين مِنْ دمشق. قال صاحبُ التَّرجمة في ترجمة والده مِنْ ثاني "معجمه": ولقيت ولده بحمص، وهو فاضل، قال السخاوي أنه: "فقرأ عليَّ وأجزتُ كتاب الجواهر والدرر في ترجمة شيخ الإسلام ابن حجر" (ت858هـ/1454م)(1).

16- عمر بن موسى بن الحسن، سراج الدين القرشي المخزومي، ابن الحمصي: فقيه شافعيّ، ولد بحمص وانتقل إلى دمشق وبعلبكّ وحماة وولي قضاء طرابلس ثم سافر إلى مصر واليمن. وذكر له النجم بن فهد بعض التصانيف في الفقه والأصول وغيرها. وفي زبيد نظم رداً علي "الفصوص" لابن عربي في 140 بيتاً. قال السخاوي :"كان إنسانا طوالا مفوها جريئا مشاركا في الفضائل ذا نظم ونثر متوسطين". مات ببيت المقدس (ت861هـ/1457م)(2).

17- جمال الدّين عبد الله بن أبي بكر بن خالد بن زهرا الحمصي الحنبلي الإمام العلامة قرأ «الفروع» على ابن مغلي، وله عليه «حاشية» لطيفة. وقرأ «تجريد العناية» على مؤلّفه القاضي علاء الدّين بن اللحّام، والأصول له أيضا. وأخذ عن عمّه القاضي شمس الدّين، وعلماء دمشق. وكان من أكابر الفضلاء.وتوفي في سنة (868هـ/1464م) عن أكثر من مائة سنة(3).

18- مُحَمَّد بن مُحَمَّد بن عبد الْملك بن مُحَمَّد الشَّمْس بن الحاج أبي عبد الله الْبَغْدَادِيّ الأَصْل الْحِمصِي الشَّافِعِي وَالِد عبد الْغفار وَعبد الملك الماضيين وَيعرف بِابْن السقا. ولد فِي لَيْلَة الْجُمُعَة مستهل ذِي الْقعدَة سنة سبع وَأَرْبَعين وَثَمَانمِائَة بحمص وَنَشَأ بهَا فحفظ الْقُرْآن والغاية لأبي شُجَاع والكتب الَّتِي بينتها

---

(1) الخوري: تاريخ حمص ق2 ص 281.

(2) ابن الملقن :كتاب التوضيح لشرح الجامع الصحيح1/263.السخاوي:معجم الشيوخ ص 194 - 195. الزركلي الأعلام 5/68

(3) السخاوي: الضوء اللامع 5/15

فِي ثَانِي ولديه، وَحج فِي سنة أَربع وستِّين وَقدم الْقَاهِرَة فِي سنة ست ّ وستِّينَ فاشتغل فِي الأَزْهَر على السنتاوي وابن الوروري والطنتدائي الضَّرِير ونَحْوهم وَعرض على السخاوي" فِي جملَة الْجَمَاعَة وَسمع مني المسلسل وَغَيره كبعض مجَالِس الإِمْلاء وَقَرَأَ فِي سنة إِحْدَى وَسبعين على الديمي فِي البُخَارِيّ وألفية الْعِرَاقِيّ وتميز وكتب الْخط الْجيد وَنسخ بِهِ أَشْيَاء"[1] .

19- محمد بن محمد بن أحمد بن عبد المحسن السبكي، ثم الحمصي، الخطيب بها. قال السخاوي:" أجاز لبنتي رابعة أيضاً ". وسمع من جدته ست الخطباء بنت تقي الدين السبكي، ومن أبي عبد الله ابن مرزوق، وبدر الدين ابن مكتوم، وفتح الدين بن الشهيد. وسمع" الصحيح للبخاري "كاملاً سنة اثنتين وسبعين على إبراهيم بن حسن بن فرعون[2].

20- أحمد بن محمد بن سعيد الحمصي الشافعي (ت بعد 896هـ/ 1491م)[3].

محمد بن محمد بن عبد الملك بن محمد الشمس بن الحاج أبي عبد الله البغدادي الأصل الحمصي الشافعي ويعرف بابن السقا[4].

21- عبد الملك بن محمد بن محمد بن عبد الملك بن محمد البغدادي الأصل الحمصي الشافعي ويعرف بابن السقا المتوفى القرن التاسع الهجري / الخامس عشر الميلادي[5].

22- عبد الغفار بن محمد أخو عبد الملك (السابق) المتوفى في القرن التاسع الهجري / الخامس عشر الميلادي[6].

---

(1) السخاوي: الضوء اللامع 131/9

(2) ابن حجر: المعجم المؤسس للمعجم المفهرس 253/3

(3) ابن حجر: أنباء 273/8، السخاوي: الضوء اللامع 139/6 - 142.

(4) السخاوي: الضوء اللامع 111/2.

(5) السخاوي: الضوء اللامع 121/9.

(6) السخاوي: الضوء اللامع 87/5، 88، الخوري: تاريخ حمص ق2 ص 286.

23- يوسف بن أحمد بن أبي بكر المقدسي الشافعي، المتوفى في نهاية القرن التاسع الهجري / الخامس عشر الميلادي[1].

ومن أبناء حمص الذين اشتغلوا بالحديث والفقه:

1- محمد بْنُ مَسْعُودِ بْنِ أَيُّوبَ الإِمَامُ الْعَالِمُ الصَّالِحُ الْخَيِّرُ الْمُحَدِّثُ بَدْرُ الدِّينِ بْنُ التَّوَّزِيِّ الْحَلَبِيُّ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ الشَّافِعِيُّ شَيْخُ حِمْصَ وَنَائِبُ الْقَاضِي بِهَا وَشَيْخُ الْخَانْقَاهْ وُلِدَ سَنَةَ ثَلاثٍ وَثَلاثِينَ وَسِتِّ مِائَةٍ.وَسَمِعَ وَطَلَبَ بِنَفْسِهِ بِدِمَشْقَ، وَحَلَبَ، وَالْمَعَرَّةِ، وَبَعْلَبَكَّ، سَمِعَ أَبَا عَبْدِ اللَّهِ الْبَلْخِيَّ، وَالضِّيَاءَ جَعْفَراً، وَالْيَلْدَانِيَّ، وَطَبَقَتَهُمْ، وَخَرَّجَ لِنَفْسِهِ أَرْبَعِينَ حَدِيثاً. أَخْبَرَنَا مُحَمَّدُ بْنُ مَسْعُودٍ، بِحِمْصَ، أنا عَبْدُ الْحَقِّ بْنُ الْحَسَنِ الْمَنْبِجِيُّ، أنا الْمُؤَيَّدُ الطُّوسِيُّ.وأنا أَحْمَدُ بْنُ هِبَةِ اللَّهِ، عَنِ الْمُؤَيَّدِ، قَالَ :أَخْبَرَتْنَا فَاطِمَةُ بِنْتُ زَعْبَلٍ، أنا عَبْدُ الْغَفَّارِ بْنُ مُحَمَّدٍ، سَنَةَ إِحْدَى وَأَرْبَعِينَ وَأَرْبَعِ مِائَةٍ، أنا أَبُو عَمْرِو بْنُ حَمْدَانَ، نا الْحَسَنُ بْنُ سُفْيَانَ، نا مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمَّارٍ، نا الْمُعَافَى، عَنْ حَنْظَلَةَ بْنِ أَبِي سُفْيَانَ، عَنْ عِكْرِمَةَ بْنِ خَالِدٍ، عَنِ ابْنِ عُمَرَ :أَنَّ رَجُلا، قَالَ لَهُ :أَلا تَغْزُو؟ قَالَ :سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُول: " بُنِيَ الإِسْلامُ عَلَى خَمْسٍ: شَهَادَةِ أَنْ لا إِلَهَ إِلا اللَّهُ، وَإِقَامِ الصَّلاةِ، وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ، وَالْحَجِّ، وَصَوْمِ رَمَضَانَ". (ت705هـ/1305م)[2].

2- أبو بكر بن محمد بن أبي الفتح الحمصي، شرف الدين (ت707هـ/1307م)[3].

3- محمد بن محمد بن ناصر بن أبي الفضل الفراء الحمصي (ت784هـ/1382م)[4].

---

(1) السخاوي: الضوء اللامع 2/243، الخوري: تاريخ حمص ق2 ص 286.

(2) الذهبي: معجم الشيوخ الكبير 2/282-283

(3) السخاوي: الضوء اللامع 1/293، الخوري: تاريخ حمص ق2 ص 285.

(4) ابن حجر: الدرر 1/493.

4- نفيسة بنت إبراهيم بن محمد بن المصفى بن عمر الحلاوي الحمصية القرنفلية أم معاني.سمعت من الحجار" صحيح البخاري "بحمص.وحدثت سمع منها البرهان الحلبي إبراهيم بن محمد بن خليل.(ت بعد 780هـ/1378م)[1].

5- أحمد بن داود بن أحمد الحمصي المعروف بابن السابق (ت بعد 789هـ/1387م)[2].

6- إسماعيل بن علي بن معالي الحمصي المتوفى في القرن الثامن الهجري / الرابع عشر الميلادي[3].

7- قَاضِي الْقُضَاة شيخ الإِسْلَام سراج الدّين أَبُو حَفْص عمر بن مُوسَى بن مُحَمَّد الْحِمصِي المَخْزُومِي الشَّافِعِي مولده تَقْرِيباً فِي مباديء سنة سبع وَسبعين وَسَبْعمائة وَقد رَأَيْت فِي طَبَقَات الحَدِيث مولده فِي ربيع الأول سنة إحْدَى وَثَمَانِينَ وَسَبْعمائة بمدية حمص سمع الْحَافِظ ابْن الْجَزرِي وَأَجَازَهُ الْجلال البُلْقِينِيّ والحافظ بن حجر وكَانَ رجلا زكيا فصيحا ولي قَضَاء دمشق وَغَيرهَا ثمَّ ولي تدريس الصلاحية عوضا عَن الشَّيْخ جمال الدّين ابْن جمَاعَة، (ت865هـ/1460م)[4].

8- أحمد بن محمد بن أحمد بن أبي طاهر الحمصي المتوفى في القرن الثامن الهجري / الرابع عشر الميلادي[5].

9-عثمان بن أبي بكر بن أحمد بن عبد الرحمن الحمصي المتوفى في القرن الثامن الهجري / الرابع عشر الميلادي[6].

---

(1) التقي الفاسي: ذيل التقييد 396/2

(2) ابن حجر: الدرر 6/5، الحنبلي: شذرات الذهب 285/6،

(3) ابن حجر: الدرر 299/1، الخوري: تاريخ حمص ق2 ص 278.

(4) العليمي: الأنس الجليل 114/2-115

(5) ابن حجر: الدرر 258/1.

(6) ابن حجر: الدرر 52/3.

10-عبد الله بن أبي بكر بن خالد بن موسى بن زهرة الحمصي المتوفى في القرن التاسع الهجري/ الخامس عشر الميلادي[(1)].

11-أحمد بن محمد بن سعيد المتوفى في القرن التاسع الهجري / الخامس عشر الميلادي[(2)] والبرهان النقيراوي المتوفى في القرن التاسع الهجري /ة الخامس عشر الميلادي[(3)].

ولعل ما يوحي إلى حالة النشاط العلمي الملحوظة في هذه النيابة **يتثمل في إجازة عدد من علماء حمص لبعض المشتغلين بالعلم**، فقد أجاز:

1- عثمان بن الحمصي (ت710هـ/1310م) لمحمد بن رافع بن أبي محمد هجرس بن شافع السلامي[(4)].

2- عمر بن عَليّ بن عمر بن أبي الْقَاسِم البقاعي نَائِب الحكم بحمص ولد سنة (704هـ/ 1304م) وَسمع بهَا من أبي الْعَبَّاس الْمجَاز صَحِيح البُخَارِيّ وَحدث عَنهُ سمع مِنْهُ أَبُو حَامِد بن ظهيرة قَدِيما وَسمع مِنْهُ الْمُحدث برهَان الدّين سبط ابْن العجمي لما رَحل من حلب إِلَى الْقَاهِرَة سنة (780هـ/1379م)[5].

3- أجاز عبد الرحمن بن محمد بن زهرة المتوفى في القرن التاسع الهجري لمحمد بن محمد بن عبد الرحمن بن عمر بن رسلان بن نصير الكناني البلقيني[(6)].

---

(1) السخاوي: الضوء اللامع 15/5.

(2) السخاوي: الضوء اللامع 50/10

(3) السخاوي: الضوء اللامع 10 / 24، 25.

(4) ابن حجر: الدرر 59/4، 60.

(5) ابن حجر: الدرر212/4

(6) (شمس الدين) محمد بن عبد الرحمن: (الذيل على رفع الأصر بغية العلماء والرواة) تح: جودة هلال، ومحمد محمود صبح، الدار المصرية للتأليف والترجمة، القاهرة دون تاريخ ص 328،

4- أجاز محمد بن محمد بن أحمد السبكي لعمر بن محمد بن أبي الخير محمد بن محمد بن فهد المتوفى 885هـ/ 1480م[1].

5- أجاز عدد من علماء حمص للقاضي زين الدين أبي بكر محمد بن أحمد بن عثمان المعروف بابن مزهر. ولفاطمة بنت محمد بن عبد الهادي بن عبد الحميد بن عبد الهادي أم يوسف المقدسية[2].

وكدليل آخر على ذلك النشاط هو **ارتحال** عدد من العلماء إلى حمص للتحدث وتدريس الفقه مثل:

1- أحمد بن أبي طالب بن أبي النعم نعمة بن حسن بن علي بن بيان الصالحي الحجار أبي العباس (ت730هـ/ 1329م)[3].

2- ست الخطباء بنت تقي الدين أبي الحسن علي بن عبد الكافي بن علي السبكي حدثت بحمص (ت772هـ/1371م)[4].

3-علي بن أبي بكر بن سليمان بن أبي بكر بن عمر بن صالح نور الدين أبي الحسن الهيثمي القاهري، فقد رافق الزين العراقي في جميع مسموعه في حمص[5].

4-أَحْمَد بْن أبي الخير سلامة بْن إِبْرَاهِيم بْن معروف بْن خَلَف.المُسْنِد، المعمَّر، زين الدّين، أبو الْعَبَّاس الدّمشقيّ، الحدّاد، الحنبليّ، الْمُقْرِئ، الخيّاط، الدّلال.وسمع بحمص من شمس الدّين أَحْمَد بْن عَبْد الواحد الْبُخَارِيّ والد الفخر[6].

---

(1) السخاوي: الضوء اللامع 126/6 - 131.

(2) السخاوي: الضوء اللامع 262،288/3

(3) ابن حجر: الدرر 152/1، 153.الطراونة: حمص ص144-145

(4) اين رافع: الوفيات 388/2. ابن حجر: الدرر 259/2

(5) السخاوي: الضوء اللامع 202/5.

(6) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة 7/ 290، الصفدي: والوافي بالوفيات 6/ 397،

5- وممن قصد حمص للسماع أحمد بن محمد بن عبد الله، الحافظ الزاهد جمال الدين أبو العباس بن الشيخ القدوة محمد الظاهري الحلبي الحنفي، مولى الظاهر صاحب حلب (ت 696هـ/1297م)[1].

6- محمد بن موسى بن علي بن عبد الصمد بن محمد بن عبد الله الجمال أبو البركات وأبو المحاسن المراكشي ويعرف بابن موسى[2].

وقد **قصد حمص عدد من طلاب العلم** من مختلف البلدان الإسلامية لسماع الحديث وأخذ الفقه من علمائها وشيوخها نذكر منهم:

1- سنجر بن عبد الله التركي الصالحي النجمي (ت 699هـ/ 1300م)[3].

2- عثمان بن أحمد بن محمد بن عبد الله الظاهري فخر الدين الحلبي ثم المصري (ت730هـ/1320م)[4].

3- يونس بن عبد الرحمن بن يوسف بن علي بن عبد الملك بن أبي زهرة الحلبي (ت742هـ/1341م)[5].

4- محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز الشيخ الحافظ شمس الدين أبي عبد الله الذهبي (ت748هـ/ 1347م)[6].

5- سليمان بن يوسف بن مفلح بن أبي الوفاء صدر الدين اليوسفي (ت789هـ/1387م)[7].

---

(1) ابن تغري بردي: والمنهل الصافي 1/121-122

(2) السخاوي: الضوء اللامع 10/56.

(3) ابن تغري بردي: المنهل الصافي 6/69.

(4) ابن حجر: الدرر 3/50.

(5) الصفدي: أعيان العصر 3/354، 355.

(6) الصفدي: الوافي 2/163 - 165.

(7) السخاوي: الضوء اللامع 4/171 - 177.

6- عبد الرحيم بن الحسين بن عبد الرحمن بن أبي بكر بن إبـراهيم الـزين أبو الفضل الكردي (ت806هـ/ 1404م).

7- الحافظ جمال الدين أبو المحاسن محمد بن موسى بن علـي بـن عبـد الصمد بن محمد بن عبد الله المراكشي سمع بحمص (بعد 790هـ/1388م)[1].

8- إبراهيم بن محمد بن خليل البرهان الطرابلسي الأصل الـشامي المولـد (ت841هـ/1437م)[2].

9- محمد بن محمد بن هبة الله بن عمر بن إبراهيم بن الشرف هبـة الله بـن النجم الصدر بن ناصر الدين بن الشرف الجهني الحموي، ويعرف بابن البارزي (ت875هـ/ 1470م)[3].

10- محمد بن عبد الرحمن بن محمد بن أبي بكـر بـن عثمـان الـسخاوي (ت902هـ/1497م)[4]

أسهم سكان نيابة حمص المحروسة في رفد **حركة التأليف** في هذا العصر وهؤلاء العلماء كان منـهم المفـسّر والمحـدّث والفقيـه والأصـولي والمـتكلّم، والنحوي وغيرهم[5].

ولا يفوتنا التنويه أنه بعد سقوط بغداد بيد التتار وأبادوا كتبها ومؤلفاتهـا، شعر العلماء أنه تقع على عاتقهم مسؤولية كبيرة من خلال نـشر الـدين وتجديـد العلم لتعويض ما خسرته الأمة الإسلامية من مؤلفات، وجمع المعارف المشتتة،

---

(1) الحنبلي: شذرات الذهب 7/161- 162.
(2) السخاوي: الضوء اللامع 1/138 - 140.
(3) السخاوي: الضوء اللامع 10/24-25.
(4) السخاوي: الضوء اللامع 4/129- 130.
(5) (السبكي): تاج الدين عبد الوهاب (معيد النعم ومبيد الـنقم) مؤسـسة الكتـب الثقافيـة - ط1 - 1986 - ص56-57.

وسد الثغرة التي ظهرت نتيجة تدمير بغداد وعلومها. فامتلأت نفوسهم حماسة، وقاموا بذلك قياماً حسناً، وخاصة في ميدان التعليم والتأليف، وازدان عصر المماليك في مصر والشام بنخبة ممتازة من العلماء والأدباء العظام في مختلف الميادين، بحيث يصعب أن ينافسه عصر آخر[1]، وقد تميز علماء هذا العصر بعدم التخصص، فالمؤلف يكتب في شتى العلوم، والعالم الحقّ هو الذي لا يجهل علماً[2]، وبناءاً على ما سبق ذلك ومن خلال التراجم التي توصلنا لها من أعلام نيابة حمص يمكننا القول أنها حفلت بنشاطٍ علميٍ وثقافيٍ ملحوظ خلال العصر المملوكي من خلال حركة تنقل الطلاب والشيوخ من حمص وإليها في طلب تحصيل العلم وانكبوا على حركة التأليف ومن هؤلاء نذكر:

1- تاج الدين محمود بن علي بن محمود الحمصي المعروف بتاج الدين الرازي (ت735هـ/1335م) الذي ألف (أمالي العراقية في شرح فصول الإبلاقية في الطب)[3]، و(بداية الهداية)، و(التبيين والتنقيح في التحسين والتنقيح)، و(كشف المعاقد في شرح قواعد العقائد)و(المصادر في الأصول) و(المنقذ من التقليد والمرشد إلى التوحيد في نقض الموجز للنجيب)[4].

2- ووضع سراج الدين الحمصي مؤلفات منها: (توضيح المبهم والمجهول على منهاج الأصول للبيضاوي)، و(روضات الناظرين)، و(زاد العقير)، و(سطور الأعلام في مباني الإيمان والإسلام)،

---

(1) (شلبي): أحمد (موسوعة التاريخ الإسلامي) مكتبة النهضة المصرية - ط7 - 19865 /274.

(2) العلبي:: دمشق بين عصر المماليك والعثمانيين ص 159.

(3) حاجي خليفة: كشف الظنون 165/1.

(4) إسماعيل باشا بن محمد أمين بن أمير سليم البغدادي: هدية العارفين أسماء المؤلفين وآثار المصنفين من كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، دار الكتب العلمية بيروت 1994م 408/2.

و(شرح المنهاج للنووي في الفروع) لم يكمل، و(الشهب العلية في الرد على كفّر ابن تيمية)، و(صفوة الأصفياء في خلاصة الأولياء)[1].

3- وشارك عثمان بن إسماعيل أبناء مدينته فكتب: (تاريخ الإسلام الكبير)، و(اللطائف السنية في التواريخ الإسلامية) وهو مختصر تاريخ الإسلام.

وقد كانت هذه السياسة التعليمية الفردية - إن صحت تسميتها - مجالاً للمنافسة وحب الظهور بين السلاطين والأمراء والقادرين عليها، وكانت سبيلاً لتخليد ذكرى واقفها، وطريقاً إلى حفظ بعض الأموال المقطعة في ذرية الواقف قبل عودها إلى السلطان بموته أو لأحد آخر، وكانت هذه السياسة سبباً في إنعاش البلاد، بتأسيس عدد ضخم من دور التعليم[2]، ولدينا خبر يبين أن السلطان الظاهر بيبرس أوقف سنة (664هـ/1266م) قرية من قرى صفد على مقام خالد بن الوليد بعد أن قام بإصلاحه[3]. وكذلك أوقف الأمير تنكز الحسامي نائب دمشق المشهور على بعض المصالح في مدينة دمشق، فقد أوقف الحمام القديم بحمص على دار الحديث السكرية[4] عندما أكمل بناءها سنة (739هـ/1339م)[5] ووَقَفَ عدة حوانيت بحمص على جامعه بدمشق[6] كما وقفت عدة حوانيت تجار بحمص على الخانقاة الشريفية[7].

---

(1) حاجي خليفة: كشف الظنون 2/3، 15، البغدادي: هدية العارفين 1/656.

(2) رزوق: عصر سلاطين المماليك - مج3 - ق1 - ج2 - ص64.

(3) شافع: حسن المناقب ص 111، المقريزي: السلوك 1/548.

(4) النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس 1/74.

(5) ابن كثير: البداية 14/195.

(6) الصفدي: أعيان 1/227.

(7) النعيمي: الدارس 2/163، 164.

وكذلك فعل الأمير أرغون الصغير الكاملي (ت758هـ/1356) عندما وَقَفَ نصف قرية أعناز وجميع الطاحون المعروف بطاحون أعناز وثلاثة أخماس قرية مزرعة الجندلية[1] لمدرسته التي بناها في حصن الأكراد.

* * *

(1) الخطيب: الأوقاف الإسلامية في فلسطين في العصر المملوكي ص47-48

الخاتمة

من خلال الغوص في هذا الكتاب وسطوره ألقينا نظرة معمقة على الأوضاع السياسية والاقتصادية والاجتماعية في نيابة حمص في عصر سلاطين المماليك، ورأينا أن هذه المدينة الوادعة كانت تشكل إحدى الوحدات الإدارية الصغرى في بلاد الشام وتشغل أراضيها القسم الأكبر من المنطقة الشمالية الشرقية لمملكة دمشق.

وقد تمتعت حمص بموقع استراتيجي على درجة كبيرة من الخطورة كونها صلة الوصل بين النيابات الشامية، فهي كانت بمثابة القلب لها، وهذا الموقع مكنها من الدفاع عن نفسها إذا ما تمكنت إحدى القوى من إحكام قبضتها عليها إلى حد ما.استطاعت حمص في زمن الحروب الصليبية أن تشكل واحدة من أقوى الممالك الأيوبية، لكن تغييب الموت للأشرف موسى آخر ملوك الأسرة الأسدية في حمص بلا وريث يعقبه أدى إلى انتقال حمص من مملكة أيوبية إلى مجرد نيابة في سلطنة سلاطين المماليك، رغم أنها اعتبرت آنذاك نيابة مهمة.لكن بالتدريج بدأت بالضعف والاضمحلال، وألحقت بنيابة دمشق، وبسبب بعدها عن القاهرة مركز السلطنة المملوكية تراجعت أوضاع حمص في العديد من النواحي، ثم سرعان ما تعود لتأخذ دورها السياسي في الدفاع عن السلطنة المملوكية ضد هجمات المغول، واتضح أن حمص بقيت إمارة أيوبية بعد خضوعها للمماليك حتى وفاة آخر أمرائها الأيوبيين الأشرف موسى سنة 662هـ/ 1264م وأن مدينة الرحبة التي كانت إحدى أعمال حمص قد فصلت عنها في العام نفسه.

ومنصب نائب حمص كان زمن الملك الناصر محمد بن قلاوون وما بعدها « تقدمة ألف » إلا أن رتبته تغيرت فيما بعد واستقرت «أمير طبلخانة» أي أمير أربعين ولعل ذلك يعود إلى تلاشي الخطر المغولي الذي يهدد بلاد الشام.

وتأثرت النيابة من حركات العصيان والتمرد والفتن الداخلية التي قام بها بعض نواب الشام ضد السلاطين المماليك مما أدى إلى الغلاء وارتفاع الأسعار فيها وهروب قسم من سكانها إلى المناطق المجاورة وخاصة دمشق، وقد ساهم شارك بعض نواب حمص في هذه الحركات التمردية ضد السلطان وكان مصيرهم العزل والنفي.و صمدت حمص ي وجه الهجمات المغولية لسنوات طويلة، وساهمت جيوشها في كبح جماح هذه الهجمات ضد حمص، بل وشاركت في صد هجمات المغول ضد باقي أجزاء السلطنة المملوكية، ولعب الجيش الحمصي دوراً هاماً في هذا الشأن، وخلّد التاريخ المعارك التي خاضها الجيش الحمصي ضد المغول وهجماتهم

ولقد كان لموقع حمص الجغرافي المتوسط بين النيابات الشامية جعلها حلقة وصل ونقطة تفرع لمراكز البريد بأنظمته الثلاثة المستخدمة زمن المماليك، البريد العادي والحمام الزاجل والمناور.

ويبدو أن القسم الأكبر من أراضي النيابة والتي يغلب عليه الطابع الصحراوي كان موطناً لقبيلة آل فضل أمراء العرب في الفترة المملوكية والتي كان لبعض أمرائها دوراً في حركات العصيان بسبب النزاع على الإمرة واسترجاع السلاطين المماليك إقطاعاتهم.

وتنوعت الموارد الاقتصادية في نيابة حمص، وعلى الرغم من مساهمة الثروة الحيوانية، والتجارة، والصناعة بنصيب ما في الاقتصاد، فإن الزراعة مثلت الاقتصاد الرئيس في النيابة، بسبب وجود نهر العاصي والأمطار الغزيرة التي تتلقاها هذه النيابة بسبب وجود ما يعرف حالياً - فتحة حمص طرابلس - ولمساحة نيابة حمص الشاسعة مما أدى إلى تنوع زراعاتها من خضروات مروية

وبعلية وأشجار مثمرة، وعلى الرغم من الأزمات السياسية والطبيعية التي تعرضت لها النيابة وما ترتب عليها من نتائج ذات صبغة اقتصادية اجتماعية، فإنها استطاعت تجاوز تلك الأزمات.و كانت أسواقها عامرة بالبضائع والمصنوعات المتنوعة النسيجية والخشبية والتعدينية والزجاجية..... وغيرها.

وعلى الصعيد الاجتماعي تنوعت الخريطة العنصرية والدينية والمذهبية للسكان في هذه النيابة، تلك السمة التي عُدّت إحدى انعكاسات مجتمع بلاد الشام وإحدى مراحل تطوره، وعلى الرغم من سمة التعددية تلك فقد اتسم المجتمع الحمصي في عصر المماليك بالثبات والاستقرار باستثناء حالات الهجرة التي كانت تتم في أوقات الغلاء والاضطرابات. بالرغم من تعدّد الطوائف الدينية الشعبية في الدولة المملوكية إلا أن السلطة في هذا الكيان حرصت بشكل كبير على أن تكون حامية وراعية للأمة الاسلامية ككيان موحد، بالرغم من محاولة المماليك تغليب ظهورهم بالمظهر الإسلامي[1]، وهذا لأن الغالبية الساحقة من مواطني الدولة المملوكية كانوا مسلمين وبالذات الفئات الشعبية منهم، ولهذا حرصت السلطة على إظهار احترامها ونصرتها لهذا الدين الذي تمثله هذه الشريحة، والتي كثيراً ما تعدّت بعض العناصر منهم على مخالفيهم في الدِّين من النصارى، بحيث إذا وجدوهم ضربوهم وعرّوهم من ثيابهم - وعلى العكس من ذلك اليهود الذين كانوا نادراً ما يمارس معهم مثل هذا العمل - فكان النصراني إذا طرأ له أمر يتزيّ بزي اليهود ويلبس عمامة صفراء يكتريها من يهودي ليخرج في حاجته[2]. والأمثلة على مثل هذه المعاملة كثيرة ؛ منها ما حدث سنة 742هـ/1342م فقد نهب عددٌ من العامة بعض كنائس النصارى، فعوقبوا بالصلب تحت القلعة ثم أُطلقوا[3].

---

(1) سعيد عاشور: العصر المماليكي في مصر والشام، ص245.

(2) المقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك، (227/2).

(3) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة في أخبار ملوك مصر والقاهرة، (56/10). ابن إياس: بدائع الزهور في وقائع الدهور، (178/1).

وفيما يخص سكان نيابة حمص فقد شكلوا خليطاً من المسلمين السُنة حيث شكلوا أغلبية السكان، وهناك مذاهب أقلية دينية كالنصرانية واليهودية، وأقليات عرقية كالأتراك والجراكسة والأكراد والتركمان.

وعلى صعيد الحركة العلمية والفكرية فقد غدت حمص إحدى مشاعل العلم والفكر الأدبي في بلاد الشام في عصر سلاطين المماليك، ومن أسباب ذلك نذكر وجود المدرسة النورية فيها ولزيارة العديد من العلماء في تلك الفترة لها، إضافة إلى ذلك فقد ارتحل عدد من أبنائها إلى دمشق والقاهرة طلباً للعلم.



الملحق

نواب السلطنة في نيابة حمص[1]

(1)	الأشرف مظفر الدين موسى بن المنصور إبراهيم بن مجاهد أسد الدين شيركوه أصبح تابعاً للمماليك منذ سنة 658 - 662هـ/ 1260 - 1264م
(2)	الأمير بدر الدين يونس بن دلارم الياروقي: عينه السلطان الظاهر بيبرس نائباً لحمص والرحبة سنة 662هـ/ 1264م.
(3)	الأمير علم الدين سنجر الباشقردي: كان نائباً لحمص سنة 664هـ/ 1266م، ولا نعرف السنة التي عزل فيها.
(4)	الأمير عز الدين أيبك بن عبد الله الموصلي الظاهري: عين نائباً لحمص وأعمالها وحكمها بحزم وقوة وبطش ولهذا سر أهل حمص بوفاته سنة 668هـ/ 1270م.
(5)	لاجين الجمدار الصالحي النجمي: تولى نيابة حمص ولا نعرف السنة التي تولى فيها.
(6)	الأمير لاجين الكبير: عينه السلطان المنصور قلاوون نائباً لحمص في أوائل عهده ولا نعرف السنة التي عزل فيها.
(7)	الأمير سيف الدين قشتمر العجمي: كان نائباً في حمص سنة 680هـ/ 1281م

---

(1) الجدول نقلاً عن الطراونة: حمص ص150-63.

(8)	سيف الدين بازي المنصوري: عين نائباً للسلطنة في حمص في شعبان سنة 680هـ/ تشرين الثانية 1281.
(9)	بدر الدين بكتوت السعدي: كان نائباً للسلطنة في حمص سنة 681هـ/ 1282م.
(10)	ناصر الدين أبو عبد الله محمد بن إياز بن عبد الله الحراني الدمشقي الحنبلي: عينه الملك المنصور قلاوون نائباً لحمص وأعمالها بغير رضاه وباشر عمله بجد وإخلاص فعمل على إصلاح أحوالها وتنظيم أمورها، ولم تعلل مدة نيابته فيها إذ توفي في حمص سنة 684هـ/ 1285م.
(11)	الأمير بدر الدين بكتوت العلائي: كان نائباً لحمص سنة 689هـ/ 1290م وعزل عنها في العام نفسه.
(12)	بدر الدين كيكدي المنصوري: عين نائباً في حمص وأعمالها سنة 689هـ/ 1290م.
(13)	سيف الدين قطز المنصوري: عينه الملك المنصور قلاوون نائباً لحمص وباشرها إلى أن توفي في حمص سنة 690هـ/ 1291م.
(14)	الأمير تمر الساقي: عين نائباً للسلطنة في حمص سنة 696هـ/ 1297م وعزل منها.
(15)	علاء الدين اقطوان العلمي: كان نائباً في حمص سنة 697هـ/1298م.
(16)	الأمير فارس الدين التركي الظاهري ويعرف البكي: عينه السلطان الناصر محمد بن قلاوون سنة 700هـ/1301م نائباً للسلطنة في حمص، وأحسن إلى الناس بالتقرب إليهم وتحسس مشاكلهم، توفي سنة 702هـ/ 1303م.

(17)	الأمير سيف الدين بلبان الجوكندار المنصوري: نقل إلى نيابة حمص سنة 702هـ/1303م من وظيفة شد الدواوين بدمشق، وبعد أن باشر النيابة في حمص مدة أقل من سنة طلب الأعفاء منها، وأعفي سنة 702هـ/ 1303م.
(18)	الأمير عز الدين خليل أيبك التركي الحموي: عين نائباً لحمص بعد بلبان سنة 702هـ/ 1303م وأقام بها فترة وجيزة من شهر إلى ستة أشهر، وتوفي في حمص سنة 703هـ/ 1304م.
(19)	الأمير أقوش الأقرم: عين نائباً للسلطنة في حمص بعد وفاة عز الدين الحموي سنة 704هـ/ 1304م ونقل إلى دمشق ولا نعرف السنة التي نقل فيها وتوفيى سنة 728هـ/1328م.
(20)	الأمير سيف الدين تمر الساقي: عين نائباً للسلطنة في حمص سنة 709هـ/ 1309م ونقل منها.
(21)	الأمير سيف الدين أغرلوا العادلي: كان نائباً للسلطنة في حمص سنة 710هـ/1310م.
(22)	الأمير ركن الدين بيبرس العلائي: عين نائباً للسلطنة في حمص سنة 711هـ/1311م، ثم قبض عليه في حمص سنة 712هـ/ 1312م، وتوفي في الكرك في العام نفسه.
(23)	الأمير شهاب الدين قرطاي: كان نائباً للسلطنة في حمص ونقل منها إلى طرابلس سنة 716هـ/ 1316م وخلفه سيف الدين أرقطاي.
(24)	الأمير سيف الدين أرقاطاي (أقطاي) الجمدار: عين نائباً للسلطنة في حمص سنة 716هـ/ 1316م ونقل منها سنة 718هـ/ 1318م.

الأمير بدر الدين بكتوت القرماني: عين نائباً للسلطنة في حمص سنة 716 هـ/ 1318م ونقل منها إلى نيابة صفد	(25)
الأمير سيف الدين بهادر بن عبد الله البدري السلجدار الناصري: تولى نيابة حمص مرتين الأولى سنة 719هـ/ 1319م خلفاً للقرماني، والثانية في مستهل ذي الحجة سنة 725هـ/ تشرين الثاني 1325م وعزل منها ولا نعرف متى عزل.	(26)
الأمير سيف الدين بليان بن عبد الله البدري: كان نائباً للسلطنة في حمص سنة 727هـ/ 1327م، وتوفي في العام نفسه	(27)
الأمير سيف الدين يلبسطي: عين نائباً للسلطنة في حمص سنة 727هـ/ 1327م، وأقام بها مدة.	(28)
الأمير سيف الدين بكتمر (جُكتمر) العلائي الاستدار المنصوري: تولى نيابة حمص مرتين ولا نعرف متى عين في المرة الأولى إلا أننا نعرف بأنه نقل منها سنة 730هـ/1330م لنيابة غزة.	(29)
الأمير سيف الدين (قلاوز) الجمدار الناصري: عين نائباً في حمص بعد نقل بكتمر العلائي سنة 730هـ/ 1330م استمر في النيابة مدة قصيرة ثم عزب وبقي في حمص إلى أن توفي سنة 748هـ/ 1347م .	(30)
الأمير علاء الدين طنبغات السلحدار: عين نائباً للسلطنة في حمص سنة 733هـ/ 1333م نقلاً من نيابة غزة وتوفي في حمص في العام نفسه	(31)
الأمير سيف الدين بهادر السنجري: كان نائباً في حمص سنة 734هـ/ 1334م وتوفي في العام نفسه	(32)

(33)	الأمير سيف الدين قجماز الجوكندار المنصوري الملقب بشاش: عين نائباً لحمص في 5 محرم سنة 734هـ/16 أيلـول سـنة 1333م خلفـاً للأمير بهادر السنجري المتوفى في حمص في العام نفسه
(34)	سيف الدين بكتمر العلائي الاستدار المنصوري: تولى نيابة حمص سنة 734هـ/1334م للمرة الثانية
(35)	الأمير سيف الدين أرقطاي (اقطاي) الجمدار: عين نائباً للسلطنة في حمص للمرة الثانية سنة 736هـ/1336م وأقام بهـا سنتين ونصف ثم نقل إلى نيابة صفد.
(36)	طغراي: كان نائباً لحمص وعزل سنة 742هـ/ 1341م.
(37)	طشتمر: كان نئاباً في حمص سنة 742هـ/1341م.
(38)	علاء الدين (سيف الدين) آقبغا بن عبد الله بن عبد الواحد: عينه السلطان الناصر أحمد بن محمد نائباً للسلطنة في حمص وبقي فيها إلى أن عزل عنها سنة 743هـ/ 1342م، وتوفي سنة 744هـ/ 1343م.
(39)	الأمير حسام الدين لاجين طرنطاي بن عبد الله البشمقدار: تولى نيابة حمص ثلاث مرات الأولى كان نائباً لحمص وعزل منها ليتولى نيابة غزة سنة 743هـ/ 1342م، والثانية تولاها بعد عزل إياز الساقي سنة 746هـ/1345م ولكنه لم يصل إلى حمـص وحـل مكانـه نائبـاً لحمـص طقنمر والثالثة بعد عزل سيف الدين أولاجا.
(40)	الأمير سيف الدين إيان (إياز أو إياس)ت عبد الله الناصري الساقي: تولى نيابة حمص وباشرها مدة أقل من سنة ولا نعرف الـسنة الـتي عـين فيها إلا أنه عزل عنها سنة 746هـ/1345م توفي في العام نفسه.

(41)	حسام الدين طرنطاي البشمقدار: عين للمرة الثانية بعد عزل إياز 746هـ/1345م وعزل في العام نفسه.
(42)	الأمير سيف الدين طقتمر (قطلقتمر، بكمر) الخليلي: نقل من حجوبية دمشق إلى نيابة السلطنة في حمص سنة 746هـ/ 1345م وتوفي فيها في العام نفسه.
(43)	الأمير سيف الدين أولاجا بن عبد الله: عينه الملك الكامل سيف الدين شعبان سنة 746هـ/ 1345م نائباً للسلطنة في حمص وعزل منها ثم أعيد إليها ثانية ولا نعرف متى أعيد إلا أنه نقل منها إلى نيابة صفد سنة 748هـ/ 1347م وتوفي في العام نفسه.
(44)	الأمير حسام الدين طرنطاي البشمقدار: أعيد إلى نيابة حمص للمرة الثالثة بعد سيف الدين أولاجا بن عبد الله سنة 748هـ/1347م.
(45)	الأمير سيف الدين الصلاحي الناصري: عينه المظفر زين الدين حاجي نائباً للسلطنة في حمص وأقام فيها نحو أربعين يوماً وتوفي فيها سنة 747هـ/1346م.
(46)	الأمير بيدمر البدري: عين نائباً لحمص 748هـ/1347م وفي طريقه لاستلام مهام عمله أوعز إلى نائب غزة بقتله لوشاية من شجاع الدين غرلوا.
(47)	الأمير قلاوون الجمدار: كان نائباً في حمص سنة 748هـ/1347م.
(48)	الأمير ناصر الدين بهادر آص: كان نائباً لحمص سنة 751هـ/ 1350م.

(49)	الأمير بُلَكْ: عين نائباً للسلطنة في حمص أثناء فترة حكم السلطان الملك الصالح صلاح الدين صالح بن الناصر محمد 752هـ/ 1351م - 755هـ/ 1354م، توفي في حمص 754هـ/ 1353م.
(50)	الأمير ناصر الدين محمد بن كُجلي: عين نائباً للسلطنة في حمص سنة 754هـ/ 1353م، واستمر يباشر مهام وظيفته إلى أن توفي سنة 755هـ/ 1354م وهو في الستين من عمره.
(51)	الأمير ناصر الدين محمد بن الآقوش: عين نائباً للسلطنة في حمص وعزل عنها سنة 756هـ/1355م.
(52)	الأمير علاء الدين علي بن عيسى بن داود بن شيركوه الكردي الدمشقي: عين نائباً في حمص بعد الأمير محمد بن الآقوش سنة 756هـ/ 1355م وبقي فيها نائباً إلى أن توفي سنة 757هـ/ 1356م.
(53)	الأمير علاء الدين بن المعظم: كان نائباً في حمص سنة 757هـ/1356م.
(54)	الأمير صلاح الدين خليل بن خاص برك: كان نائباً للسلطنة في حمص سنة 759هـ/ 1358م.
(55)	الأمير تومان تمر: عين نائباً لحمص سنة 762هـ/ 1361م واعتبر نقله لحمص من نيابة طرابلس تحقيراً له.
(56)	الأمير أقبغا عبد الله: كان نئاباً للسلطنة في حمص، وعزل عنها سنة 775هـ/1373م.
(57)	الأمير تمراز الطازي: عين نائباً للسلطمة في حمص سنة 775هـ/1373م بعد عزلن أقبغا.

(58)	الأمير قبلاي: كان نائباً لحمص وتوفي فيها سنة 778هـ/ 1376م وهو يباشر أعمال وظيفته.
(59)	الأمير سيف الدين سودون العلائي: تم تعيينه نائباً للسلطنة في حمص سنة 780هـ/1378م وعزل عنها في سنة 781هـ/ 1379م.
(60)	الأمير سيف الدين جوكان الجركسي: عين نائباً للسلطنة في حمص وعزل عنها سنة 782هـ/1380م وتوفي مقتولاً سنة 783هـ/1381م.
(61)	الأمير أأرغون داود ارطشتمر: كان نائباً للسلطنة في حمص سنة 785هـ/1383م وتوفي في العام نفسه.
(62)	الأمير كمشبغا المنجكي: تولى نيابة حمص سنة 791هـ/1389م.
(63)	الأمير جقمق الملقب سيف الدين: كان نائباً للسلطنة في حمص سنة 792هـ/1390م.
(64)	الأمير خليل التركماني: كان نائباً لحمص سنة 798هـ/1396م.
(65)	الأمير برصيغا: كان نائباً لحمص ولا نعرف متى عين فيها، توفي مقتولاً سنة 718هـ/1414م.
(66)	الأمير (تمان) بغا الحسيني الظاهري: عين نائباً للسلطنة في حمص سنة 801هـ/ 1399، وتوفي في العام نفسه.

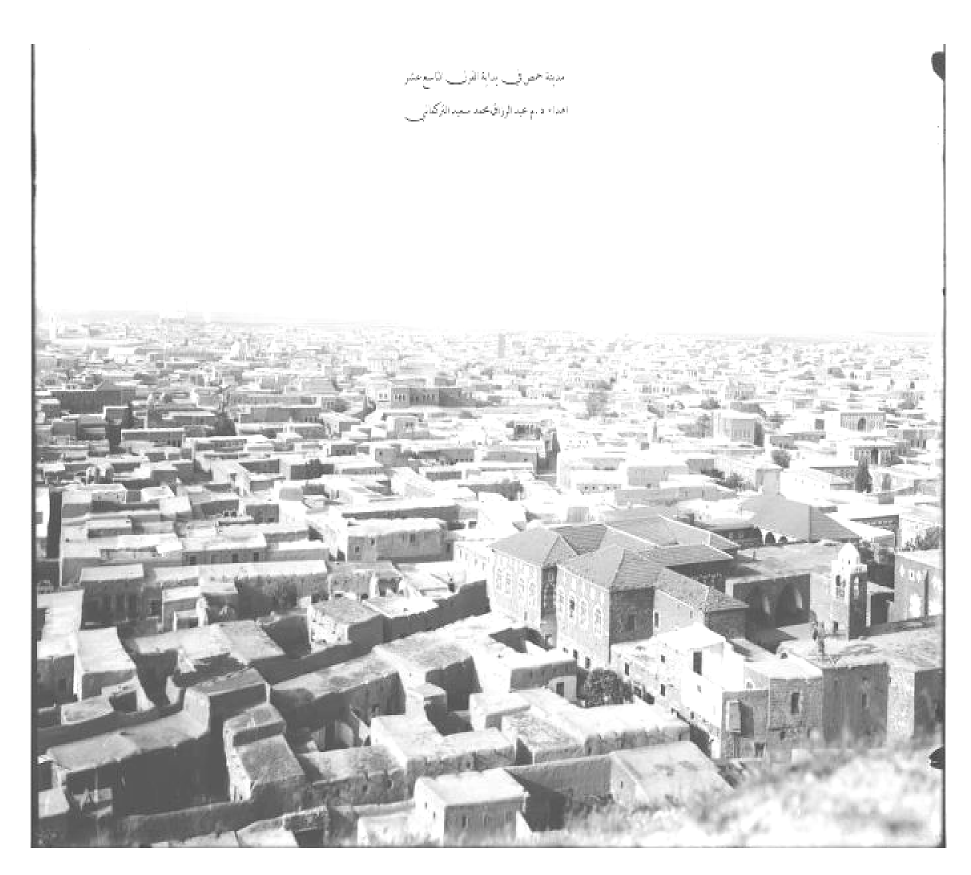
(67)	الأمير سيف الدين جنتمر بن عبد الله التركماني: عين نائباً لحمص سنة 801هـ/ 1399م ونقل منها إلى بعلبك وتوفي في مصر سنة 804هـ/ 1402م.
(68)	الأمير أقبغا الاسندمري: عين نائباً لحمص ونقل منها إلى حجوبية حماة سنة 823هـ/1320م.
(69)	الأمير تمراز بن عبد الظاهر الأعور: عينه الظاهر ططر نائباً للسلطنة في حمص سنة 824هـ/ 1421م واستمر فيها مدة سنة وعزل سنة 825هـ/1422م.
(70)	الأمير سنقر فرج بن برقوق الغزي الناصري: عين نائباً للسلطنة في حمص سنةن 836هـ/1433م وعزل عن حمص سنة 838هـ/ 1435م وخلفه طغرق.
(71)	الأمير طغرق من أولاد دلغار التركماني: عين نائباً للسلطنة في حمص سنة 838هـ/1435م بعد عزل سنقر الناصري، وتوفي مقتولاً في السنة نفسها وخلفه في النيابة ابنه علي.
(72)	الأمير علي بن طغرق: عين نائباً للسلطنة في حمص بعد مقتل والده الأمير طغرق سنة 838هـ/1435م واستمر مدة طويلة.
(73)	الأمير بيغوت بن صفر حجا المؤيدي الأعرج: عينه الملك الظاهر جقمق نائباً للسلطنة في حمص وباشرها مدة طويلة ونقل إلى نيابة صفد سنة 848هـ/1444م.
(74)	الأمير بردبك سودون بن عبد الرحمن السيفي: كان نائباً لحمص وعزل عنها سنة 853هـ/1449م وخلفه حسن الدوكاري.

(75)	الأمير حسن بك بن سالم الدوكاري: عين نائباً للسلطنة في حمص خلفاً لنائبها المعزول بردبك السيفي سنة 853هـ/1449م.
(76)	الأمير سيف الدين خشكلدي بن عبد الله الكوكجي: كان نائباً للسلطنة في حمص ولا نعرف متى عين فيها نائباً وتوفي سنة 865هـ/ 1461م.
(77)	الأمير الحليق بن اصلان بك الغادري: كان نائباً للسلطنة في حمص وعزله السلطان الناصر محمد بن قيتباي سنة 902هـ/1497م
(78)	الأمير إبراهيم بك السواري: كان نائباً للسلطنة في حمص سنة 902هـ/ 1497م وعزل عنها سنة 907هـ/ 1501م.
(79)	أصلان: كان نائباً للسلطنة في حمص سنة 922هـ/ 1516م، قتل في معركة مرج دابق وعين السلطان طومان باي ناصر الدين بن الحنش خلفاً له نظراً لشجاعة ابن الحنش في مقاومة السلطان سليم العثماني.

❊ ❊ ❊



المقبرة التي كانت بجوار مسجد الصحابي خالد بن الوليد



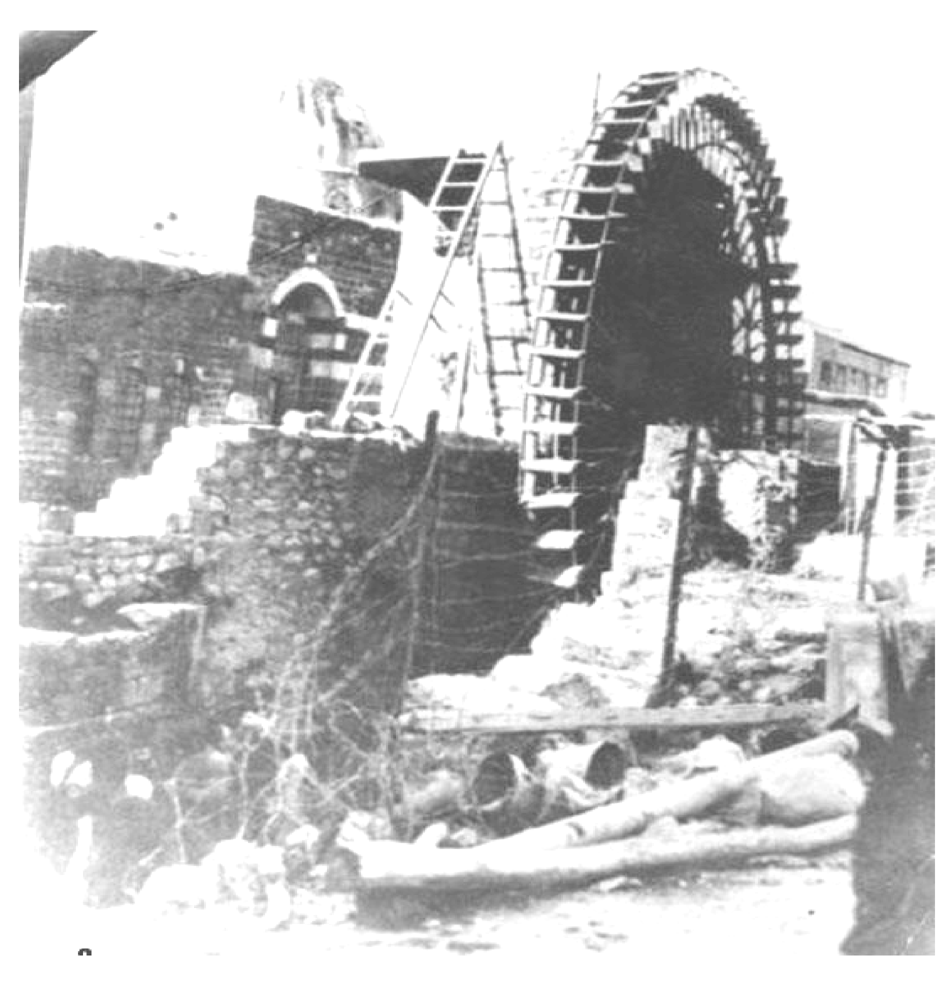
صورة لمدينة حمص في بداية القرن التاسع عشر



صورة لمسجد الأربعين في بداية القرن التاسع عشر



صورة ويظهر من خلالها الزّي الشعبي في مدينة حمص بداية القرن العشرين

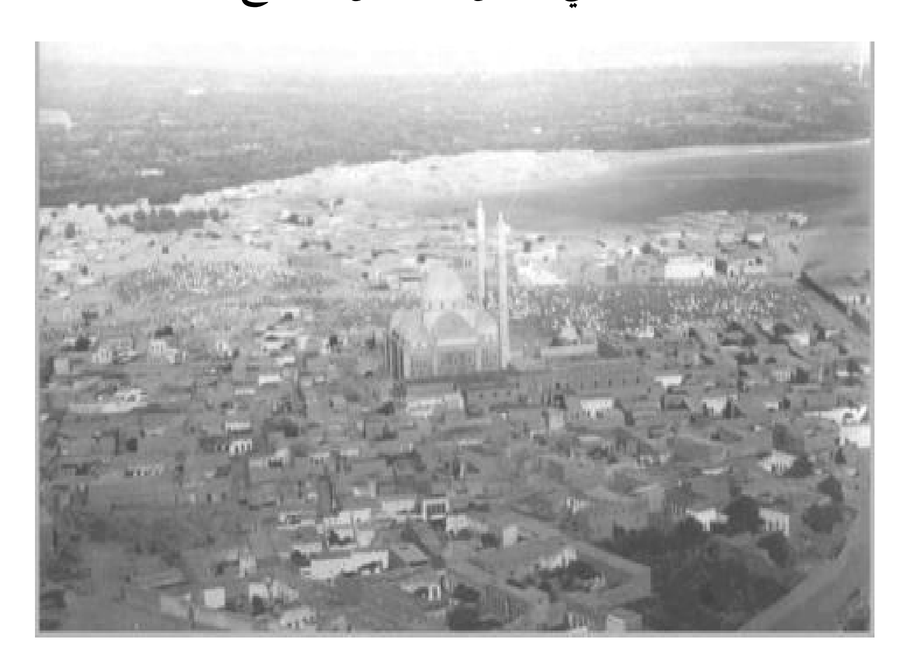


الناعورة التي كانت في حمص بداية القرن العشرين

وتعرف الساحة التي كانت فيها حالياً باسم ساحة الناعورة



السنجق في حمص - خميس المشايخ -



صورة جوية لحي الخالدية بحمص في عشرينات القرن العشرين



مئذنة جامع موسى الملاصق لقصر الزهرواي يعود بناؤه للعصر المملوكي



صورة لمهنة سقّا الماء في مدينة حمص في القرن الماضي

قائمة المصادر والمراجع

أولاً : المصادر

ابن أبي حجلة: أحمد سكردان السلطانتح: علي عمر، مكتبة الخانجي، ط1، القاهرة، 2001.

ابن الأثير: علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد. الكامل في التاريخ، دار صادر بيروت 1979م.

التاريخ الباهر في الدولة الاتابكية (الموصل) تحقيق عبد القادر أحمد طليمات، ط1 دار الكتاب الحديثة القاهرة 1963م.

أسد الغابة في معرفة الصحابة، تحقيق علي محمد معوض، وعلول أحمد عبد الموجود، دار الكتب العلمية بيروت 1994م.

ابن أبي الفضائل: المفضل (ت بعد 759هـ/ 1358م): النهج السديد والدر الفريد فيما بعد تاريخ ابن العميد: تحقيق أي بلوشيه باريس 1911 - 1912م.

ابن أجا الحلبي: شمس الدين محمد بن محمود بن خليل(ت 881هـ/1476م): العراك بين المماليك والعثمانيين الأتراك مع رحلة الأمير يشبك بن مهدي الدوادار: صنعه محمد أحمد دهمان، ط1، دار الفكر، دمشق 1986م.

ابن الأخوة: محمد بن محمد بن أحمد القرشي (ت729هـ/1229م): معالم القربة في إحكام الحسبة، حققه روبن ليوي، مطبعة دار الفنون كمبردج 1937م.

ابن أعثم: أحمد الكوفي (ت314هـ/1926م): كتاب الفتوح، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية حيدر أباد - الهند 1968 - 1969م.

ابن إياس: أبو البركات محمد بن أحمد (ت930هـ/1524م): بدائع الزهور في وقائع الدهور 5ج حققه محمد مصطفي ط2 الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة 1982- 1984م.

ابن أيبك الدواداري: أبو بكر عبد الله (ت 736هـ/ 1335م): كنز الدرر وجامع الغرر الجزء التاسع وهو الدر الفاخر في سيرة الملك الناصر، تحقيق هانس روبرت رويمر، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة 1960م.

ابن بسام: المحتسب: نهاية الرتبة في طلب الحسبة، تحقيق حسام الدين السامرائي، مطبعة المعارف، بغداد 1968م.

ابن بطوطة: محمد بن عبد الله. تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار شرحه وكتب هوامشه طلال حرب، دار الكتب العلمية، بيروت 1987م.

ابن تغري بردي: أبو المحاسن جمال الدين يوسف: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، 16 ج، قدم له وعلق عليه محمد حسين شمس الدين / ط1 دار الكتب العلمية بيروت 1992م

المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي تحقيق نبيل محمد عبد العزيز، الهيئة المصرية العامة للكتاب القاهرة 1984 - 1988م.

حوادث الدهور في مدى الأيام والشهور، تحقيق محمد كمال الدين عز الدين، عالم الكتب 1990م.

ابن جبير: محمد بن أحمد. رسالة اعتبار الناسك في ذكر الآثار الكريمة والمناسك المعروف برحلة ابن جبير، ط 2، دار ومكتبة الهلال، بيروت 1986م.

ابن الجوزي: أبو الفرج عبد الرحمن بن علي (ت 597هـ/1200م): صفة الصفوة ضبطها وكتب هوامشها إبراهيم رمضان وسعيد اللحام ط1، دار الكتب العلمية، بيروت 1989م.

ابن الجيعان: أبو البقاء محمد بن يحيى بن شاكر بن عبد الغني (ت902هـ/1497م): القول المستظرف في سفر مولانا الملك الأشرف.تحقيق عبد السلام تدمري، ط1، جروس - برس، طرابلس 1984م.

ابن الحاج: أحمد بن علي، المدخل، دار الكتاب العربي، ط2 بيروت، 1972.

ابن حبان: أبو حاتم بن حبان بن أحمد التميمي: كتاب الثقات، ط1، دار الفكر بدون تاريخ.

ابن حبيب: الحسن بن عمر بن الحسن بن عمر: تذكرة التنبيه في أيام المنور وبنيه، نشر وتحقيق محمد محمد أمين، مراجعة سعيد عبد الفتاح عاشور، مطبعة دار الكتب، القاهرة 1976م.

ابن حجر العسقلاني: شهاب الدين أحمد بن علي (ت853هـ/1449م): الدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة، تحقيق محمد سيد جاد الحق، ط2، دار الكتب الحديثة القاهرة 1966 - 1967م.

أنباء الغمر بأبناء العمر، طبع بإعانة وزارة المعارف للحكومة الهندية تحت مراقبة محمد عبد المعيد خان ط2، دار الكتب العلمية بيروت 1986م.

تهذيب التهذيب، تحقيق مصطفي عبد القادر عطا ط1، دار الكتب العلمية بيروت 1994م.

ابن الحنبلي: رضي الدين محمد بن إبراهيم بن يوسف الحلبي(ت971هـ/1564م):در الحبب في تاريخ أعيان حلب، تحقيق محمود حمد الفاخوري ويحيى زكريا عبارة، منشورات وزارة الثقافة، دمشق 1972م.

ابن الحنبلي: محمد بن ابراهيم (ت971هـ/1563م) إخبار المستفيد بأخبار خالد بن الوليد، تح: حسام الدين الحزوري- دار نور حوران- دمشق ط1-2020

ابن حوقل: أبو القاسم محمد بن علي (ت حوالي 356هـ/ 967م): كتاب صورة الأرض، منشورات دار مكتبة الحياة بيروت 1979م.

ابن خلدون: عبد الرحمن بن محمد (ت 808هـ/1406م): العبر وديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، ضبطه ووضع الحواشي والفهارس خليل شحادة، رجاعه سهيل زكار، ط2، دار الفكر بيروت 1988م.

ابن خلكان: أبو العباس أحمد بن محمد (ت 681هـ/1282م) وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، حققه إحسان عباس، دار صادر، بيروت بدون تاريخ.

ابن دانيال الموصلي: محمد بن دانيال الخزاعي (ت710هـ/1310م): طيف الخيال، خيال الظل وتمثيليات ابن دانيال، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر، القاهرة، د.ط ، 1963م.

ابن دقماق:صارم الدين إبراهيم بن محمد بن أيدمر العلائي(ت 809هـ/1407م): الجوهر الثمين في سيرة الملوك والسلاطين،تحقيق محمد كمال عز الدين علي ط1 عالم الكتب بيروت 1985م.

ابن الدقماق: إبراهيم بن محمد، الجوهر الثمين في سير الخلفاء والملوك والسلاطين، تح: سعيد عاشور، مركز البحث العلمي،جامعة أم القرى، السعودية.

ابن الرسام: أحمد بن أبي بكر بن علي بن إسماعيل الحموي (ت 844هـ): كتاب الأربعين من الأحاديث النبوية عن أربعين من مشايخ الإسلام مروية(مخطوط في المكتبة الظاهرية- دمشق-الورقة

ابن سباط: حمزة بن أحمد بن عمر (ت بعد 926هـ/1520م): صدق الأخبار أو تاريخ ابن سباط، تحقيق عبد السلام تدمري، جروس - برس، طرابلس 1993م.

ابن سعد: محمد بن سعد بن منيع الهاشمي (ت230هـ/ 1496م): الطبقات الكبري، دارسة وتحقيق محمد عبد القادر عطا، ط 1، دار الكتب العلمية بيروت 1990 م.

ابن سعيد: علي المغربي (ت673هـ/ 1274م): بسط الأرض في الطول والعرض، حققه خوان قرنيط حنيس، معهد مولاي الحسن تطوان 1958م

كتاب الجغرافيا تحقيق إسماعيل العربي، ط1 منشورات المكتب التجاري بيروت 1970م.

ابن شاكر الكتبي: أبو عبد الله محمد(ت764هـ/1363م): فوات الوفيات والذيل عليها، حققه إحسان عباس، دار صادر بيروت 1973م.

ابن شاهين الظاهري: غرس الدين خليل (ت873هـ/1468م): زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك تحقيق بولس روايس، المطبعة الجمهورية، باريس 1894م.

ابن شاهين: زين الدين عبد الباسط بن خليل الظاهري (ت920هـ/1514م): نيل الأمل في ذيل الدُّول، تحقيق: د. عمر عبد السلام تدمري، المكتبة العصرية،بيروت، ط1، 1422هـ/2002م

ابن الشحنة: محب الدين أب الفضل محمـد(ت 981هــ/1573م): الـدر المنتخب في تاريخ مملكة حلب، وقف على طبعه وعلق حواشيه يوسـف بن إليان سركيس، المطبعة الكاثوليكية للأباء اليسوعيين بيروت 1909م.

الدر المنتخب في تاريخ مملكة حلب تح: عبد الله درويش.دار الكتاب العربي - حلب - الطبعة الأولى 1984.

ابن شداد: عز الدين محمد بن علي بن إبراهيم (ت684هــ/ 1285م): الأعلاق الخطيرة في ذكر أمـراء الـشام والجزيـرة، تحقيـق سـورديل، ج1، ق2 تحقيقـي يحـيى زكريـا عبـارة، منـشورات وزارة الثقافـة في الجمهوريـة العربيـة الـسورية، دمـشق 1991م، ج2، تحقيـق سـامي الدهان، منشورات المعهد الفرنسي بدمشق، دمشق 1956 - 1962م.

ابن صـصرى: محمـد بـن محمـد(ت بعـد 800هــ/ 1397م): الـدرة المضيئة في الدولة الظاهرية، تحقيـق وترجمـة ونـشر ولـيم م.بيرنـر، جامعة كاليفورنيا تبركلي 1963م.

ابن الصيرفي: علي بن داود الخطيب الجوهري (ت900هــ/ 1494م): أنباء الهصر بأبناء العصر، حققـه حـسن حبـشي، دار الفكـر العـربي، القاهرة 1970م.

نزهة النفوس والأبدان في تواريخ الزمان، تحقيق حسن حبشي، مطبعة دار الكتب القاهرة 1970- 1973 م.

ابن طولون: شمس الدين محمد (ت953هـ/1546م): مفاكهة الخـلان في حوادث الزمان، حققه محمد مصطفى، المؤسسة المـصرية العامـة للتأـليف والترجمة والطباعة والنشر، القاهرة 1962 - 1964م.

قضاة دمشق - الثغر البسام في ذكـرى مـن ولي قـضاة الـشام، تحقيـق صلاح المنجد، مطبعة الترقي، دمشق 1956م.

إعلام الورى بمن وليّ نائباً من الأتراك بدمشق الكبرىتح: عبد العظيم خطاب - القاهرة - 1973.

ابن عباس: شافع بن علي: حسن المناقب السرية المنتزعة من السيرة الظاهرية حققه عبد العزيز الخويطر، الرياض 1976م.

ابن عبد البر: أبو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد (ت 463هـ/1070م). الاستيعاب في معرفة الأصحاب، تحقيق علي محمد البجاوي ط1، دار الجيل، بيروت 1992م.

عبد الظاهر: محيي الدين (ت 692هـ/ 1293م): الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر تحقيق عبد العزيز الخويطر، ط1، الرياض 1976م.

تشريف الأيام والعصور في سيرة الملك المنصور، تحقيق مراد كامل مراجعة محمد علي النجار الشركة العربية للطباعة والنشر القاهرة 1961م.

ابن عبد ربه: الأندلسي أحمد بن محمد (ت 328هـ/940م): العقد الفريد، تحقيق مفيد محمد قميحة، دار الكتب العلمية، بيروت، بدون تاريخ.

ابن العبري: أبو الفرج يوحنا غريغورس (ت685هـ/1286م) تاريخ مختصر الدول، دار الميسرة بيروت بدون تاريخ.

ابن العديم: عمر بن أحمد بن هبة الله (ت 660هـ/1262م): زبدة الحلب من تاريخ حلب، حققه ووضع فهارسه سامي الدهان، المعهد الفرنسي دمشق 1968م.

بغية الطلب في تاريخ حلب، حققه وقدم له سهيل زكار، دمشق 1988م.

ابن عربشاه: أبو العباس شهاب الدين أحمد بن محمد الدمشقي (ت854هـ/1450م): عجائب المقدور في نوائب تيمور، تحقيق أحمد فايز الحمصي ط1، مؤسسة الرسالة، بيروت 1986م.

ابن ناصر الدين: محمد بن أبي بكر الدمشقي: الرد الوافر من زعم بأن من سمى ابن تيمية شيخ الإسلام كافرتح: زهير الشاويش، دار المكتب الإسلامي، ط1، بيروت، 1973

توضيح المشتبه في ضبط أسماء الرواة وأنسابهم وألقابهم وكناهم تح: محمد نعيم العرقسوسي، دار الرسالة، بيروت، 1993.

ابن هشام: أبو محمد بن عبد الملك بن هشام بن أيوب الحميري، السيرة النبوية، تح. د. محمد نبيل طريفي - دار صادر - بيروت - الطبعة الأولى -2003

ابن الوردي: سراج الدين عمر بن مظفر (ت 749هـ) خريدة العجائب وفريدة الغرائب القاهرة 1923.

الاصطخري: أبو إسحق إبراهيم محمد الفارسي (ت ق 4هـ/10م): المسالك والممالك حققه محمد جابر عبد العال الحسيني، مراجعة محمد شفيق غربال، دار القلم، القاهرة 1961م.

الأصفهاني: عماد الدين محمد بن أحمد (ت 597هـ/1201م): البرق الشامي الأجزاء المحققة، تحقيق مصطفي الحياري ط1 مؤسسة عبد الحميد شومان عمان 1987م.

الأنصاري: شرف الدين موسى بن يوسف (ت بعد 1002هـ/1594م)، تحقيق عدنان محمد إبراهيم، منشورات وزارة الثقافة في الجمهورية العربية السورية، دمشق 1991م.

البخاري : أبو عبد الله محمد بن إسماعيل صحيح البخاري ، عالم الكتب، ط1، بيروت، دون تاريخ.

البغدادي: صفي الدين عبد المؤمن بن عبد الحق (ت 739هـ/ 1338م) مراصد الإطلاع في أسماء الأمكنة والبقاع، تحقيق وتعليق علي محمد البجاوي، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة 1954م.

البكري: عبد الله بن عبد العزيز (ت 487هـ/1094م): معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع، تحقيق مصطفي السقا، عالم الكتب بيروت 1951م.

بنيامين بن بونة التطيلي: الأندلسي (ت569هـ/ 1173م): رحلة بنيامين(561- 569هـ/ 1165 - 1172م) ترجمة عزرا حداد، المطبعة الشرقية بغداد 1945م.

تقي الدين الفاسي: محمد بن أحمد بن علي، ذيل التقييد في رواة السنن والأسانيد، تح: كمال يوسف الحوت، دار الكتب العلمية، بيروت.

الجوبري عبد الرحمن بن عمر (ت663هـ/1265م): المختار في كشف الأسرار وهتك الأستار، تح: عصام شبارو، دار التضامن للطباعة والنشر، القاهرة، د.ط ، 1992م.

حاجي خليفة: مصطفى بن عبد الله القسطنطيني (ت1067 هـ/1657م) كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، دار الفكر بيروت 1982م.

الحسيني: أبو بكر بن هداية الله (ت 1014هـ/1605م)، طبقات الشافعية، تحقيق عادل نويهض ط3 دار الآفاق الجديدة بيروت 1984م.

الحسيني : أبو المحاسن محمد بن علي بن الحسن (ت765 هـ/1364م) ذيل تذكرة الحفاظ المنشور في الجزء الخامس من كتاب تذكرة الحفاظ للذهبي، دار الكتب العلمية بيروت بدون تاريخ.

الحموي: شهاب الدين أبي عبد الله ياقوت بن عبد الله (ت 626هـ/ 1228م). معجم البلدان، دار إحياء التراث العربي، بيروت 1979م.

المشترك وضعاً والمفترق صقعاً ط2، عالم الكتب، بيروت 1986م.

الحنبلي: أبو اليمن القاضي مجير الدين (ت927هـ/1521م): الأنس الجليلبتاريخ القدس والجليل، مكتبة المحتسب عمان 1873م.

الحنبلي: أحمد بن إبراهيم (ت876هـ/1471م): شفاء القلوب في مناقب بني أيوب، تحقيق: كاظم رشيد، وزارة الثقافة والفنون، بغداد 1978م.

الحنبلي : أبو الفلاح عبد الحي بن العماد (ت1089هـ/1678م): شذرات الذهب في أخبار من ذهب، دار الكتب العلمية بيروت بدون تاريخ.

خسرو: ناصر (ت480هـ/1088م): سفر نامة، ترجمة يحيى الخشاب، دار الكتاب الجديد، بيروت 1983م.

الدوادار: المنصوري بيبرس (ت725هـ/1325م): التحفة الملوكية في الدولة التركية، نشره عبد الحميد صالح حمدان، ط1، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة 1987م.

الدويهي: اسطفاف (ت1116هـ): تاريخ الأزمنة، نشره بطرس فهد، مطابع الكريم الحديثة بيروت 1976م.

الذهبي: أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز (ت748هـ/1347م): سير أعلام النبلاء، مؤسسة الرسالة بيروت 1982 - 1984م.

العبر في خبر من غبر حققه هاجر محمد السعيد بن بسيوني زغلول ط1، دار الكتب العلمية بيروت 1985م ويتضمن الجزء الرابع من كتاب ذيل العرب للذهبي، وذيل العبر للحسيني (ت764هـ/1363م).

دول الإسلام في التاريخ، ط 2 مطبعة دائرة المعارف النظامية حيدر آباد الدكن - الهند 1364هـ/ 1945م.

من ذيول العبر، تحقيق: صلاح الدين المنجد، مطبعة الكويت الحكومية، الكويت، د.ط ، 2011م.

الأعلام بوفيات الأعلام: تحقيق رياض عبد الحميد مراد، وعبد الجبار زكار، دار الفكر المعاصر، بيروت 1991م.

ذيل تذكرة الحفاظ الذهبي المنشور في الجزء الخامس من كتاب تذكرة الحفاظ للذهبي، دار الكتب العلمية، بيروت بدون تاريخ.

سبط بن الجوزي: شمس الدين أبي المظفر يوسف بن قزاوغلي (ت654هـ/1256م): مرآة الزمان في تاريخ الزمان، نشره وقابله بأصوله وعلق عليه علي سويلم، مطبعة الجمعية التاريخية التركية، أنقرة 1968م.

السبكي: تاج الدين أبي نصر عبد الوهاب بن علي بن عبد الكافي (ت 771هـ/ 1370م): طبقات الشافعية الكبرى، تحقيق محمود محمد الطناحي، وعبد الفتاح محمد الحلو، دار إحياء الكتب العربية، بيروت 1918م.

معيد النعم ومبيد النقم ط1، دار الحداثة بيروت 1983م.

معيد النعم ومبيد النقم، مؤسسة الكتب الثقافية، ط1، 1986

السخاوي: شمس الدين محمد بن عبد الرحمن (ت 902هـ/1497م): الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، ط1، دار الجيل، بيروت 1992م.

التبر المسبوك في ذيل السلوك، مكتبة الكليات الأزهرية، القاهرة، بدون تاريخ

الذيل على رفع الأصر بغية العلماء والرواة، تحقيق جودة هلال، ومحمد محمود صبح، الدار المصرية للتأليف والترجمة، القاهرة دون تاريخ.

السيوطي: جلال الدين عبد الرحمن (ت 911هـ/ 1505م): ذيل طبقات الحفاظ للذهبي، المنشور في الجزء الخامس من كتاب تذكرة الحفاظ للذهبي دار الكتب العلمية بيروت بدون تاريخ.

حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرةتح: محمد أبو الفضل: إبراهيم، المكتبة العصرية، ط1، صيدا، 2004

حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة) القاهرة -1981.

تاريخ الخلفاء، دار الفكر - بيروت - الطبعة الأولى - 2001.

السويدي: محمد أمين البغدادي (ت 1246هـ/ 1830م):

سبائك الذهب في معرفة قبائل العرب، دار الكتب العلمية، بيروت 1986م.

أبو شامة: شهاب الدين عبد الرحمن، ذيل الروضتين، تح: إبراهيم شمس الدين - دار الكتب العلمية - ط1 - بيروت - 2002.

شمس الدين: محمد بن عبد الرحمن: الذيل على رفع الأصر بغية العلماء والرواة تح: جودة هلال، ومحمد محمود صبح، الدار المصرية للتأليف والترجمة، القاهرة دون تاريخ.

الشهرستاني محمد عبد الكريم: الملل والنحل، تح: جميل صدقي العطار، دار الفكر، بيروت، الطبعة الأولى، 2005.

الشوكاني : محمد بن علي (ت 1250هـ/1834م): البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت 1348هـ/ 1959م.

شيخ الربوة : شمس الدين محمد بن أبي طالب الأنصاري (ت727هـ/ 1327م).نخبة الدهر في عجائب البر والبحر، صورة عن طبعة مطبعة الأكاديمية الإمبراطورية، بطرسبرغ 1865م.

الشيزري : عبد الرحمن بن نصر (ت589هـ/1193م): كتاب نهاية الرتبة في طلب الحسبة نشره السيد الباز العريني بإشراف محمد مصطفى زيادة، كطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر القاهرة 1946م.

الصفدي : صلاح الدين خليل أيبك (ت 764هـ/ 1363م): الوافي بالوفيات دار النشر فرانز شتايز بفيسبادن. ط2، 1962م

أمراء دمشق في الإسلام، حققه صلاح الدين المنجد 1995م.

نكت الهميان في نكت العميان، نشر أحمد زكي بك المطبعة الجمالية، مصر 1911م.

الصقاعي : فضل الله بن أبي الفخر (ت 726هـ/1326م): تالي كتاب وفيات الأعيان، حققه جاكلين سويله، دمشق 1974م.

العليمي الحنبلي: مجير الدين (ت927هـ/ 1521م) الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل،مكتبة المحتسب، عمان 1973م.

العيني:بدر الدين محمود (ت 855هـ/ 1451م): عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان، تحقيق محمد محمد أمين، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة 1987.

السيف المهند في سيرة الملك المؤيد شيخ المحمودي، حققه وقدم له فهيم محمد شلتون، راجعه محمد مصطفي زيادة، دار الكتب العربي للطباعة والنشر، القاهرة 1966 - 1967م.

أبو الفداء: عماد الدين إسماعيل بن علي (المختصر في أخبار البشر) تعليق محمود ديوب - دار الكتب العلمية - بيروت - الطبعة الأولى - 1997.

الفراهيدي : الخليل بن أحمد الأزدي (ت170هـ/786م): كتاب العين، تح: د. مهدي المخزومي ود. إبراهيم السامرائي، دار ومكتبة الهلال، د.ط،ت.

القرماني: أحمد بن يوسف (ت 1019هـ/ 1610م): أخبار الدول وآثار الأول في التاريخ، دراسة وتحقيق فهمي سعد، وأحمد حطيط ط1 عالم الكتب بيروت 1992م.

القفطي: جمال الدين أبي الحسن علي بن يوسف (ت724هـ/ 1226م): أنباه الرواة على أنباه النحاة، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ط 1، دار الفكر العربي القاهرة 1986م.

القلقشندي: أبو العباس أحمد بن علي (ت821هـ/ 1418م): صبح الأعشى في صناعة الإنشاء دار الكتب العلمية بيروت 1987م.

نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب ط1 دار الكتب العلمية بيروت 1984م.

مآثر الأناقة في معالم الخلافة 3 ج، تحقيق عبد الستار أحمد فراج ط2 وزارة الإعلام الكويتية 1985م.

المسعودي: علي بن الحسين (مروج الذهب ومعادن الجوهر) تح: قاسم الرفاعي - دار القلم - بيروت - الطبعة الأولى - 1989.

المقدسي: محمد بن أحمد (ت375هـ/986م): أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، مكتبة الخياط، بيروت 1906م.

المقريزي: تقي الدين أحمد بن علي (ت845هـ/1441م): السلوك لمعرفة الدول الملوك ج 1 -2 حققهما محمد مصطفة زيادة، ط 2، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، مصر 1956 - 1958م، ج 3 - 4 حققهما سعيد عاشور، مطبعة دار الكتب الاقهرة 1970م - 1973م.

السلوك لمعرفة دول الملوك، تح: محمد عبد القادر عطا - دار الكتب العلمية - بيروت - الطبعة الأولى - 1997

الخطط المقريزية: تح: د.محمد زينهم - مديحة الشرقاوي - مكتبة مدبولي - القاهرة - الطبعة الأولى - 1997.

المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار المعروف بالخطط المقريزية، دار صادر بيروت بدون تاريخ.

اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء 2 ج تحقيق محمد حلمي أحمد، لجنة إحياء التراث الإسلامي القاهرة 1973م.

النقود الإسلامية المسمى بشذور العقود في ذكر النقود تحقيق محمد السيد علي بحر العلوم، ط5، منشورات المكتبة الحيدرية، النجف 1967م.

إغاثة الأمة بكشف الغمة، حققه محمد مصطفي زيادة، وجمال الدين الشيال، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة 1940م.

الكتاني عبد الحي بن عبد الكبير: فهرس الفهارس والأثبات ومعجم المعاجم والمشيخات والمسلسلات باعتناء إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي، بيروت 1986م.

المكي: محمد بن السيد بن الحاج مكي بن الخانقاه (ت1135هـ/ 1722م): تاريخ حمص يوميات محمد المكي من سنة 1100هـ/ 1688م - 1135 ه - 1722م، حققه وقدم له عمر نجيب العمر، المعهد العلمي الفرنسي للدراسات العربية بدمشق 1987م.

المؤرخ المجهول (ت742هـ/ 1341م): تاريخ سلاطين المماليك، حققه زبترستين، ليدن - بريل 1919م.

المؤيد هبة الله: بن موسى بن داود الشيرازي (ت 470هـ/ 1078م): سيرة المؤيد في الدين داعي الدعاة، ترجمة حياته بقلمه: تقديم وتحقيق محمد كامل حسين، دار الكاتب المصري، القاهرة 1949م.

النعيمي: عبد القادر بن أحمد (ت 937هـ/ 1521م): الدارس في تاريخ المدارس، حققه جعفر الحسيني، مطبعة الترقي دمشق 1948 - 1951م.

النعيمي: عبد القادر: الدارس في تاريخ المدارس-تح:عمار النهار-الهيئة العامة السورية للكتاب-دمشق-ط1-2014-

النويري: أبو العباس أحمد بن عبد الوهاب (ت 732هـ/1331م): نهاية الأرب في فنون الأدب، القاهرة 1976م.

الهروي: أبو الحسن علي بن أبي بكر (ت611هـ/ 1215م): كتاب الإشارات إلى معرفة الزيارات، تحقيق جانين سورديل طومين، المعهد الفرنسي للدراسات العربية دمشق 1953م.

الواقدي: أبو عبد الله محمد بن عمر (ت207هـ/ 823م): فتوح الشام، دار الجيل للنشر والتوزيع ولطباعة، بيروت بدون تاريخ.

اليافعي: أبو محمد عبد الله بن أسعد بن علي بن سليمان عفيف الدين (ت 768هـ/ 1367م)، مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة ما يعتبر من حوادث الزمان، طبعة حيدر أباد الدكن - الهند 1338هـ/ 1919م.

اليعقوبي: أحمد بن واضح (ت 759هـ/ 897م): كتاب البلدان، منشورات المطبعة الحيدرية، النجف 1980م.

اليوسفي: موسى بن محمد بن يحيى (ت 759هـ/ 1358م): نزهة الناظر في سيرة الملك الناصر، تحقيق ودراسة أحمد حطيط ط1، عالم الكتب، بيروت 1986م.

اليونيني : قطب الدين أبي الفتح موسى بن محمد بن أحمد (ت 726هـ/ 1326م): ذيل مرآة الزمان، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية حيدر أباد الدكن، الهند 1951 - 1961م.

ثانياً : المراجع

إبراهيم علي حسن: تاريخ المماليك البحرية، مكتبة النهضة المصرية - القاهرة - ط2 – 1948.

أبو زيد سهام مصطفى: الحسبة في مصر الإسلامية من الفتح العربي إلى نهاية العصر المملوكي، الهيئة المصرية العامة للكتاب القاهرة 1986م.

أحمد علي: اليهود في الأندلس والمغرب خلال العصور الوسطى، مجلة دراسات تاريخية - العدد 57 أيلول - 1996

أشير أدي: كتاب الألفاظ الفارسية المعربة، المطبعة الكاثوليكية للآباء اليسوعيين بيروت 1908م.

أمين محمود: سلمية في خمسين قرناً، سلمية 1983م.

باشميل محمد أحمد: العرب في الشام قبل الإسلام ط1، دار الفكر بيروت 1973م.

بوليالك ا.ن: الإقطاعية في مصر وسوريا وفلسطين ولبنان، ترجمة عاطف كريم ط1 دار المكشوف بيروت 1948م.

بني حمد فيصل عبد الله محمد: الأسواق الشامية في العصر المملوكي، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة اليرموك 1992م.

جان شرف: الإيديولوجيةمنشورات الجامعة اللبنانية، بيروت، 1966.

جودة صادق أحمد داود: المدارس العصرونية في بلاد الشام ط 1 مؤسسة الرسالة بيروت 1986م.

حتي فيليت، تاريخ لبنان منذ أقدم العصور إلى عصرنا الحاضر، ترجمة أنيس قويسه ط2، دار الثقافة بيروت 1972م.

حتي فيليب: تاريخ العرب، دار الكشاف، بيروت،الطبعة الرابعة، 1974.

الحجي حياة ناصر: أحوال العامة في حكم المماليك ؛ دراسة في الجوانب السياسية والاقتصادية والاجتماعية، دار القلم، بيروت، ط1، 1994م

حسن إبراهيم علي: تاريخ المماليك البحرية مكتبة النهضة المصرية القاهرة 1944م

حسن علي إبراهيم: دراسات في تاريخ المماليك البحرية- القاهرة - الطبعة الثانية 1949.

حسن محمد إبراهيم: دراسات في جغرافية الوطن العربي حوض البحر المتوسط دراسة تحليلية لمظاهر التربة ومصادر المياه والإنتاج الزراعي والرعوي في الأراضي الجافة، مؤسسة شباب الجامعة للطباعة والنشر والتوزيع، الإسكندرية 1989م.
حسين فالح: الحياة الزراعية في بلاد الشام في العصر الأموية، فرايبورغ المانيا الغربية 1978م.
حماده سعيد: النظام الاقتصادي في سوريا ولبنان المطبعة الأمريكية بيروت 1936م.
الخطيب محمد عثمان: الأوقاف الإسلامية في فلسطين في العصر المملوكي، دار الكتاب الثقافي
الخالدي خالد يونس: الزلازل في بلاد الشام، من القرن الأول إلى القرن الثالث الهجري/القرن السابع إلى القرن التاسع الميلادي، مجلة الجامعة الإسلامية، مج13، العدد 1، يناير 2005م
الخوري عيسى أسعد منير: تاريخ حمص من 2300 ق.م حتى يومنا هذا 20 ق ط1 مطرانية حمص 1940 - 1984م.
دانتسيغ ب.م.: الرحالة الروس في الشرق الأوسط: ترجمة وتعليق معروف خزنة دار، دار الرشيد للنشر، بغداد 1981م.
الدباغ مصطفي مراد: القبائل العربية وسلائلها في بلادنا فلسطين، المؤسسة العربية للدراسات والنشر.
الدبس يوسف إلياس: تاريخ سورية 9ج المطبعة العمومية، بيروت 1905م.
الدوري عبد العزيز: مقدمة في التاريخ الاقتصادي العربي، دار الطليعة بيروت 1969م.
راوولف ليونهارت: رحلة المشرق إلى العراق وسوريا وفلسطين عام 981هـ / 1573م ترجمة سليم طه التكريتي، منشورات وزارة الثقافة والفنون، العراق 1978م.

ربيع محمد حسنين: النظم المالية في مصر زمن الأيوبيين، القاهرة 1964م.
رنيسمان ستيفن: تاريخ الحروب الصليبية ترجمة: السيد الباز العريني - دار الثقافة - بيروت الطبعة الثانية - 1980
الزركلي خير الدين: الأعلام قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين 8ج دار العلم للملايين بيروت.
زعرور إبراهيم: الحياة الاجتماعية في بلاد الشام في العصر الأيوبي والمملوكي، تقديم سهيل زكار مطبعة الجمهورية - دمشق - 1993.
زكريا أحمد وصفي: جولة أثرية في بعض البلاد الشامية، ط 2، دار الفكر، دمشق 1984م.
زكريا أحمد وصفي:عشائر الشام، قدم له أحمد غسان سبانو، ط2 ـ دار الفكر دمشق 1983م.
الزيدي مفيد: موسوعة التاريخ الإسلامي، العصر المملوكي، عمان2020.
سبانو أحمد غسان: مملكة حماة الأيوبية، دار قتيبة دمشق 1984م.
سرور محمد جمال:دولة بني قلاوون في مصر، دار الفكر العربي، القاهرة 1947م.
سعيد إبراهيم أحمد: جغرافية الوطن العربي، مطبعة الاتحاد دمشق 1991م.
الشربيني إسماعيل البيومي: النظم المالية في مصر والشام زمن سلاطين المماليك، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ط1، 1998م.
شلبي: أحمد،موسوعة التاريخ الإسلامي، مكتبة النهضة المصرية، ط7، 1986
الشهابي قتيبة: زخارف العمارة الإسلامية في دمشق،وزارة الثقافة، دمشق، 1996.

صابان سهيل: المعجم الموسوعي للمصطلحات العثمانية التاريخية، مكتبة الملك فهد الوطنية، الرياض، د.ط ، 1421هـ/2000م.

صادق أحمد داود جودة: المدارس العصرونية في بلاد الشام ط 1 مؤسسة الرسالة بيروت 1986م

الصياد محمد محمود: معالم جغرافية الوطن العربي، دار النهضة العربية للطباعة والنشر - بيروت 1970م.

ضومط انطون خليل: الدولة المملوكية التاريخ السياسي والاقتصادي والعسكري 1290 - 1422م، ط 2 دار الحداثة بيروت 1982م.

طه ثلجي الطراونة: مملكة صفد في عهد المماليك، دار الآفاق الجديدة بيروت 1982م.

طرخان إبراهيم علي: النظم الاقطاعية في الشرق الأوسط في العصور الوسطى، دار الكاتب العربي للطباعة والنشر، القاهرة 1968م.

طقوش محمد سهيل: تاريخ المماليك في مصر والشام، دار النفائس، بيروت، الطبعة الأولى، 1997 -

عاشور سعيد عبد الفتاح: العصر المماليكي في مصر والشام، مكتبة الأنجلو مصرية - القاهرة الطبعة الثالثة - 1994.

عاشور سعيد: نظم الحكم والإدارة في عصر الأيوبيين والمماليك، دار المعارف - سوسة - د.ر.ت.ط.

عاشور فايد حماد: العلاقات السياسية بين المماليك والمغول في الدولة المملوكية الأولى، دار المعارف، القاهرة 1974م.

العبادي أحمد مختار: قيام دولة المماليك الأولى في مصر والشام، دار النهضة العربية، بيروت 1986م.

العبادي أحمد مختار: قيام دولة المماليك الأولى في مصر والشام، دار النهضة العربية، بيروت 1986م

عبد الدايم عبد العزيز: الرق في مصر في العصور الوسطى، مكتبة نهضة الشرق - القاهرة - الطبعة الأولى - 1983

عبد السلام عادل: الأقاليم الجغرافية السورية، مطبعة الاتحاد دمشق 1989 - 1990م.

عبد السيد حكيم أمين: قيام دولة المماليك الثانية، الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة 1966م.

عبد العاطي عبد الغني: التعليم في مصر زمن الأيوبين والمماليك، دار المعارف - ط1- القاهرة

عبد المنعم صبحي: الشرق الإسلامي زمن المماليك والعثمانيين، دار العربي، القاهرة، د.ر.ت.ط.

عبد الهادي: شريف، نيابة طرابلس في عصر سلاطين المماليك، دار التعليم الجامعي

العريني السيد الباز: المغول، دار النهضة العربية للطباعة والنشر بيروت 1986م.

العريني السيد الباز: المماليك، دار النهضة، بيروت - الطبعة الأولى - 1979.

العطاري جلال يوسف: حركة التأليف العلمي في مصر والشام في العصر المملوكي الأول، دار الفكر، عمان، د.ط ، 2010م.

عطوان حسين: الجغرافية التاريخية لبلاد الشام في العصر الأموي ط1 دار الجيل، بيروت 1987م

العلبي أكرم حسن:دمشق بين عصر المماليك والعثمانيين 906هـ/ 1550م - 922هـ/1520م ط1 الشركة المتحدة للطباعة والنشر، دمشق 1986م.

عيسى: أحمد، تاريخ البيمارستانات في الإسلام د.ر.ط

الغامدي علي محمد علي عودة: بلاد الشام قبيل الغزو المغولي 589 - 657هـ/ 1193 - 1259م ط1، مكتبة الطالب الجامعي، مكة المكرمة 1988م.
غانم حامد زيان: صفحة من تاريخ الخلافة العباسية في ظل دولة المماليك، دار الثقافة - القاهرة - الطبعة الأولى - 1987.
فرغلي: محمد، الدليل الموجز لأهم الآثار الإسلامية والقبطية في القاهرة، الدار المصرية اللبنانية، ط1، القاهرة، 1991
فهمي نعيم زكي: طرق التجارة الدولية ومحطاتها بين الشرق والغرب، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة 1973م.
قاسم عبده قاسم: أسواق مصر في عصر سلاطين المماليك، مطابع جامعة عين شمس، القاهرة، د.ط ، 1978م.
كراتشكوسفكي اغناطيوس: تاريخ الأدب الجغرافي العربي 2 ج ترجمة صلاح الدين هاشم، وراجعه أيفور بليايف لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة 1963 - 1965م.
كرد علي محمد: خطط الشام 6 ج، ط3 / مكتبة النوري، دمشق 1983م.
الكرملي انستاس ماري: النقود العربية وعلم النُميات، المطبعة المصرية القاهرة 1939م.
لابدوس إيرامارفين: مدن إسلامية في عهد المماليك، نقله إلى العربية علي ماضي، الأهلية للنشر والتوزيع، بيروت 1987م.
مجموعة مؤلفين: الموسوعة العربية العالمية، مؤسسة أعمال الموسوعة للنشر والتوزيع شارك فيها مجموعة كبيرة من المفكرين وأهل العلم العرب والمسلمين وغيرهم الرياض، ط2، 1419هـ/1999م.
النابلسي عبد الغني إسماعيل: الحقيقة والمجاز في الرحلة إلى بلاد الشام ومصر والحجاز تقديم وإعداد أحمد عبد المجيد هريدي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة بدون تاريخ

النباهين علي سالم: نظام التربية الإسلامية في عصر دولة المماليك في مصر، دار الفكر العربي - القاهرة - الطبعة الأولى - 1981.
النحال رشا فخري: فن الرسائل في العصر المملوكي ؛ دراسة تحليلية، الجامعة الإسلامية، غزة، د.ط، 2013م، 2014م
هايد.ف: تاريخ التجارة في الشرق الأدنى في العصور الوسطى، ترجمة أحمد محمد رضا، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة 1985م.
هنتس فالتر: المكاييل والأوزان الإسلامية ما يعادلها في النظام المتري، ترجمة كامل العسلي، عمان 1970م.
وتر محمد ضاهر: معركة عين جالوت، بيروت الطبعة الأولى - 1989.
الولي طه: المسجد في الإسلام: دار العلم للملايين بيروت 1988م.

ثالثاً: الرسائل العلمية:

أبو شلوف نسيم زريق جمعة: الأوضاع الاجتماعية في فلسطين في العهد المملوكي (648هـ- 923هـ/1250م - 1517م)، رسالة ماجستير غير منشورة في التاريخ الإسلامي، إشراف: د. رياض مصطفي شاهين، كلية الآداب، قسم التاريخ والآثار، الجامعة الإسلامية، غزة، 1430هـ/2009م

أبو الفرج هيام صالح يحيى: مجتمع دمشق ودوره السياسي في عصر الدولة المملوكية الثانية 784ه - 923هـ/1382م - 1517م، رسالة ماجستير غير منشورة في التاريخ الإسلامي، إشراف: د. محمد المنسي محمود عاصي، كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، قسم الدراسات العليا التاريخية والحضارية، جامعة أم القرى، مكة المكرمة، 1421هـ/2000م

حجازي فايزة عبد الرحمن: أهل الذمة في بلاد الشام في العصرين الأيوبي والمملوكي رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة اليرموك 1992م

الخصاونة حسين أحمد سعيد: طبقات المجتمع في بلاد الشام في العصر المملوكي، رسالة ماجستير غير منشورة، اليرموك 1992م

خطاب: حنفي محمود: الحركات الداخلية في الدولة المملوكية الأولى، رسالة ماجستير غير منشورة - كلية الآداب - جامعة القاهرة - 1949

الزهراني سعدية: الفئات الشّعبيّة في بلاد الشام خلال العصر المملوكي658هـ - 923هـ/1260م - 1516م دراسة تاريخية حضارية، إشراف عبد الله سعيد الغامدي- جامعة أم القرى- 2017

الشلي فيصل، الأوضاع الإدارية في بلاد الشام خلال الفترة المملوكية الثانية، رسالة دكتوراه غير منشورة، جامعة دمشق، إشراف د.إبراهيم زعرور- 2006

الطراونة: محمد مبارك، نيابة حمص في العهد المملوكي، رسالة ماجستير - الجامعة الأردنية-إشراف د.طه الطراونة، 1996

القططي عبد الرؤوف جبر: السجون في مصر وبلاد الشام في الدولتين الأيوبية والمملوكية 676هـ - 923هـ/1171م - 1517م، رسالة ماجستير في التاريخ، إشراف: د. رياض مصطفى شاهين، الجامعة الإسلامية، غزة، 1433هـ/2012م

غوانمة يوسف درويش: تاريخ نيابة بيت المقدس في العصر المملوكي، دار الحياة، الزرقاء، الأردن، (د.ط)، 1982م، ص108.

المباركي فاطمة محمد حسن: الأزمات الإقتصادية في الحجاز خلال العصر المملوكي (648هـ- 923هـ/1250م- 1517م)، رسالة دكتوراه غير منشورة، جامعة أم القرى، مكة، 1432هـ/2012م.

المدني زياد عبد العزيز: مدينة حلب في العصر المملوكي الثاني من خلال كتاب الدر المنتخب في تاريخ حلب لمؤلفه علاء الدين أبي الحسن بن خطيب الناصرية الحلبي، المتوفى سنة(ت 843هـ/ 1439م) رسالة ماجستير غير منشورة، الجامعة الأردنية 1983م.

مقابلة إيمان أحمد: القرية في بلاد الشام في العصر المملوكي، رسالة ماجستير غير منشورة في التاريخ الإسلامي، إشراف: د. يوسف حسن غوانمة، كلية الآداب، قسم الآثار، جامعة اليرموك، الأردن، 1998م

المقابلة معن عليّ أحمد: المؤسسات الاجتماعية والثقافية في بلاد الشام في العصر المملوكي،رسالة ماجستير غير منشورة، إشراف:د.نعمان جبران،جامعة اليرموك،1412هـ/1992م.

مكاحلة نهى محمد: الزراعة في بلاد الشام في العصر المملوكي، رسالة ماجستير غير منشورة جامعة اليرموك 1992م.

النوايسة كرم عبد الله محمد: زيف النقود في عصر دولة المماليك البرجية (784هـ - 922هـ/1383م - 1551م)، رسالة ماجستير غير منشورة في التاريخ الإسلامي، جامعة مؤتة، الأردن

النهار عمار: الحياة الفكرية في مصر في عصر دولة المماليك البحرية، رسالة دكتوراه - جامعة دمشق -إشراف د.إبارهيم زعرور2005.

رابعاً : المقالات العربية

أحمد علي: أعمال الرباط والمشاغرة في التاريخ العربي الإسلاميمجلة دراسات تاريخية، العددان / 72، 73/ آذار، حزيران، 2001

البدري رياض: الجامع الثوري بحمص مجلة الحوليات الأثرية المديرية العامة للآثار والمتاحف في الجمهورية العربية السورية مجلد 31 سنة 1981م

بني حمد فيصل عبد الله: العوامل المؤثرة في تذبذب أسعار المواد الغذائية في بلاد الشام خلال العصرين المملوكيين الأول 648هـ، 784هـ/1250م، 1381م والثاني 784هـ، 922هـ/1381م - 1517م ، أوراق بحثية ودراسات إسلامية، عمان، الأردن، بتاريخ 2/8/2007م.

دراج أحمد: تراجم كتاب السر في العهد المملـوكي 648 - 922ه، مجلـة البحث العلمي والتراث الإسلامي / م4، دار مكة 1981.

الدوري عبد العزيز: العرب والأرض في بلاد الـشام في صـدر الإسـلام، المؤتمر الدولي الأول لتاريخ بلاد الشام، عمان 1974م،.

دوكوسو اغستون: تاريخ الحرير في بلاد الشام، مجلة المشرق م15، ع 4، 1912م.

الريماوي سهيلة: مدينة حمص عند الفتح الإسلامي: المؤتمر الدولي الرابع لتاريخ بلاد الشام م3، عمان 1987،.

زكار سهيل: أبو الفداء البيئة، الأمير، المـؤرخ، المعرفـة ع 154 دمـشق، كانون الأول 1974م.

الطراونة مبارك محمد: الأوبئة الطواعين وآثارها الاجتماعية في بلاد الشام في عصر المماليك الجراكسة 784 هـ، 922هـ/1382م، 1516م ، المجلة الأردنية للتاريخ والآثار، المجلد 4، العدد3.

عبد الحق سليم عادل، بحث موجز في تاريخ مدينة حمص وآثارها، مجلة الحوليات الأثرية السورية، م10، 1960م.

عبد الرزاق باشا مصطفى: نشأة كلمة صوفي ومتـصوف وأصـلهما.دائـرة المعارف الإسلامية ج5.

فربيوهي « تدمر» دائرة المعارف الإسلامية ج5.

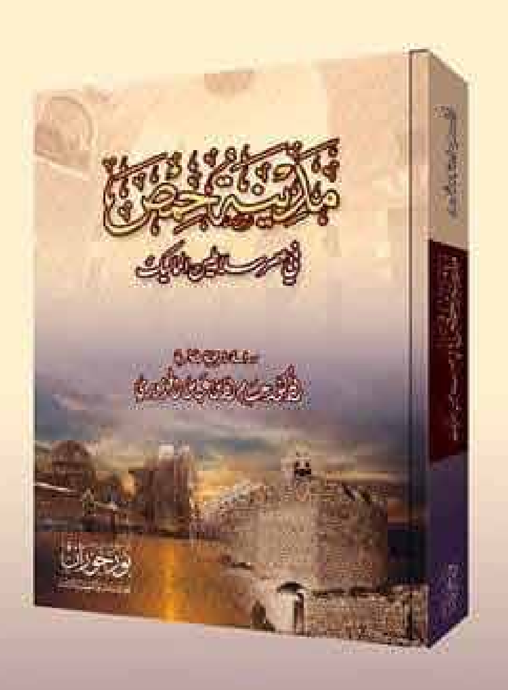
مارسيه، جورج «الرباط» دائرة المعارف الإسلامية ج10.

مصطفي شاكر: دخول الترك الغز إلى الشام، المؤتمر الدولي الأول لتاريخ بلاد الشام، ط 1، الدار المتحدة للنشر بيروت 1974م.

نصر، سوسن محمد: بنو أيوب مع الخوارزميـة والمغـول والمماليـك في شمال الجزيرة، المجلة التاريخية المصرية، المجلدان 30، 31 عـام 1983 - 1984م مطبعة الجيلاوي القاهرة 1984م.

* * *

الفهارس



خضعت نيابة حمص في عهد ملكها الأشرف موسى للسلطنة المملوكية في أعقاب معركة عين جالوت سنة ٦٥٨هـ / ١٢٦٠م حينما أقرّ السلطان قطز في العام نفسه الملك الأشرف موسى حاكماً على حمص وتوابعها، وبعد مقتل قطز في ٥ ذي القعدة ٦٥٨ه / ٢٦ تشرين أول ١٢٦٠م، أعلن الأشرف موسى ولاءه للظاهر بيبرس بمحاربة المغول في المعركة التي دارت شمالي مدينة حمص قرب قبر خالد بن الوليد، وبإعلانه أن جميع ما يملكه قد انتقل إلى الملك الظاهر بيبرس، وليؤكد تبعيته هذه ذهب ليقدم الخدمة (الولاء والطاعة) للملك الظاهر بيبرس سنة ٦٦١ه /١٢٦٢م أثناء إقامته في دمشق حيث خلع الملك الظاهر بيبرس على الأشرف، وأقره على حمص ومضافاتها، وأرجع إليه تل باشر التي اقتطعها منه المظفر قطز، وبقي الأشرف موسى يحكم حمص وأعمالها حتى توفي سنة ٦٦٢ه / ١٢٦٤م، وبعد ذلك أصبحت حمص نيابة مستقلة تتبع مباشرة للسلطان المملوكي في مصر . وقد خضعت بلاد الشام للسلطة المملوكية بعد هزيمة المغول في معركة عين جالوت سنة ٦٥٨هـ/١٢٥٩م.



دمشق - سورية - ص.ب 5658
00963 933 329 555
00963 941 329 555
nourpublishing@gmail.com





ISBN 978-9933-600-56-3

